برتراند رسل

لماذا لستُ مسيحياً

ترجمة: عبد الكريم ناصيف









برتراند رسل

لماذا لست مسيحياً؟



برتراند رسل

لماذا لست مسيحياً؟

ترجمة عبد الكريم ناصيف





BERTRAND RUSSELL
Why I am not a Christian
الطبعة الأولى 2015

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963112257677
ص. ب: 11418، دمشق . بيروت
www.attakwin.com
taakwen@yahoo.com



مقدمة الناشر

طوال حياته، كان برتراند رسل كاتباً غزير الإنتاج وقد جاءت بعض أعماله على شكل كراسات صغيرة ومقالات نشرت في دوريات مختلفة. ذلك ينطبق بصورة خاصة على مناقشاته للدين، فكثير منها لا يعرفه إلا القلة خارج دوائر عقلانية معينة، لقد جمعت في هذا الكتاب عدداً من تلك المقالات عن الدين كذلك بعض الكتابات الأخرى مثل «مقالات عن الحرية والكليات» و«أخلاقنا الجنسية» التي ما تزال ذات أهمية موضوعية كبيرة.

وعلى الرغم من أنه حظي بأعظم التكريم لاسهاماته في موضوعات تجريدية خالصة كالمنطق ونظرية المعرفة، فإن الظن كله أن الناس سيتذكرون «رسل» أيضاً طوال السنين القادمة باعتباره واحداً من الهراطقة الكبار في مسألة الأخلاق والدين فهو لم يكن يوماً من الأيام فيلسوفاً تقنياً محضاً، بل كان دائماً معنياً بشدة بالمسائل الأساسية التي قدمت الأديان أجوبتها على كل منها ـ المسائل المتعلقة بمكانة الإنسان في الكون وطبيعة الحياة الصالحة وهو في معالجته لهذه المسائل كان بالحسم والذكاء والفصاحة ذاتها، كما عبر عن نفسه بنثره المتألق ذاته الذي اشتهرت به أعماله الأخرى. هذه الصفات تجعل المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب ربما الأشد إثارة وروعة في كل ما قدمه موقع المفكرين الأحرار منذ أيام هيوم وفولتير.

ولعل كتاباً لبرتراند رسل حول الدين يستحق النشر في أي وقت. فنحن نشهد في الوقت الحاضر حملة لإحياء الدين تستخدم بكل



براعة تقنيات الإعلانات الحديثة، لهذا تبدو إعادة تقديم قضية غير المؤمنين مطلوبة على نحو خاص. فمن كل زاوية وعلى كل صعيد: عالٍ، واطئ، ومتوسط الثقافة، ظللنا ولسنوات عديدة، نقصف بالدعاية اللاهوتية. إذ تؤكد لنا مجلة «الحياة» في افتتاحياتها أنه «باستثناء الماديين الدوغماتيين والأصوليين»، فإن الحرب بين التطور والإيمان المسيحي «انتهى منذ سنوات كثيرة، وأن «العلم ذاته».... يثبط الفكرة القائلة إن الكون في أول الحياة أو الإنسان كان بإمكانه أن يتطور بالمصادفة المحض. أما البروفسور توينبي، وهو أحد أكثر المدافعين عن الدين احتراماً، فيقول لنا: «إننا لا يمكن أن نواجه التحدي الشيوعي على أساس علماني»، في حين أن نورمان فنسنت بيل، المنسنيورشين وأساتذة آخرين في طب النفس الديني يمجدون بركات الإيمان بزوايا صحفية يقرأها الملايين، وكذلك في الكتب الأفضل ـ مبيعاً وفي برامج إذاعية وتلفازية، أسبوعية وعلى مستوى البلاد كلها. كما أن سياسيين من الأحزاب كافة، لم يشتهر الكثيرون منهم بورعهم من قبل، بدؤوا يتنافسون على مراكز هامة، مؤكدين أنهم معروفون بمواظبتهم على أداء واجبهم تجاه الكنيسة، ولا يهملون ذكر الإله في خطاباتهم العلمية، كما أن الجانب السلبي لهذه المسألة نادراً ما يقدم خارج قاعات التدريس لأفضل الكليات.»

إن كتاباً كهذا، بتأكيده غير التصالحي على وجهة النظر العلمانية، هو المطلوب أكثر من أي شيء آخر اليوم، لأن الهجمة الدينية لم تنحصر بالدعاية إلى حد كبير. ففي الولايات المتحدة اتخذت أيضاً شكل محاولات عديدة، الكثير منها نجح للحط من قدر فصل الدين عن الدولة كما ورد في الدستور. هذه المحاولات أكثر عدداً بكثير من أن نذكرها بالتفصيل هنا، لكن ربما توضيح أو



توضيحان سيدلان بصورة كافية على هذا الاتجاه المقلق الذي إن بقي دون كابح سيجعل أولئك الذين يعارضون الدين التقليدي مواطنين من الدرجة الثانية. مثال على ذلك، منذ بضعة أشهر، أدخلت لجنة فرعية في مجلس النواب، ضمن قرار متزامن، مقترحاً مدهشاً مفاده أن «الإخلاص للرب» هو مؤهل أساسي يعد من أفضل مؤهلات الخدمة الحكومية، فخدمة أي شخص بأي صفة حكومية، أكد المشرعون رسمياً، «يجب أن تتصف بالإخلاص للرب».. هذا المقترح لم يصبح قانوناً بعد لكنه قد يصبح قريباً هكذا إن لم تتم معارضته بقوة. ثمة قرار آخر جعل «بالرب نثق» الشعار الوطني للولايات المتحدة بعد أن صادق عليه كلا المجلسين وهو الآن قانون البلاد. لقد أشار، وبشكل ملائم، البروفسور جورج أكسيل، من جامعة نيويورك، وهو أحد المنتقدين الفصحاء القلة لهذه التحركات وما شابهها، في شهادة أمام لجنة تابعة لمجلس الشيوخ إلى أنها عمليات حت صغيرة لكنها مهمة لمبدأ فصل الكنيسة عن الدولة.

على أن محاولات إدخال الدين، حيث يمنع الدستور ذلك بصراحة، لا تنحصر البتة بالتشريع الفدرالي. ففي مدينة نيويورك، إذا ما أخذنا فقط مثالاً ساطعاً على نحو خاص، أعدت هيئة المشرفين على هيئة التعليم سنة 1955 بياناً مرشداً للمراقبين والمدرسين: ذكرت فيه بشكل فظ أن «المدارس العامة تشجع على الإيمان بالإله، لإدراكها حقيقة بسيطة وهي أن أمتنا أمة متدينة»، وأكثر من ذلك «أن المدارس العامة تعتبر أن الإله هو المصدر النهائي للقانون الطبيعي والأخلاقي». ولو أنه تم تبني هذا البيان، لكان من الصعب على أي موضوع في المنهاج الدراسي في مدينة نيويورك أن يخلص من التدخل اللاهوتي، بل حتى الدراسة العلمية الخالصة كالعلوم والرياضيات كانت ستقدم مشحونة بنبرة دينية، فالعلماء والرياضيون،



كما ذكر البيان، يفهمون الكون على أنه مكان منطقي، منتظم وقابل للتكهن. إن تأملهم لاتساع السماوات وروعتها، عجائب الجسم والعقل البشريين، جمال الطبيعة، غموض التركيب الضوئي، البنية الرياضية للكون أو فكرة اللانهاية لا يمكن أن يؤدي إلى شيء آخر سوى التواضع أمام الإعجاز الإلهي. فالمرء يمكنه فقط حين يتأمل السموات أن يقول: «إنها صنع يديك». وهكذا فإن موضوعاً بريئاً كـ «الفنون الصناعية» لم يترك وشأنه.

لقد أكد ذلك فلاسفة هيئة المشرفين العليا قائلين: «في الفنون الصناعية» فإن مراقبة أعاجيب تركيب المعادن، الحبوب وجمال الغابات، طرق الكهرباء والخصائص المتميزة للمواد المستخدمة دون تغير، لتبعث على التفكر بتخطيط العالم الطبيعي وتنظيمه وبالعمل المدهش لقوة عليا فائقة.

هذا التقرير قوبل بانفجار سخط شديد من قبل المجموعات المدنية والدينية الأكثر تحرراً إلى حد أن تبنيه من قبل هيئة التعليم بات مستحيلاً. وهكذا تم لاحقاً تبني نسخة معدلة، بعد حذف معظم الفقرات موضع الاعتراض. لكن حتى النسخة المعدلة تحوي لغة لاهوتية بما يكفي لجعل أي علماني يجفل، وإننا لنأمل أن يستمر الاعتراض على دستوريتها في المحاكم.

لقد كان هناك اعتراض قليل إلى حد مدهش على معظم تجاوزات أصحاب النفوذ الإكليكيين. أحد أسباب هذا على ما يبدو هو الاعتقاد واسع النطاق بأن الدين هذه الأيام لطيف ومتسامح وأن الاضطهاد شيء من الماضي. هذا وهم خطير، فعلى الرغم من أن كثيراً من القادة الدينيين هم بلا شك أصدقاء خالصون للحرية والتسامح، بل هم أكثر من ذلك راسخو الإيمان بفصل الكنيسة عن الدولة، إلا أن هناك، لسوء



الحظ، الكثير من الآخرين الذين مازال بإمكانهم أن يضطهدوا إن استطاعوا ذلك والذين سيضطهدون عندما يتاح لهم ذلك.

في بريطانيا، الوضع مختلف بشكل ما، فهناك كنائس راسخة البنيان والتعليم الديني مصادق عليه قانونياً في جميع مدارس الدولة. مع ذلك، المزاج السائد في البلاد أكثر تسامحاً بكثير والناس في الحياة العامة أقل تردداً في الإعلان عن أنفسهم كملحدين. لكن في بريطانيا أيضاً، الدعاية المناصرة للدين على المستويات الدنيا في المجتمع قائمة، والجماعات الدينية الأكثر عدوانية تبذل أقصى ما في وسعها لمنع ذوي الفكر الحر من ذكر قضيتهم. لقد أوصى «تقرير المشروبات الأخير مثلاً بأنه يجب على الإذاعة البريطانية أن تصغي لممثلي الرأي العقلاني، وقد قبلت الإذاعة البريطانية رسمياً هذه التوصية لكنها لم تفعل شيئاً تقريباً لتنفيذها. إن أحاديث مارغريت نايت عن الأخلاق بدون الدين كانت واحدة من المحاولات القليلة جداً لتقديم موقف الملحدين حول موضوع هام كهذا. ولقد أحدثت أحاديث السيدة نايت انفجارات شديدة من السخط والاستياء لدى المتزمتين المتشددين إلى حد أخاف، على ما يبدو، الإذاعة البريطانية وأعادها إلى خضوعها السابق لأصحاب النفوذ الديني. وكي نساعد في تبديد كل رضا ذاتي حول هذا الموضوع، فقد أضفنا، كملحق لهذا الكتاب، القصة الكاملة. بحذافيرها عن الكيفية التي منع بها برتراند رسل من أن يصبح أستاذ الفلسفة في كلية مدينة نيويورك. إن حقائق هذه القضية لتستحق أن تعرف على نطاق أوسع، وإن يكن فقط لتبيان التشويهات غير المعقولة وإساءات استخدام السلطة التي يرغب المتعصبون في ارتكابها حين يصممون على هزيمة خصم ما. هؤلاء الناس الذين نجحوا في إلغاء تعيين رسل هم أنفسهم الذين يدمرون الآن الهوية العلمانية للولايات المتحدة. وهم، مع نظرائهم البريطانيين، بالإجمال، أقوى اليوم مما كانوا سنة 1940.



كذلك فإن قضية كلية المدينة ينبغي أن تدون بالتفصيل وذلك ببساطة لإنصاف برتراند رسل نفسه الذي أسيء إليه أشد الإساءة في ذلك الوقت من قبل القاضي الذي استمع إلى الشكوى أو من قبل الصحافة ووسائل الإعلام على حد سواء. لقد كانت وجهات نظر رسل وأعماله موضع إساءة تفسير لا كابح لها، والناس الذين لم يقرؤوا كتبه لا بد أنهم تلقوا انطباعاً خاطئاً تماماً عما كان يدافع عنه.

وإني لآمل أن تساهم القضية، كما رويت هنا، إضافة إلى إعادة تقديم بعض مناقشات رسل العملية للموضوعات «المسيئة»، في تصحيح سجله وجعله سوياً.

لقد قمنا بطباعة عدة مقالات يتضمنها هذا الكتاب، بعد أن وافق بكل لطف ناشروها الأصليون. هنا بودي أن أشكر السيدة واطز وشركاءها الذين كانوا الناشرين الأول لمقالة «لماذا لست مسيحياً؟» وكذلك مقالة «هل قدم الدين إسهاماً نافعاً للحضارة؟» كما أشكر السيدة روليج وكيغان بول اللذين نشرا «ما أؤمن به» والسيدة هتشنسون وشركاءها الذين نشروا «هل نبقى بعد الموت؟» والسيدة نيكولسون وواطون، الناشرين الأصليين لـ «مصير توماس بين» وكتاب «الذئب الأمريكي» الذي تتضمن صفحاته «أخلاقنا الجنسية» و«الحرية والكليات» كما ظهرت أول مرة، كذلك أود أن أشكر أصدقائي البروفسور أنطوني فلو روث هوفمان، شيلا ماير، وطلابي مارلين تشاري، سارة كيليان وجون فيسيد الذين ساعدوني بطرق كثيرة لإعداد هذا الكتاب.

أخيراً، بودي أن أعبر عن امتناني الشديد لبرتراند رسل نفسه الذي بارك هذا المشروع منذ البداية والذي كان اهتمامه الشديد طوال عملنا مصدر إلهام رئيسي لنا.

بول إدواردز

مدينة نيويورك، تشرين 1956



تمهيد

إن إعادة السيد إدوارد لنشر مقالات مختلفة لي معنية بموضوعات لاهوتية، مدعاة لامتناني، خاصة على ضوء ملاحظاته المثيرة للإعجاب في المقدمة. إنني مسرور بصورة خاصة لحدوث هذه الفرصة من أجل إعادة تأكيد قناعاتي حول الموضوعات التي تتناولها المقالات.

لقد انتشرت شائعة في الأيام الأخيرة مفادها أنني أصحبت أقل معارضة للتمسك بالدين عما كنت في السابق. هذه الشائعة لا أساس لها من الصحة على الإطلاق. إنني أظن أن كل الأديان الكبرى في العالم - البوذية، الهندوسية، المسيحية، الإسلام والشيوعية - هي غير صحيحة ومؤذية على حد سواء. ومن الواضح، كمسألة منطق، نظراً لأنها على غير وفاق، أنه لا يمكن لأكثر من واحد منها أن يكون صحيحاً. ومع استثناءات قليلة جداً، فإن الدين الذي يقبله الإنسان هو دين المجتمع الذي يعيش فيه، مما يجعل من الواضح أن تأثير البيئة هوما يقوده إلى قبول الدين دون سؤال. صحيح أن «السكولاستيين» اخترعوا ما اتفق عليه بأنها حجج منطقية تبرهن على وجود الإله وأن هذه الحجج أو سواها ذات المغزى المماثل، تم قبولها من قبل الكثير من الفلاسفة البارزين، لكن المنطق الذي لجأت إليه هذه الحجج التقليدية هو المنطق الأرسطي العتيق الذي بات مرفوضاً اليوم من قبل كل المناطقة على نحو خاص ما عدا من كان منهم كاثوليكياً. ثمة واحدة من هذه الحجج ليست بالمنطقية الخالصة. وأعني حجة التخطيط والتصميم. مع ذلك. تم القضاء على هذه الحجة من قبل



داروين، لكن، يمكن فقط أن تصبح محترمة منطقياً إذا ما تم التخلي عن كلانية القدرة للإله، إذ، بمعزل عن قوة الحجة المنطقية، ثمة، بالنسبة لي شيء ما غريب قليلاً حول التقييمات الأخلاقية لأولئك الذين يفكرون أن إلهاً قادراً على كل شيء وعالماً بكل شيء ومحباً للخير، بعد أن أعدّ الأرض خلال ملايين عديدة من السنين من سديم لا حياة فيه، أن يعتبر نفسه قد كوفئ المكافأة المناسبة بظهور هتلر وستالين والقنبلة الهدروجينية أخيراً.

مسألة أن الدين صحيح شيء وأنه مفيد شيء آخر. وإنني لعلى قناعة تامة بأن الأديان مؤذية بقدر ما هي غير صحيحة.

إن الأذى الذي يسببه الدين نوعان:

أحدهما يتوقف على نوع الإيمان الذي يظن المرء أن عليه أن يمحضه له والآخر على المعتقدات الخاصة التي يؤمن بها. فيما يتعلق بنوع الإيمان: يظن أنه من الاستقامة الأخلاقية أن تكون مؤمناً - أي بعبارة أخرى، أن تكون لديك قناعة لا تهزها أية أدلة مضادة، أو إذا كانت الأدلة المضادة تثير أي شك فينبغي كتم هذه الأدلة المضادة، على أسس كهذه، لا يسمح للشبان في روسيا بسماع حجج، لصالح الرأسمالية، أو في أمريكا، لصالح الشيوعية. هذا يبقي الإيمان سليماً لا يمس. وفي الوقت ذاته، جاهزاً لخوض حرب ضروس. كما أن القناعة بأن من المهم الإيمان بهذا المعتقد أو ذاك، حتى لو كان البحث الحر لا يدعم ذلك الإيمان، هي واحدة وعامة بالنسبة لكل الأديان تقريباً. وهي التي توحي بكل أنظمة التعليم الرسمي. النتيجة هي أن عقول الصغار تتوقف عن النمو وتمتلئ بالعداء التعصبي تجاه أولئك الذين لهم تعصبات أخرى، وعلى نحو أشد خبثاً وبغضاء تجاه أولئك الذين يعارضون كل تعصب.



إن عادة بناء القناعات على أدلة، وتقديمها فقط لأولئك الذين يملكون درجة من اليقينية توفرها الأدلة، يمكن، إن أصبحت عامة، أن تشفي معظم الأمراض التي يعاني منها العالم. لكن في الوقت الراهن، وفي معظم البلدان، يهدف التعليم إلى منع نمو عادة كهذه كما أن الناس الذين يرفضون الإيمان بمنظومة من العقائد لا أساس لها من الصحة، لا يعتبرون مناسبين كمعلمين للصغار.

إن الشرور المذكورة آنفاً هي مستقلة عن العقيدة الخاصة قيد البحث كما أنها موجودة في كل العقائد التي يؤمن بها الناس لوغماتياً. لكن، هناك أيضاً، وفي معظم الأديان معتقدات أخلاقية معينة توقع أذى محدداً. فإدانة الكاثوليكية لتحديد النسل، إذا ما استطاعت أن تسود، ستجعل تخفيف الفقر والقضاء على الحروب أمراً مستحيلاً، فيما المعتقدات الهندوسية بأن البقرة حيوان مقدس وأنه أمر في غاية السوء أن تتزوج الأرملة مرة ثانية، تسبب معاناة لا ضرورة لها البتة. كما أن الاعتقاد الشيوعي بدكتاتورية أقلية من «المؤمنين الحقيقيين» أدت إلى غلة كاملة من الفظاعات.

يقال لنا أحياناً إن التعصب وحده يمكنه أن يجعل من جماعة اجتماعية جماعة فعالة. هذا. على ما أظن، مناقض كلياً لدروس التاريخ، لكن، على أية حال، فإن أولئك الذين يعبدون النجاح عبادة الخنوع فقط يمكنهم أن يفكروا بأن الفعالية مرغوب بها دون النظر إلى ما تترك من آثار. من جهتي، أظن أن من الأفضل أن نعمل قليلاً من الخير على أن نعمل كثيراً من الأذى. إن العالم الذي أود أن أراه هو العالم المتحرر من شرور العداوات الفئوية القادر على التحقق من أن سعادة الجميع يجب أن تُستمد من التعاون بدلاً من الصراع، كما أود أن أرى عالماً، التعليم فيه موجه إلى حرية العقل بدلاً من حبس عقول



الصغار ضمن دروع صلبة من العقائد المعدة لحمايتهم طوال الحياة من سهام الأدلة غير المتحيزة.

إن العالم بحاجة إلى العقول المفتوحة والقلوب المفتوحة، وهذا أمر لا يمكن أن يستمد من أنظمة جامدة متصل به سواء أكانت قديمة أو جديدة.

برتراند رسل



الفصل الأول

لماذا لست مسيحياً؟[1]

كما أخبركم رئيسكم، الموضوع الذي سأكلمكم عنه هذه الليلة هو «لماذا لست مسيحياً؟»، ولعله سيكون من المستحسن، قبل كل شيء، أن نحاول التوصل إلى ما يعنيه المرء بكلمة «مسيحي». بعض الناس لا يعنون بها أكثر من شخص يحاول أن يعيش حياة صالحة. بهذا المعنى أفترض أن هناك مسيحين في كل الطوائف والمذاهب. لكنني لا أظن أن ذلك هو المعنى المناسب للكلمة، وإن كان ذلك فقط لأنها تدل على أن كل الناس الذين ليسوا مسيحيين - كل البوذيين، الكونغوشيوسيين، المسلمين... إلخ - لا يحاولون أن يعيشوا حياة صالحة. أنا لا أعني بالمسيحي أي شخص يحاول أن يعيش باحتشام طبقاً لفلسفته في الحياة. إني أظن أن عليك أن يكون لديك قدر معين من إيمان محدد قبل أن يكون لك الحق في أن تدعو نفسك مسيحياً. على أن الكلمة ليست الآن ذات معنى صافٍ تماماً كما كانت أيام القديس توما الاكويني. ففي تلك الأيام، إذا قال الإنسان إنه مسيحي، يكون معروفاً ما يعني: أي أنه قابل لمجموعة كاملة من المعتقدات التي وضعت بدقة شديدة وأنه يؤمن بكل حرف من هذه المعتقدات بكامل قناعاته.

---

(1) هذه المحاضرة ألقيت في 6 آذار 1927 في قاعة مدينة باتريسا برعاية فرع جنوب لندن للجمعية العلمانية الوطنية.



في هذه الأيام ليس الأمر كذلك. فعلينا أن نكون أكثر غموضاً بقليل في ما نعنيه بالمسيحية. مع ذلك: أنا أظن أن هناك بندين مختلفين هما جوهريان تماماً بالنسبة لأي امرئ يدعو نفسه مسيحياً. الأول هو ذو طبيعة عقائدية - أي أنه يتعين عليك أن تؤمن بالرب والخلود. فإن كنت لا تؤمن بهذين الأمرين، لا أظن أنك تستطيع بصورة صحيحة أن تدعو نفسك مسيحياً.

ثم الأبعد من ذلك، وكما يدل الاسم، عليك أن يكون لديك نوع من الإيمان بالمسيح. المسلمون، أيضاً يؤمنون بالإله وبالخلود، مع ذلك، لا يدعون أنفسهم مسيحيين. إنني أظن أنه يجب أن يكون لديك الحد الأدنى من الاعتقاد بأن المسيح، إن لم يكن رباً فهو على الأقل أفضل وأشد الناس حكمة. وإذا كنت لا تنوي أن تؤمن بذلك فيما يتعلق بالمسيح، لا أظن أن لك أي حق في أن تدعو نفسك مسيحياً. طبعاً، ثمة معنى آخر يمكنك أن تجده في «تقويم ويتاكار». وفي كتب الجغرافيا، حيث يقال إن سكان العالم ينقسمون إلى مسيحيين، مسلمين، بوذيين، عبدة أصنام وهلم جراً. بذلك المعنى نحن كلنا مسيحيون. فكتب الجغرافيا تأخذنا كلنا بالحسبان، لكن ذلك معنى جغرافي محض، وأفترض أن بإمكاننا تجاهله. لذلك، علي، عندما أقول عبارة لماذا لست مسيحياً، أن أحدثكم عن أمرين مختلفين، الأول: أنني لا أؤمن بوجود إله ولا أؤمن بالخلود. والثاني: أنني لا أعتقد أن المسيح كان أفضل الرجال وأكثرهم حكمة رغم أنني أمنحه درجة عالية من الصلاح الأخلاقي. لكن بسبب الجهود الناجحة للملحدين في الماضي، لا يمكنني أن أقبل تعريفاً مرناً للمسيحية كذلك التعريف، فكما قلت من قبل كان للكلمة في الأيام القديمة



معنى أكثر صفاء بكثير، على سبيل المثال كانت تتضمن الاعتقاد بوجود جحيم، بل إن الاعتقاد بنار جهنم خالدة كان بنداً أساسياً من الإيمان المسيحي حتى وقت قريب تماماً، لكنه توقف، في هذه البلاد، كما تعلمون، عن أن يكون كذلك، بسبب قرار «المجلس الخاص»، ومنذ أن اتخذ المجلس ذلك القرار انشق اسقف كانتربري وأسقف يورك، لكن في هذه البلاد، ديننا يقره مرسوم من البرلمان، لذلك كان المجلس الخاص قادراً على تجاوز سيادتهما، وهكذا لم يعد الإيمان بالجحيم ضرورياً للمسيحي. نتيجة ذلك، أنا لا أصر على أن المسيحي ينبغي أن يؤمن بالجحيم.

وجود الإله

غير أن تناول مسألة وجود الإله هذه، مسألة كبيرة وخطيرة، وإذا كان علي أن أحاول التعامل معها بأي أسلوب جيد، فإن علي أن أبقيكم هنا حتى يوم القيامة، لذلك عليكم أن تعذروني إن عالجتها بأسلوب مختصر بشكل من الأشكال. إنكم تعلمون، بالطبع، أن الكنيسة الكاثوليكية وضعت في صلب عقيدتها أن وجود الإله يمكن البرهنة عليه بالعقل دون مساعدة. تلك عقيدة غريبة إلى حد ما، لكنها واحدة من عقائدهم، وقد كان عليهم أن يتبنوها لأن أصحاب الفكر الحر تبنوا، في وقت من الأوقات، القول بأن هناك حجج كذا وكذا يمكن للعقل المحض أن يسوقها ضد وجود الإله لكنهم كانوا يعلمون بالطبع أن وجود الإله مسألة إيمان وحسب، لقد قدمت الكثير من الأسباب والحجج على المدى الطويل وشعرت الكنيسة الكاثوليكية أن عليها أن توقفها، لذلك ثبتوا في صلب العقيدة أن وجود الإله يمكن البرهنة عليه بالعقل دون مساعدة وأن عليهم أن يضعوا ما اعتبروه حججاً تبرهن عليه. بالطبع، ثمة العديد منها لكنني سأتناول بعضها.



حجة العلة الأولى

لعل الأبسط والأسهل على الفهم من تلك الحجج إنما هي حجة العلة الأولى: (إذ أكدوا أن كل شيء نراه في هذا العالم له سبب، وإذا ما عدت بسلسلة الأسباب أبعد وأبعد إلى الوراء فإنك ولا بد ستبلغ السبب أو العلة الأولى. وذلك السبب أو العلة الأولى هو ما ندعوه باسم الإله. تلك الحجة، على ما أظن، ليس لها وزن كبير هذه الأيام لأن السبب، في المقام الأول، ليس هو تماماً ما كان عادة، إذ أن الفلاسفة ورجال العلم استمروا في تناول مسألة السبب، فوجدوا أنه ليس له تلك الحيوية التي كانت له من قبل، لكن بمعزل عن ذلك، يمكنكم أن تروا الحجة القائلة بأنه يجب أن يكون هناك سبب أول إنما هي حجة ليس لها أية مصداقية. هنا، يمكنني القول إنني عندما كنت فتى وكنت أناقش هذه المسائل بجدية كبيرة في ذهني، قبلت ولمدة طويلة حجّة السبب الأول. إلى أن جاء يوم، وكنت في الثامنة عشرة من العمر، قرأت فيه السيرة الذاتية لجون ستوارت ميل. هناك وجدت هذه الجملة: «لقد علمني والدي أن سؤال من صنعني؟ لا يمكن الإجابة عليه، نظراً لأنه يوحي مباشرة بسؤال آخر هو: من صنع الإله؟ تلك الجملة البسيطة للغاية أوضحت لي، مثلما كنت أفكر وما أزال، المغالطة في حجة السبب الأول. فإذا كان ينبغي أن يكون لكل شيء سبب، إذن، ينبغي أن يكون للإله سبب، وإذا كان من الممكن أن يكون هناك إله بدون علة أو سبب، يمكن إذن أن يكون العالم بدون علة أو سبب، مثل الإله تماماً، وبذلك لا يكون هناك أي مصداقية لتلك الحجة. إنها تماماً من الطبيعة ذاتها لنظرة الهندوسي، في أن العالم يرتكز على فيل، والفيل يرتكز على سلحفاة وحين سألوه «ماذا عن السلحفاة؟» قال الهندي: «دعونا نغير الموضوع». تلك الحجة



بالحقيقة، ليست أفضل من هذه. إذ ليس هناك من سبب لماذا لم يكن بإمكان العالم أن يتكون بدون سبب؟ من جهة أخرى، ليس هناك أي سبب أيضاً لماذا لم يكن موجوداً دائماً إذ ليس هناك من داعٍ لأن نفترض أن للعالم بداية على الإطلاق، والفكرة القائلة بأن على الأشياء أن يكون لها بداية، تعود بالحقيقة إلى فقر خيالنا. لهذا، ربما لا حاجة لأن أضيع المزيد من الوقت في نقاش حجة العلة أو السبب الأول.

حجة القانون الطبيعي

ثم هناك حجة شائعة جداً هي حجة القانون الطبيعي ولقد كانت الحجة المفضلة طوال القرن الثامن عشر، خصوصاً بتأثير من السير إسحق نيوتن ونشأة كونه. لقد راقب الناس الكواكب وهي تدور حول الشمس طبقاً لقانون الجاذبية وظنوا أن الإله أعطى أمراً لتلك الكواكب بأن تتحرك وفق ذلك النمط الخاص وهذا هو السبب في فعلها ذلك. بالطبع كان هذا تفسيراً بسيطاً وملائماً خلصهم من مشكلة البحث والتقصي عن تفسيرات لقانون الجاذبية. في الوقت الحاضر، نحن نشرح قانون الجاذبية بالطريقة المعقدة نوعاً ما التي قدمها آينشتاين. ولا أرى أن ألقي عليكم محاضرة حول قانون الجاذبية كما فسره آينشتاين، لأن ذلك سيأخذ مرة ثانية وقتاً طويلاً. على أية حال، الآن ليس لديكم قانون الجاذبية نفسه الذي كان في النظام النيوتني، حيث، ولسبب لا يستطيع أحد فهمه، تتصرف الطبيعة وفق نمط موحد. إننا نجد الآن أن قدراً كبيراً من الأشياء كنا نظنها قوانين طبيعية، هي في حقيقة الأمر أعراف بشرية. أنتم تعلمون أنه حتى في أقصى أعماق الفضاء النجمي يظل اليارد هناك ثلاثة أقدام. تلك، ولا شك، حقيقة معروفة جيداً، لكن سيكون من الصعب أن تدعوها بقانون طبيعة، كذلك فإن قدراً كبيراً من الأشياء التي كانت تعتبر قوانين طبيعية هي



من ذلك النوع. من جهة أخرى، وحيث يمكنك التوصل إلى أية معرفة عما تفعله الذرات عملياً، سترى أنها تخضع للقانون أقل بكثير مما كان يظن الناس، وأن القوانين التي نتوصل إليها هي معدلات إحصائية من ذلك النوع تماماً الذي ينبثق عن الصدفة. فكما نعلم، ثمة قانون يقول إنك إذا رميت حجر الزهر ستحصل على ستتين مرة واحدة فقط كل ست وثلاثين مرة ونحن لا نعتبر ذلك دليلاً على أن سقوط الزهر تنظمه خطة، بل على العكس إذا جاءت الستتان كل مرة، يجب أن نفكر أن هناك خطة، وقوانين الطبيعة هي من ذلك النوع، فيما يتعلق بقدر كبير منها. إنها متوسطات إحصائية كما يمكن أن تنبثق من قوانين الصدفة، وذلك ما يجعل هذا الشغل بكامله للقانون الطبيعي أقل تأثيراً في النفس مما كان في السابق، لكن بمعزل عن ذلك تماماً، وهو ما يمثل الحالة الراهنة للعلوم التي قد تتغير غداً، فإن كامل الفكرة القائلة بأن القوانين الطبيعية تدل على أن هناك مانحاً - للقانون، تعود إلى الخلط بين القوانين الطبيعية والقوانين البشرية، التي هي أوامر تقضي منك أن تتعرف بطريقة معينة، طريقة يمكنك أن تختارها للتصرف أو عدم التصرف، لكن القوانين الطبيعية هي وصف للكيفية التي تتصرف بها الأشياء في الواقع، ولكونها وصفاً لما تفعله بالواقع، لا يمكنك أن تناقش بأنه لا بد أن يكون هناك أحد ما قال لها أن تفعل ذلك. إذ حتى عند افتراضك أن هناك أحداً ما ستجد نفسك وجهاً لوجه أمام السؤال التالي: «لماذا أصدر الإله تلك القوانين الطبيعية بالذات وليس سواها؟» فإذا قلت إنه أصدرها بكل بساطة لأنها ترضيه ودونما أي سبب، ستجد بعدئذ أن هناك شيئاً ما لا يخضع لقانون، وبذلك تنقطع سلسلتك الخاصة بالقانون الطبيعي، وإن قلت، كما يفعل معظم اللاهوتيين المتمسكين بدينهم، إنه في كل القوانين التي أصدرها الإله، كان لديه سبب لإصدار تلك القوانين



وليس سواها - السبب، بالطبع، هو أنه كان يسعى لخلق الكون الأفضل، رغم أنك لا تظن أبداً أن الأمر يبدو كذلك - فإذا كان هناك سبب للقوانين التي يصدرها الإله، إذن، الإله ذاته يخضع للقانون، ولذلك لا تتوصل إلى أية ميزة بتقديمك الإله على أنه وسيط. إن لديك بالفعل قانوناً خارج القوانين الإلهية وسابقاً لها، والإله لا يخدم غرضك هنا لأنه ليس واهب - القانون النهائي. باختصار، هذه الحجة المتعلقة بالقانون الطبيعي بكاملها لم تعد بالقوة التي كانت عليها من قبل، كما أن الحجج التي تستخدم لإثبات وجود الإله تغير من قوامها مع مرور الزمن. لقد كانت، بادئ ذي بدء حججاً فكرية صعبة تجسد مغالطات معينة ومحددة تماماً. ثم مع مجيء العصور الحديثة أصبحت أقل احتراماً فكرياً ومتأثرة أكثر فأكثر بذلك النوع من إضفاء الصبغة الأخلاقية على الغموض.

حجة الخطة والتصميم

توصلنا الخطوة التالية في هذا المسار إلى حجة الخطة والتصميم، وكلكم تعرفون هذه الحجة: فكل شيء في العالم وجد فقط لغاية واحدة هي أن نستطيع تدبر أمرنا لنعيش في هذا العالم، ولو كان العالم مختلفاً اختلافاً ضئيلاً جداً لما استطعنا تدبر العيش فيه. تلك هي الحجة النابعة من الخطة. إنها تتخذ أحياناً صيغة غريبة نوعاً ما. مثال على ذلك، يناقش بعض الناس بأن الأرانب لها أذناب بيضاء لكي يسهل عليك اصطيادها. غير أنني لا أدري كيف يمكن للأرانب أن تنظر إلى ذلك النفع. إنها حجة من السهل السخرية منها. كما أنكم جميعاً تعرفون ملاحظة فولتير بأن من الواضح أن الأنف صمِّم هكذا لكي يكون مناسباً لحمل النظارات. ذلك النوع مَن المحاكاة الساخرة تبين أنه ليس بعيداً جداً عن النقطة المطروحة على



بساط البحث كما كانت تبدو في القرن الثامن عشر، لأننا منذ زمن داروين نفهم على نحو أفضل بكثير لماذا المخلوقات الحية تتكيف مع بيئتها. فليست البيئة هي التي صنعت لكي تكون مناسبة لتلك المخلوقات، بل إن المخلوقات تنمو وتتطور بحيث تصبح مناسبة للبيئة. ذلك هو الأساس الذي يقوم عليه التكيف. وليس هناك أدلة على الخطة فيما يتعلق به. وحين ندقق النظر في حجة الخطة والتصميم هذه نجد أن من المدهش كثيراً أن الناس يمكنهم أن يعتقدوا أن هذا العالم، بكل ما فيه من أشياء، وكل ما فيه من عيوب، يجب أن يكون أفضل ما استطاع الإله الكلي القوة والكلي المعرفة أن يصنع خلال ملايين السنين. أنا بالحقيقة لا أستطيع أن أصدق ذلك. فهل تظنون أنكم، إذا ما منحتم كليانية القوة وكليانية المعرفة وملايين السنين لتنموا صناعة العالم، لن تستطيعوا صنع شيء أفضل من الكو-كلوكس- كلان أو النازيين؟ الأكثر من ذلك، إذا كنتم تقبلون القوانين العادية للعلوم، فعليكم أن تفترضوا أن الحياة البشرية والحياة بصورة عامة على هذا الكوكب ستزول خلال مدة زمنية معينة: إنها مرحلة من مراحل تحلل المنظومة الشمسية، حيث في مرحلة معينة من التحلل، نتوصل إلى نوع من الشروط المتعلقة بدرجة الحرارة وما شابه تكون ملائمة لنمو الخلية الحيوانية الأولية وتكون هناك حياة لفترة قصيرة في حياة المنظومة الشمسية ككل، وإنكم لترون في القمر ذلك النوع من الأشياء التي تميل نحوها الأرض ـ شيء ما ميت، بارد وبلا حياة.

قد يقال لي إن تلك النظرة هي من النوع المحبط وإن الناس سيقولون لك أحياناً إنهم إذا صدقوها لن يكونوا قادرين على الاستمرار في العيش، فلا تصدقوها، إنها مجرد هراء، إذ ما من أحد



يهتم كثيراً بما سيحدث بعد ملايين السنين من الآن، وحتى لو ظنوا أنهم مهتمون كثيراً بذلك، فإنهم بالحقيقة يخدعون أنفسهم. إنهم يهتمون بشيء ما أكثر دنيوية. إذ قد يكون مجرد سوء هضم، لكن لا أحد يمكن أن يغدو بصورة حديثة حقاً غير سعيد بسبب الفكرة القائلة إن شيئاً ما سيحدث لهذا العالم بعد ملايين السنين، لهذا السبب، وعلى الرغم من أنها، طبعاً، نظرة قاتمة أن نفترض أن الحياة ستزول - على الأقل أنا أفترض أننا يمكن أن نقول ذلك، رغم أنني حين أفكر أحياناً بالأشياء التي يفعلها الناس بحياتهم، أعتقد أنه يغدو نوعاً من العزاء - بحيث لا يجعل الحياة بائسة. إنه يجعلك فقط تلفت انتباهك إلى أشياء أخرى.

الحجج الأخلاقية لوجود الإله

الآن نصل إلى مرحلة أبعد في ما ندعوه بالسلالة الفكرية التي صنعها المؤمنون في مناقشاتهم، أي نتوصل إلى ما يدعى بالحجج الأخلاقية لوجود الإله. إنكم جميعاً تعرفون بالطبع، أنه كان يوجد عادة في العصور القديمة ثلاث حجج فكرية لوجود الإله، كلها صرف النظر عنها عمانوئيل كانت في كتابه «نقد العقل المحض» لكن ما إن صرف النظر عنها حتى اخترع حجة جديدة، حجة أخلاقية أقنعته تماماً.

لقد كان مثل كثير من الناس: شكاكاً في المسائل الفكرية لكنه في المسائل الأخلاقية يؤمن ضمناً بالمثل والمبادئ التي تشربها وهو في حضن أمه. ذلك يوضح ما يؤكد عليه كثيراً علم التحليل النفسي - القبضة الأقوى كثيراً التي تمسكنا بها تداعيات أفكارنا المبكرة جداً بالمقارنة مع تلك التي تعود لأوقت لاحقة.



لقد اخترع «كانت»، كما قلت، حجة أخلاقية جديدة لوجود الإله وقد صارت بأشكال متنوعة شائعة للغاية في القرن التاسع عشر، إن لها أشكالاً وأنواعاً عديدة، أحدها هو أن نقول إنه لولا وجود الإله ما كان هناك حق ولا باطل.

إنني الآن غير معني بمسألة ما إذا كان هناك خلاف بين الحق والباطل أو لم يكن، فتلك مسألة أخرى، ما يهمني الآن هنا هو أنك، إذا كنت متأكداً تماماً من أن هناك خلافاً بين الحق والباطل، إذن ستكون في هذا الموقف: هل ذلك الخلاف بأمر من الإله أم لا؟ وإذا كان بأمر الإله، إذن بالنسبة للإله نفسه، ليس هناك اختلاف بين الحق والباطل، ولا يعود من المهم البتة أن تقول إن الإله هو الخير. وإذا كنت ستقول، كما يفعل اللاهوتيون، إن الإله هو الخير، يتوجب عليك إذن أن تقول إن للحق والباطل معنى ما مستقلاً عن أمر الإله، ذلك لأن أوامر الإله تقضي بالخير وليس بالشر وذلك بصورة مستقلة عن الحقيقة المحض بأنه هو صاحبها. وإذا كنت ستقول ذلك، إذن عليك أن تقول إنه ليس فقط من خلال الإله أن الحق والباطل جاءا إلى الوجود، بل إنهما في جوهرهما سابقان منطقياً لوجود الإله، وبإمكانك طبعاً إن أحببت أن تقول إن هناك الهة أنثى هي التي أعطت أوامرها للإله الذي صنع هذا العالم، أو يمكنك أن تأخذ الخط الذي اتخذه بعض اللاأدريين - وهو الخط الذي غالباً ما فكرت بأنه الخط المعقول جداً - أي أن هذا العالم الذي نعرفه كواقع وحقيقة هو من صنع الشيطان في لحظة غفلة من الإله. فهناك الكثير مما يمكن قوله بخصوص ذلك، لكنني غير معني بتفصيله هنا.



الحجة الخاصة بعلاج الظلم

ثم، هناك صيغة أخرى غريبة جداً للحجة الأخلاقية، هي هذه: يقولون إن وجود الإله مطلوب لكي يحقق العدالة في العالم. ففي هذا الجزء من الكون الذي نعرفه، هناك قدر كبير من الظلم، حيث غالباً ما يعاني الصالح ويزدهر الطالح، ومن الصعب أن يعرف المرء أي هذين هو الأكثر إزعاجاً، لكن إذا كنت ستحصل على العدالة في الكونككله، فإن عليك أن تفترض أن هناك حياة في المستقبل تعوض توازن الحياة هنا على الأرض. لهذا يقولون إنه يجب أن يكون هناك إله ويجب أن يكون هناك جنة ونار، لكي يكون هناك عدالة في نهاية المطاف. هذه حجة غريبة جداً. فإذا نظرت إلى المسألة من وجهة نظر علمية ستقول: بعد كل شيء، أنا أعرف هذا العالم فقط ولا أعرف شيئاً عن حقيقة الكون، لكن بقدر ما يمكن للمرء أن يجادل حول الاحتمالات، يمكنه أن يقول إن من المحتمل أن يكون هذا العالم هو عينة حسنة وإذا كان فيه ظلم، فإن الاحتمال هو أن يكون هناك ظلم في كل مكان أيضاً. لنفترض أنه جاءك قفص برتقال وأنك فتحته فوجدت الطبقة العليا كلها فاسدة، فإنك لن تناقش: بأن الطبقة الدنيا صالحة من أجل أن يتحقق التوازن، بل ستقول: «من المحتمل أن البضاعة كلها فاسدة». وذلك بالحقيقة ما يمكن لشخص علمي أن يناقش به مسألة الكون، فهو سيقول: هنا في هذا العالم نجد قدراً كبيراً من الظلم وإلى الحد الذي يمكن أن تمضي إليه الأمور، ذلك سبب لأن نفترض أن العدالة ليست هي السائدة في العالم، لذلك وإلى الحد الذي نعرفه، فإن هذا يقدم حجة أخلاقية ضد الألوهية وليس لصالحها. طبعاً أنا أعلم أن ذلك النوع من الحجج الفكرية التي حدثتكم عنها ليس هو الذي يدفع الناس بالفعل للإيمان بالإله. ما



يدفعهم حقاً ليس حجة فكرية على الإطلاق، فمعظم الناس يؤمنون بالإله، لأنهم تعلموا من طفولتهم الباكرة أن يفعلوا ذلك وهذا هو السبب الرئيسي.

ثم أظن أن السبب التالي الأشد قوة هو الرغبة بالأمان، نوعٍ من الشعور بأن هناك أخاً كبيراً يرعاك ويعتني بك. ذلك يلعب دوراً مهماً جداً في التأثير على رغبة الناس في الإيمان بالإله.

شخصية المسيح

الآن، بودي أن أقول بضع كلمات حول موضوع، غالباً ما فكرت أنه لم يعالج على نحو كافٍ من قبل أصحاب المذهبِ العقلاني وهو: ما إذا كان المسيح أفضل وأحكم الرجال أم لا. إذ يسلِّم بصورة عامة على أنه أمر بديهي أن نتفق على أن الأمر كان كذلك. لكنني أنا نفسي لا أوافق. بل أظن أن هناك قدراً كبيراً من النقاط التي أتفق فيها مع المسيح، قدراً أكبر حتى مما يتفق فيها معه المسيحيون المؤمنون.

أنا لا أدري إن كان باستطاعتي أن أسير معه الطريق كله، لكنني بالتأكيد سأمضي معه أبعد بكثير مما يستطيع معظم أولئك المسيحيين المؤمنين. إنكم تتذكرون أنه قال: **«لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا»**. ذلك ليس مفهوماً جديداً أو مبدأً جديداً. بل لقد استعمله لاو-تسي وبوذا قبل خمس أو ستمئة سنة من ميلاد المسيح، لكنه ليس ما يقبله المسيحيون بالحقيقة والواقع. فليس لدي شك مثلاً في أن رئيس الوزراء الحالي، ستانلي بولدوين، مسيحي مخلص للغاية لكنني لا أنصح أياً منكم في أن يذهب ويضربه على خده، إذ أظن أنه سيكتشف أن بولدوين يفكر بأن المقصود بهذا النص معنى مجازي.



ثم هناك نقطة أخرى أعتبرها ممتازة. إنكم تتذكرون أن المسيح قال: «**لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا**». ذلك المبدأ لا أظن أنك ستجده شائعاً في محاكم القضاء في البلدان المسيحية. ولقد عرفت في حياتي عدداً كبيراً من القضاة الذين كانوا مسيحيين أتقياء، لكن ما من أحد منهم شعر بأنه يتصرف بما يناقض المبادئ المسيحية في ما يفعل. ثم المسيح يقول: «**مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ**».

لقد ذكركم رئيسكم أننا لسنا هنا لكي نتحدث في السياسة. لكنني لا أستطيع منع نفسي من ملاحظة أنه تم خوض الانتخابات العامة الأخيرة والمسألة المطروحة: كم هو مرغوب به أن نشيح بوجوهنا عن ذلك الذي يحاول الاستدانة منا، حيث يتعين على المرء أن يفترض أن الليبراليين والمحافظين في هذه البلاد أناس لا يتفقون مع تعاليم المسيح لأنهم بالتأكيد أشاحوا بوجوههم بعيداً وبصورة مؤكدة جداً في تلك المناسبة.

ثم هناك قول آخر للمسيح، أظن أن له شأناً كبيراً في الأمر، لكنني لا أجده شائعاً كثيراً بين بعض أصدقائنا المسيحيين. إنه يقول: «**إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي**». ذلك قول ممتاز للغاية لكن، كما قلت، لا يطبقه الناس أبداً. هذه كلها، كما أظن مبادئ ومثل جيدة، رغم أنه من الصعب قليلاً أن نعيش طبقاً لها، وأنا لا أزعم أنني أعيش طبقاً لها، لكن في النهاية، ليس الأمر ذاته بالنسبة إلى المسيحي.



عيوب في تعاليم المسيح

إنني أتوصل، وقد سلمنا بروعة تلك المبادئ وتميزها، إلى نقاط لا أعتقد أنه بإمكان أي امرئ أن يسلم بأنها من الحكمة الفائقة أو الصلاح الفائق للمسيح كما جاء وصفه في الأناجيل، هنا يمكنني القول إن المرء ليس معنياً بالمسألة التاريخية. من الناحية التاريخية، هو أمر مشكوك فيه تماماً، إذا كان المسيح قد وجد أصلاً، وإن كان قد وجد فإننا لا نعرف أي شيء عنه، لهذا أنا غير معني بالمسألة التاريخية، فهي صعبة للغاية، بل أنا معني بالمسيح كما يظهر في الأناجيل، وإذا أخذنا رواية الإنجيل كما هي، سنجد هناك بعض الأشياء التي لا تبدو أنها بالغة الحكمة، فمن جهة، كان بالتأكيد يفكر أن عودته الثانية ستحدث محفوفة بالمجد قبل موت الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت. وهناك نصوص كثيرة جداً تثبت ذلك. فهو يقول، مثلاً: «لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ»، ثم يقول: «إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ». كما أن هناك الكثير من المواضيع حيث يبدو واضحاً تماماً أنه كان يعتقد أن مجيئه الثاني سيحدث خلال حياة الكثير من الذين كانوا أحياء حينذاك. ذلك كان اعتقاد أتباعه الأوائل وهو الأساس لقدر كبير من تعاليمه الأخلاقية. فعندما قال: «لاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ» وأشياء من ذلك القبيل فذلك لأنه إلى حد كبير كان يفكر بأن مجيئه الثاني سيكون قريباً جداً وأن كل الشؤون الدنيوية العادية لا تهم.لقد عرفت بالحقيقة والواقع، بعض المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بأن المجيء الثاني وشيك الحدوث، كما عرفت قساً كان يخيف رعيته بصورة مرعبة بأن يقول لهم إن المجيء الثاني للمسيح وشيك جداً جداً، لكنهم كانوا يجدون الكثير من العزاء حين



يرون أنه كان يزرع أشجاراً في الحديقة. لقد كـان المـسيحيون الأوائـل يؤمنون بذلك فعلاً وكانوا يمتنعون عن فعل أشياء مثل زرع أشـجار في حدائقهم، لأنهم تقبلوا من المسيح الاعتقاد بـأن عودتـه وشـيكة.. في ذلك المجال، من الواضح أنه لم يكن بحكمة بعض الناس الآخـرين، وهو بالتأكيد لم يكن فائق الحكمة.

المشكلة الأخلاقية

بعدئذ نأتي إلى المـسائل الأخلاقيـة. فهنـاك خلـل خطـير جـداً، برأيي، في شخصية المسيح الأخلاقيـة وهـي أنـه كـان يـؤمن بوجـود الجحيم. أنا نفسي لا أشعر أن أي شخص ذي نزعة إنسانية عميقة فعلاً يمكن أن يؤمن بالعقاب الأبدي، والمـسيح، كمـا وصـفته الأناجيـل، كان يؤمن بالعقـاب الأبـدي، إذ يجـد المـرء بـصورة متكـررة سـخطاً انتقامياً على أولئك الذين لا يصغون لتعاليمه - وهو موقف لـيس غـير عام لدى الوعاظ - لكنه ينتقص بشكل من الأشكال من ميزته الفائقـة، فأنت لا تجد، ذلك الموقف لدى سقراط مثلاً، بل تجده رقيقـاً لطيفـاً تجاه من لا يصغي إليه. ومن يقـف ذلـك الموقـف لجـدير بالحكمـة، برأيي، أكثر بكثير ممن يتخذ موقف السخط والاستياء. ولعلكم كلكـم تتذكرون ما قاله سقراط وهـو يمـوت. ومـا كـان يقولـه بـصورة عامـة للناس الذين لم يكونوا يتفقون معه.

كما ستجدون أن المسيح قال في الأناجيل: «**أَيُّهَا الْحَيَّـاتُ أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟**» ذلك قيل للناس الـذين لم يحبوا وعظه. وحـسب رأيي، فإن هذه النغمـة لـيست بالنغمـة الأفـضل فعلاً، كما أن هناك قدراً كبيراً من تلك الأشياء الـتي تخـص الجحـيم.



ثمة، طبعاً، نص مألوف يتعلق بالإثم تجاه الروح القدس: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي». لقد سبب ذلك النص قدراً لا يمكن الكلام عنه من البؤس في العالم، لأن كل أصناف الناس يتخيلون أنهم ارتكبوا الإثم ضد الروح القدس ويظنون أنهم لن يحصلوا على المغفرة لا في هذا العالم ولا في العالم الذي سيأتي. وإنني حقاً لا أفكر أن هناك شخصاً لديه قدر مناسب من اللطف في طبيعته يمكن أن يقدم مثل ذلك النوع من المخاوف والأهوال للعالم.

بعدئذ يقول المسيح: «يُرْسِلُ ابْنُ الإِنْسَانِ مَلاَئِكَتَهُ فَيَجْمَعُونَ مِنْ مَلَكُوتِهِ جَمِيعَ الْمَعَاثِرِ وَفَاعِلِي الإِثْمِ، وَيَطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ». ثم يتابع فيما يتعلق بالولولة والصرف بالأسنان، إنها تأتي في سورة بعد أخرى. ومن الواضح تماماً بالنسبة للقارئ أن هناك متعة معينة في تأمل الولولة والصرف بالأسنان، وإلا ما كانت لتتكرر المرة تلو المرة. ثم إنكم جميعاً تتذكرون، بالطبع، ما يتعلق بالخراف والمعزى، كيف أنه في عودته سيفصل الخراف عن المعزى ولسوف يقول للمعزى: «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ». بعدئذ يتابع: «فَيَمْضِي هؤُلاَءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ» ثم يقول ثانية: «يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ». ثم يكرر هذا المرة تلو المرة. ولا بد لي من القول إنني أظن أن هذا المعتقد كله، أي نار الجحيم عقاب للإثم، هو معتقد مفعم بالقسوة. إنه المعتقد الذي مهد للقسوة في العالم وسبّب للأجيال شتى أنواع التعذيب الفظيع. وإن المسيح إذا ما أخذته كما تقدمه الأناجيل هو بالتأكيد من ينبغي اعتباره مسؤولاً جزئياً عن ذلك.



ثمة أشياء أخرى أقل أهمية، فهناك مثال خنازير غادارين، حيث لم يكن بالتأكيد أمراً لطيفاً كثيراً بالنسبة للخنازير أن يلبسها الشيطان ويجعلها تهوي مندفعة من فوق التل إلى البحر. كما عليكم أن تتذكروا أنه كلي القوة وأنه كان باستطاعته أن يجعل الشياطين بكل بساطة تنصرف بعيداً، لكنه اختار أن يرسلها إلى الخنازير، ثم هناك قصة شجرة - التين الغريبة التي ظلت تحيرني دائماً. إنكم تتذكرون ما حدث لشجرة ـ التين. «لقد كان جائعاً، وحين رأى شجرة تين غير بعيدة عنه وعليها أوراق، جاء إليها بالمصادفة عله يجد شيئاً يأكله، لكن حين وصل إليها لم يجد شيئاً سوى الأوراق فوقت التين لم يحن بعد. حينذاك تكلم المسيح قائلاً: «**لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ!**». فقال له بطرس: «يا سيدي انظر، الشجرة التي لعنت يبست وجفت». هذه قصة غريبة جداً، لأنه لم يكن الوقت الذي ينضج فيه التين، وليس بإمكانك فعلاً أن تلوم الشجرة، بل أنا نفسي لا أشعر أنه سواء في مجال الحكمة أو الفضيلة، يحتل المسيح المرتبة العالية التي يحتلها بعض الناس الآخرين المعروفين في التاريخ، كما أعتقد أن علينا أن نضع رجلاً كبوذا أو سقراط فوقه كمرتبة في هذه المجالات.

العامل العاطفي

أنا لا أظن، كما سبق وقلت، أن السبب الحقيقي لقبول الناس الدين له شأن بالمناقشة والمحاكمة المنطقية. إنهم يقبلون الدين انطلاقاً من أسس عاطفية. إذ غالباً ما يقال للمرء إن من الخطأ الشديد أن تتهجم على الدين، لأن الدين يجعل الناس فاضلين. هكذا قيل لي ولم آخذ به. إنكم تعرفون طبعاً، المحاكاة الساخرة لتلك الحجة في كتاب صموئيل بطلر «زيارة إريهون من جديد» وإنكم لتتذكرون أنه كان يوجد في إريهون رجل يدعى هيغز يذهب إلى بلاد بعيدة وبعد أن يقضي بعض الوقت



هناك يفر هارباً بواسطة منطاد. بعد مضي عشرين سنة، يرجع إلى تلك البلاد ويجد ديناً جديداً يُعبد هو فيه تحت اسم «ابن الشمس»، ديناً يقول إنه صعد إلى السماء، كما يجد أن الاحتفال به وابتداء مائدة الصعود على وشك الحدوث، ثم يسمع البروفسور هانكي والبروفسور بانكي يقولان واحدهما للآخر إنهما لم تقع عين لهما على ذلك الرجل هيغز، كما يأملان أن لا تقع عين لهما عليه أبداً رغم أنهما الكاهنان الرفيعان لدين «ابن الإله». إثر ذلك يغضب كثيراً ويأتي إليهما ثم يقول: إنني أنوي أن أكشف كل هذا الخداع وأقول للناس في إريهون: أنا ذلك الرجل هيغز ولقد صعدت في منطاد، فقيل له: يجب ألا تفعل ذلك لأن أخلاق هذه البلاد كلها مرتبطة بهذه الأسطورة، وإذا عرفوا يوماً أنك لم تصعد إلى السماء فإنهم جميعاً سيصبحون فاسدين أشراراً». وهكذا يقتنع هيغز ثم ينصرف بعيداً بكل هدوء.

تلك هي الفكرة - أي أننا سنكون كلنا أشراراً فاسدين إن لم نؤمن بالدين المسيحي. وإنه ليبدو لي أن الناس الذين آمنوا به كانوا بغالبيتهم العظمى فاسدين، أشراراً إلى حد كبير. هذه حقيقة تثير الاستغراب لكنك تجد أنه بقدر ما تشتد قوة الدين في أية مرحلة من الزمن وبقدر ما يتعمق الإيمان الدوغماتي، بقدر ما تشتد القسوة وتزداد الفظاعات وتسوء أكثر الحالة العامة للناس. ففي ما يدعى بعصور الإيمان، حين كان الناس يؤمنون بالدين المسيحي بتمامه وكماله، كانت هناك محاكم تفتش بكل ما جسدته من عذابات، وكان هناك ملايين النساء سيئات الحظ اللواتي حرقن كساحرات، كما كان يمارس كل نوع من القسوة والفظاعة على كل أصناف الناس وباسم الدين. كذلك تجد حين تنظر حولك في العالم أن كل تقدم ولو كان طفيفاً في المشاعر الإنسانية وكل تحسن في قانون العقوبات وكل خطوة باتجاه التخفيف من الحروب والتعامل الأفضل مع الأعراق



الملونة، وكل إزالة للعبودية وكل تقدم أخلاقي تحقق في العالم إنما كان موضوع معارضة مستمرة من كنائس العالم المنظمة. ومتعمداً أقول إن الدين المسيحي، كما هو منظم في كنائسه، كان وما يزال العدو الرئيسي للتقدم الأخلاقي في العالم.

كيف أعاقت الكنائس التقدم

لعلكم تفكرون أنني أشط بعيداً حين أقول إن الأمر ما يزال كذلك، لكنني أعتقد أنني لا أشط. لنأخذ حقيقة من الحقائق، لا بد أنكم ستصغون معي إذا ما ذكرتها، وهي ليست بالحقيقة السارة، لكن الكنائس تجبر المرء على ذكر الحقائق غير السارة. لنفترض في هذا العالم الذي نعيش فيه اليوم أن فتاة لا خبرة لها تزوجت برجل مصاب بمرض السفلس. في تلك الحالة، تقول الكنيسة الكاثوليكية: «الزواج مقدس ولا يقبل الانفصال. ويجب أن يبقيا معاً طوال العمر». كما أنه لا يسمح للمرأة باتخاذ أي إجراء لمنع نفسها من إنجاب أطفال مصابين بذلك المرض. ذلك ما تأمر به الكنيسة الكاثوليكية، وأنا أقول: إن هذه منتهى القسوة الشيطانية، وأنه ما من أحد لم تقض الدوغماتية على تعاطفه الطبيعي أو أن نظرته الأخلاقية لم تمت كلياً تجاه كل إحساس بالمعاناة، يمكن أن يؤيد الموقف القائل بأن من الصحيح والمناسب أن تستمر الأمور على تلك الحالة.

ذلك مثال فقط. على أن هناك الكثير من السبل في الوقت الحاضر التي توقع فيها الكنيسة، من خلال إصرارها على ما اختارت أن تسميه أخلاقاً، كثيراً من المعاناة غير الضرورية وغير المستحقة، على كل أصناف الناس. وكما نعلم، طبعاً، هي ما تزال، بجزئيها الرئيسي، عدو لكل تقدم وكل تحسن في الطرق التي تنقص من



المعاناة في العالم، لأنها اختارت أن تسمي كأخلاق مجموعة ضيقة، معينة من قواعد السلوك التي لا شأن لها بالسعادة الإنسانية وعندما نقول إنه ينبغي فعل هذا أو ذاك لأنه يساهم في سعادة الإنسان يردون بأنه لا شأن لك البتة بالمسألة كلها. ما شأن الأخلاق بالسعادة البشرية؟ فليس هدف الأخلاق أن تجعل الناس سعداء.

الخوف هو أساس الدين

يقوم الدين، برأيي، بصورة أساسية وأولية على الخوف. إنه جزئياً الخوف من المجهول وجزئياً، كما قلت من قبل، الرغبة في أن تشعر بأن لديك أخاً أكبر سيقف إلى جانبك في كل ما تواجهه من مشاكل ونزاعات. إن الخوف هو أساس الأمر كله - الخوف من كل ما هو غامض، الخوف من الهزيمة والخوف من الموت، إن الخوف هو أبو القسوة وأمها لذا، لا عجب إذا ما كان الدين والقسوة يسيران يداً بيد. ذلك لأن الخوف يقبع في الأساس الذي يقوم عليه هذان الأمران، إن بإمكاننا الآن وفي هذا العالم أن نبدأ قليلاً بفهم الأشياء وقليلاً بالسيطرة عليها بمساعدة العلم الذي شق طريقه خطوة خطوة رغم الدين المسيحي، ورغم أنف الكنائس ورغم معارضة كل المفاهيم القديمة. فالعلم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة. إن باستطاعة العالم أن يعلمنا وأظن أن قلوبنا ذاتها يمكن أن تعلمنا في أن لا ننظر بعد الآن حولنا بحثاً عن دعم خيالي وأن لا نخترع بعد اليوم حلفاء لنا في السماء، بل بدلاً من ذلك نتطلع إلى مجهوداتنا هنا على الأرض لكي نجعل هذا العالم أهلاً للعيش فيه بدلاً من ذلك النوع من الأمكنة، الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلها على صنعه.



ما ينبغي أن نفعل

نحن نريد أن نقف على أقدامنا وننظر بشكل صحيح ومباشر إلى العالم - حقائق الخير فيه وحقائق الشر، جمالاته وقباحاته، أن نرى العالم كما هو ولا نخاف منه، أن نتغلب على العالم بفكرنا لا أن نخضع له فقط بخنوع العبيد نتيجة الرعب الذي يأتي منه. إن المفهوم الكلي للإله مفهوم مستمد من الاستبداديات الشرقية القديمة وهو مفهوم لا يجدر بالرجال الأحرار الأخذ به فعندما تسمع في الكنيسة كيف يحطون من قدر أنفسهم ويقولون إنهم آثمون بؤساء وإنهم وإنهم...إلخ، يبدو ذلك مدعاة للاحتقار وغير جدير بكائنات بشرية تحترم نفسها. علينا أن نقف منتصبين ونتطلع إلى العالم مباشرة في الوجه. كما أن علينا أن نبذل ما في وسعنا لجعل العالم أفضل، وإذا لم يصبح جيداً كما نرغب، فإنه، بعد كل شيء، سيكون أفضل مما جعله أولئك الآخرون في كل تلك العصور. إن العالم الجيد يحتاج إلى المعرفة، الشجاعة واللطف. ولا يحتاج إلى الحنين إلى الماضي والندم عليه، أو تقييد الفكر الحر بكلمات قالها رجال جهلة قبل زمن طويل. إنه بحاجة إلى النظرة الشجاعة والفكر الحر، كما أنه بحاجة إلى الأمل بالمستقبل وليس النظر إلى الوراء طوال الوقت باتجاه ماضٍ ميت، نحن على ثقة أنه سيتم تجاوزه بمستقبل يمكن أن يبدعه فكرنا.







الفصل الثاني

هل قدم الدين إسهامات نافعة للحضارة؟

نظرتي للدين هي نظرة لوكريتيوس: «إنني أعتبره مرضاً ولد من الخوف ومصدراً لبؤس العرق الإنساني غير المحدود». مع ذلك، ليس بوسعي أن أنكر أنه قدم بعض الإسهامات للحضارة. فقد ساهم في الأيام الأولى بتثبيت التقويم وكان السبب في جعل الكهنة المصريين يؤرخون حالات الخسوف والكسوف بدقة إلى درجة استطاعوا معها مع الزمن أن يتنبؤوا بها. إنهما الخدمتان اللتان أنا على استعداد للاعتراف بهما، لكن دون أن أعرض إسهامات أخرى.

تستعمل كلمة الدين هذه الأيام بمعنى فضفاض للغاية. بعض الناس، وتحت تأثير البروتستانتية المتطرفة يستخدمون الكلمة للدلالة على أية قناعات شخصية جدية تتعلق بالأخلاق أو طبيعة الكون. هذا الاستخدام للكلمة غير تاريخي البتة. «فالدين أساساً هو ظاهرة اجتماعية»، والكنائس يمكن أن تدين بأصولها للمعلمين ذوي القناعات الفردية الشديدة، لكن هؤلاء المعلمين نادراً ما كان لهم تأثير على الكنائس التي أسسوها هم أنفسهم، في حين كان للكنائس تأثير كبير على المجتمعات التي ازدهرت فيها. لنأخذ الحالة التي كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة لأبناء الحضارة الغربية: تعاليم المسيح، كما تظهر في الأناجيل الأربعة، لا شأن لها إلا قليلاً بما يتعلق بأخلاق المسيحيين. فالأمر الأهم بالنسبة إلى المسيحية، من وجهة نظر اجتماعية وتاريخية، «ليس المسيح بل الكنيسة» وإذا كان



علينا أن نحكم على المسيحية كقوة اجتماعية، فعلينا ألا نعود إلى الأناجيل بهذا الشأن. تعاليم المسيح تقضي بأن عليك أن تعطي ما تملك للفقير وأن عليك ألا تقاتل، كما أن عليك ألا تذهب إلى الكنيسة، وألا تعاقب الزناة، لكن لا الكاثوليكية ولا البروتستانية كان لها أية رغبة في أن تتبع التعاليم في أي من هذه المجالات. صحيح أن بعض الفرنسيسكان حاولوا أن يعلموا عقيدة الفقر الرسولي، لكن البابا أدانهم ووصم عقيدتهم بالهرطقة، أو، مثلاً، لننظر إلى مثل هذا النص: «لا تحكم على أحد لكي لا يُحكم عليك». واسأل نفسك أي تأثير لنص كهذا كان على محاكم التفتيش ومنظمة الكو-كلوكس كلان. ما ينطبق على المسيحية ينطبق أيضاً على البوذية، لقد كان البوذا رقيقاً، متنوراً، وعلى فراش موته ضحك من تلاميذه لأنهم افترضوا أنه خالد لا يموت. لكن الكهنوت البوذي - كما هو موجود في التيبت، مثلاً - كان ظلامياً، مستبداً وقاسياً إلى أعلى درجة.

لا شيء بالصدفة فيما يتعلق بهذا الفرق بين الكنيسة ومؤسسها فحالما يُفترض أن الحقيقة المطلقة تنظمها أقوال شخص معين، يتكون هناك هيئة من الخبراء لتفسير أقواله، هؤلاء الخبراء يكتسبون سلطة على أنهم معصومون من الخطأ نظراً لأنهم يمتلكون مفتاح الحقيقة، وشأنهم شأن أية طبقة أخرى ذات امتيازات، يستخدمون سلطتهم لمنفعتهم الخاصة. لكنهم، في مجال من المجالات، أسوأ من أية طبقة أخرى ذات امتيازات، نظراً لأن شغلهم هو أن يشرحوا حقيقة ثابتة لا تتغير تجلت ذات مرة للكل في كمالها المطلق بحيث يصبحون حتماً أعداء لكل تقدم فكري وأخلاقي «فالكنيسة عادت غاليليو وداروين كما عادت في أيامنا هذه فرويد ولقد مضت، أيام سلطتها العظمى، أبعد وأبعد في عدائها للحياة الفكرية، فالبابا



غريغوري الكبير كتب إلى أسقف رسالة مستهلها: «وصلنا تقرير لا نستطيع ذكره دون أن نحمر خجلاً، يقول إنك تشرح «قواعد النحو لبعض الأصدقاء»، وهكذا، أرغم الأسقف بقوة السلطة البابوية على أن يكف عن هذا «العمل المشين». كما إن اللاتينية لم تستعد عافيتها حتى عصر النهضة، إذن، ليس فكرياً فقط بل أخلاقياً أيضاً، «الدين ضار» وأعني بذلك أنه يعلم التعاليم الأخلاقية التي لا تفضي إلى السعادة الإنسانية، فحين أجري استفتاء عام في ألمانيا قبل بضع سنوات، حول ما إذا كان ينبغي للعائلات الملكية المعزولة أن يسمح لها بالتمتع بملكياتها الخاصة أم لا، فإن الكنيسة الرسمية في ألمانيا ذكرت أنه سيكون مخالفاً لتعاليم المسيحية حرمانهم منها. لقد عارضت الكنيسة، كما نعلم جميعاً، إلغاء العبودية طالما تجرأت على فعل ذلك، وبقليل جداً من الاستثناءات التي يحسنون الدعاية لها، تعارض الكنيسة في الوقت الحاضر، كل حركة باتجاه العدالة الاقتصادية، بل إن البابا أدان الاشتراكية رسمياً.

المسيحية والجنس

على أن أسوأ سمة للدين المسيحي هي موقفه تجاه الجنس وهو موقف فظيع وغير طبيعي إلى درجة لا يمكن فهمه إلا عندما ننظر إليه آخذين بالاعتبار مرض العالم المتحضر في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية تتفسخ. إننا نسمع أحياناً كلاماً عن أن المسيحية حسنت وضع المرأة وتلك لعمري واحدة من أشد عمليات تحريف التاريخ التي يمكن أن تحدث. فالنساء لا يمكن أن يتمتعن بمركز جيد في المجتمع حيث يعتبر ذا أهمية قصوى أنه عليهن ألا ينتهكن مجموعة القوانين الأخلاقية الصارمة للغاية. لقد كان الرهبان ينظرون دائماً للمرأة على أنها، أساساً، المغوية، كما كانوا يفكرون بها



بصورة رئيسية على أنها «الموحية بالشهوات الآثمة» كذلك فإن تعاليم الكنيسة كانت وما تزال تقضي بأن العذر هي الأفضل لكن بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون التحمل فإن الزواج مسموح. «خير لك أن تتزوج من أن تحترق»، قال القديس بولس بدقة مؤلمة، لكن بجعلها الزواج غير قابل للطلاق وبحظرها كل معرفة بما له علاقة بالجنس فإن الكنيسة فعلت ما يمكن أن يضمن أن الشكل الوحيد للجنس المسموح به يشتمل على القدر الضئيل جداً من المتعة والقدر الكبير من الألم. كما إن معارضتها لتحديد النسل ينطلق بالحقيقة، من الدافع ذاته. فإذا أنجبت المرأة طفلاً كل سنة إلى أن تبلى وتموت، يجب أن لا نفترض أنها ستحصل على الكثير من السرور والمتعة من حياتها الزوجية. لهذا ينبغي تثبيط تحديد النسل ومنعه.

كذلك فإن مفهوم الإثم المرتبط بالأخلاق المسيحية هو مفهوم يحمل قدراً كبيراً للغاية من الأذى، نظراً لأنه يقدم للناس منفذاً لساديتهم التي يعتقدون أنها مشروعة بل نبيلة حتى. لنأخذ، مثلاً، مسألة الوقاية من السيفلس. فمن المعروف أنه، باحتياطات تتخذ مسبقاً، يمكن لخطر التقاط هذا المرض أن يصبح ضئيلاً للغاية. لكن المسيحيين يعترضون على نشر هذه الحقيقة، نظراً لأنهم يؤمنون كل الإيمان بأن الآثمين يجب أن يعاقبوا. وهم يؤمنون بهذا إلى درجة أنهم يرغبون حتى بأن تمتد العقوبة لتشمل زوجات الآثمين وأطفالهم. ثمة في العالم الآن آلاف الأطفال الذين يعانون من السفلس الموروث من آبائهم، والذين لم يكونوا ليولدوا لولا رغبة المسيحيين بمعاقبة الآثمين. بيد أنني لا أستطيع أن أفهم كيف للعقائد المؤدية إلى مثل هذه القسوة الشيطانية أن ينظر إليها على أن لها أي أثر جيد على الأخلاق.

إن الموقف المسيحي خطر على خير البشر وصالحهم، ليس فقط فيما يتعلق بالسلوك الجنسي، بل أيضاً فيما يتعلق بمعرفة موضوعات الجنس. فكل امرئ يتحمل المشقة في أن يدرس المسألة بروح غير منحازة يعلم أن الجهل بمسائل الجنس التي تحاول المسيحية المتزمتة أن تطبقه على الشبان هو خطر للغاية بالنسبة لصحتهم الذهنية والجسدية ويسبب لدى أولئك الذين يلتقطون معرفتهم عن طريق الكلام «غير اللائق» كما يحدث لمعظم الأولاد موقفاً خاصاً وهو أن الجنس بحد ذاته غير لائق وسخيف. وأنا لا أظن أنه يمكن أن يكون هناك أي دفاع عن وجهة النظر التي تقول إن المعرفة غير مرغوب بها أبداً، كما لا يمكن أن أقيم الحواجز في طريق اكتساب المعرفة من قبل أي فرد وفي أي سن، لكن في الحالة الخاصة لمعرفة الجنس، ثمة حجج أشد ثقلاً بكثير لصالحها مما هي في حالة معظم المعارف الأخرى. إذ يصبح الاحتمال أقل بكثير أن يتصرف المرء بحكمة حين يكون جاهلاً بالمقارنة مع تصرفه إن كان يعرف، وإنه لمن السخف أن نجعل الشبان يشعرون بالإثم لأن لديهم فضولاً فطرياً حول مسألة هامة.

كل صبي يهتم بالقطارات، لنفترض أننا قلنا له إن الاهتمام بالقطارات أمر سيء ولنفترض أنه أبقى عينيه معصومتين حين يكون في قطار أو محطة سكك حديدية ثم لنفترض أننا لم نسمح بأن تذكر كلمة «قطار» أمامه وأننا أبقينا الوسيلة التي ينتقل بها من مكان إلى آخر نوعاً من اللغز الذي لا يمكن حله. النتيجة ستكون أنه لن يكف عن الاهتمام بالقطارات بل على العكس سيصبح أكثر اهتماماً من ذي قبل، لكن سيكون لديه إحساس فظيع بالإثم، لأن هذا الاهتمام قدِّم له على أنه غير لائق. بهذه الوسيلة يمكن جعل كل صبي ذي ذهن



نشط مصاباً بالإنهاك العصبي إلى درجة نقل أو تكثر وهذا بالضبط ما يحدث في مسألة الجنس، لكن بما أن الجنس أكثر إثارة للاهتمام من القطارات فالنتائج تكون أسوأ بكثير. إذ أن كل بالغ في المجتمع المسيحي مريض عصبياً تقريباً نتيجة للحرمان المفروض على معرفة الجنس حين يكون يافعاً، فتى كان أم فتاة. والإحساس بالإثم الذي زرع فيه بصورة مصطنعة هو أحد أسباب القسوة والجبن والغباء في الحياة اللاحقة. ليس هناك أي أساس عقلاني من أي صنف أو نوع لإبقاء الولد جاهلاً بأي شيء يمكن أن يرغب بمعرفته، سواء أكان جنساً أو أية مسألة أخرى. ونحن لن يكون لدينا أناس عاقلون إلى أن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة في التعليم المبكر. وهو مستحيل طالما أن الكنيسة قادرة على التحكم بالسياسة التعليمية.

لندع هذه الاعتراضات التفصيلية نسبياً جانباً، من الواضح أن العقائد الأصولية المسيحية تتطلب قدراً كبيراً من التصحيح الأخلاقي قبل أن تصبح مقبولة. فالعالم، كما قالوا لنا، خلقه الإله الذي هو خيِّر وكلي القوة على حد سواء. وهو قبل أن يخلق العالم كان يرى كل الآلام والبأساء التي يمكن أن يحتويها، لذلك، هو مسؤول عنها كلها. ومن غير المجدي أن نناقش بأن الألم في العالم مرده الإثم الذي يرتكبه الإنسان، فهذا غير صحيح، في المقام الأول، إذ ليس الإثم هو الذي يجعل الأنهار تفيض عن ضفافها أو البراكين تثور. لكن حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإنه لن يشكل أي فارق. إن كنت سأنجب طفلاً وأنا أعلم أنه سيكون مهووساً بقتل البشر فلا بد أنني سأكون مسؤولاً عن جرائمه. وإذا كان الإله يعرف سلفاً آثام أي إنسان سيرتكب الإثم، فإنه سيكون مسؤولاً تماماً عن نتائج تلك الآثام حين يقرر أن يخلق الإنسان. الحجة المسيحية المعتادة هنا هي أن المعاناة



في العالم تطهير من الإثم وهي لذلك أمر حسن. هذه الحجة، بالطبع، تبرير للسادية لا غير، لكنها على أية حال، حجة ضعيفة جداً، إنني أدعو أي مسيحي لأن يرافقني إلى جناح أطفال في مستشفى، لكي يرى بأم عينه المعاناة التي يقاسيها أولئك الأطفال ومن ثم ليصر على تأكيده أن أولئك الأطفال متهتكون أخلاقياً بحيث يستحقون معاناتهم تلك. ولكي يحمل نفسه على قول ذلك، على المرء أن يدمر في ذاته كل مشاعر الشفقة والرحمة. أي باختصار، عليه أن يجعل نفسه بقسوة الإله الذي يؤمن به. إذ ما من إنسان يؤمن أن كل شيء من أجل الأفضل في عالم المعاناة هذا، يمكنه أن يحافظ على قيمه الأخلاقية قوية لا تمس، نظراً لأن عليه دائماً أن يجد الأعذار والمبررات لما هنالك من ألم وبأساء.

الاعتراضات على الدين

تندرج الاعتراضات على الدين ضمن صنفين اثنين - فكري وأخلاقي. الأول: أنه ما من منطق يدعونا لأن نفترض أن هنالك أي دين صحيح، الاعتراض الثاني أي الأخلاقي هو أن المفاهيم الدينية تعود إلى زمن كان فيه الناس أقسى بكثير مما هم الآن، لهذا يميلون لإبقاء الفظاعات التي كان الوجدان الأخلاقي للعصر سيتجاوزها لولا ذلك. لنتناول الاعتراض الفكري أولاً، هناك نزوع معين في عصرنا العملي لأن نعتبر أنه لا يهم كثيراً ما إذا كانت التعاليم الدينية صحيحة أم غير صحيحة، نظراً لأن ما يهم فعلاً هو: ما إذا كانت نافعة أم لا. مع ذلك، لا يمكن البت بأي سؤال منهما دون الآخر. فحين نؤمن بالدين المسيحي تكون أفكارنا عما هو خير، مختلفة عما هي إن كنا لا نؤمن به. لهذا بالنسبة للمسيحي، فإن جوهر المسيحية قد يبدو جيداً. بينما قد يبدو سيئاً، لمن لا يؤمن به. أكثر من ذلك، فإن



الموقف الذي ينبغي على المرء أن يتخذه تجاه فكرة كهذه بمعزل عما إذا كان هناك دليل لصالحها أم لا، هو موقف يؤدي إلى عدائية تجاه الأدلة ويجعلنا نغلق أدمغتنا تجاه كل حقيقة لا تتماشى مع أهوائنا.

هناك نوع معين من الصدق العلمي، وهي صفة مهمة للغاية، صفة قلما توجد لدى إنسان يتخيل أن هناك أشياء من واجبه أن يؤمن بها. لهذا لا يمكننا فعلاً أن نقرر ما إذا كان الدين يعود بالخير دون أن نمحص بالمسألة الأخرى: ما إذا كان الدين صحيحاً أم غير صحيح. بالنسبة للمسيحية والإسلام واليهودية، المسألة الأساسية كلياً التي تتضمنها حقيقة الدين هي وجود الإله. في الأيام التي كان فيها الدين ما يزال في موقع المنتصر، كان لكلمة «الإله» معنى مختلف تماماً. لكن، نتيجة لهجمات العقلانيين أصبحت الكلمة باهتة أكثر فأكثر إلى أن بات من الصعب أن نرى ما تعني حين يؤكدون أنهم يؤمنون بالإله. دعنا نأخذ، لغرض المناقشة، تعريف ماثيو أرنولد: «قوة ليست نحن أنفسنا تعمل لإحقاق الحق». ربما يمكننا أن نجعل هذا أشد غموضاً حتى، ونتساءل ما إذا كان لدينا أي دليل على أي غاية في هذا الكون، وذلك بمعزل عن غايات الكائنات البشرية على سطح هذا الكوكب.

إن الحجة المعتادة للناس المتدينين حول هذا الموضوع هي تقريباً كما يلي: أنا وأصدقائي أشخاص ذوو ذكاء وفضيلة مدهشين. ومن الصعب أن نفهم أن مثل هذا الذكاء والفضيلة يمكن أن يأتيا بالمصادفة، لهذا يجب أن يكون هناك من هو بذكائنا وفضيلتنا على الأقل، قد وضع الآلية الكونية قيد الحركة ونظره موجه لخلقنا. هنا، يؤسفني أن أقول إنني لا أجد هذه الحجة ذات تأثير على النحو الذي يراه أولئك الذين يستخدمونها. فالكون واسع، مع ذلك إذا كان علينا أن نصدق إدينغتون، ربما لا يوجد في مكان آخر في الكون كائنات



بذكاء الإنسان، وإذا ما تأملت المقدار الإجمالي للمادة في العالم وقارنته بالمقدار الذي تشكله أجساد الكائنات الذكية سترى أن الأخيرة تشكل قدراً متناهي الصغر تقريباً بالنسبة للأولى. نتيجة ذلك، حتى إن كانت غير معقولة إلى حد كبير أن قوانين الصدفة ستنتج عضوية قادرة على التفكير بالاصطفاء العرضي للذرات مع ذلك، يحتمل أن يكون هناك في الكون قدر ضئيل جداً من عضويات كهذه يمكن أن نجدها بالحقيقة. إذن، نقول ثانية: إذا ما اعتبرنا أنفسنا ذروة عملية ضخمة كهذه، فإننا لا نبدو أننا فعلاً أولئك الرائعون كفاية، بالطبع، أنا أدرك أنني عاجز عن أن أثمن استحقاقات تتجاوز ذاتها كثيراً. مع ذلك، حتى بعد الأخذ بالحسبان ما تحت هذا البند، لا أستطيع إلا أن أفكر أن الإله الكلي القوة والعامل عبر الزمن كله ربما كان عليه أن ينتج شيئاً ما أفضل. وبالتالي، علينا أن نفكر أن حتى تلك النتيجة هي مجرد لمعة في تدوير مصورة سينمائية. فالأرض لن تبقى دائماً مسكونة والعرق البشري سوف ينقرض وإذا كان على العملية الكونية أن تبرر نفسها فيما بعد فإن عليها أن تفعل ذلك في مكان آخر غير سطح كوكبنا، لكن حتى إن حدث هذا، فإنه ينبغي أن يتوقف عاجلاً أو آجلاً. إن القانون الثاني للهدرو ديناميك تجعل من المستحيل تقريباً أن نشك في أن الكون في طريقه إلى التوقف عن العمل وأنه بالنهاية لا شيء ذا أهمية ضئيلة سيكون ممكن الوجود في أي مكان. إن من المتاح لنا، بالطبع أن نقول إنه حين يأتي ذلك الزمن، فإن الإله سيلف الآلة من جديد (كالزنبرك)، لكن إذا ما قلنا هذا، يمكننا أن نبني تأكيدنا على الإيمان فقط لا على أي نتفة من الدليل العلمي. حتى الآن، وكما تشير الأدلة العلمية، فإن الكون تقدم ببطء وعبر مراحل إلى أن وصل إلى نتيجة مثيرة للشفقة نوعاً ما على هذه الأرض، وهو



سيتقدم ببطء وعبر مراحل أكثر إثارة للشفقة أيضاً إلى أن يصل إلى حالة من الموت الكوني. وإذا كان ينبغي اتخاذ هذا كدليل غاية، يمكنني فقط أن أقول إن الغاية هي واحدة من الأمور التي لا تروق لي أبداً. لذلك، لا أرى سبباً للإيمان بالإله من أي نوع مهما يكن غامضاً ومهما يكن مخففاً. ولندع جانباً الحجج الميتافيزيقية القديمة، طالما أن المتدنيين المدافعين عن دينهم قد تخلوا عنها.

الروح والخلود

لقد كان للتأكيد المسيحي على روح الفرد تأثير عميق على أخلاق المجتمعات المسيحية. إنها عقيدة وشيجة القربى من عقيدة الرواقيين، وقد نشأت، كعقيدتهم، في مجتمعات لم يعد لديها آمال سياسية. إن الدافع الطبيعي للشخص القوي ذي الشخصية المقبولة هو أن يحاول فعل الخير، لكن إذا كان محروماً من كل سلطة سياسية ومن كل فرضية للتأثير بالأحداث، فإنه سيُحرف عن مساره الطبيعي ويقرر أن الشيء المهم هو أن يكون صالحاً. ذلك ما حدث للمسيحيين الأوائل، ولقد قادهم ذلك إلى مفهوم القداسة الشخصية كأمر مستقل تماماً عن فعل الخير، طالما أن القداسة يجب أن تكون شيئاً ما يمكن إنجازه من قبل أناس مهمين على صعيد الفعل. لذلك حدث أن أخرجت الفضيلة الاجتماعية من الأخلاق المسيحية. وحتى هذا اليوم فإن المسيحيين التقليديين يفكرون أن الزاني أشد سوءاً من السياسي الذي يرتشي، رغم أن الأخير ربما يسبب من الأذى للمجتمع أكثر من الأول بألف مرة، إن المفهوم القروسطي عن الفضيلة، كما يرى المرء في صورهم كان مفهوماً ضعيفاً، واهناً وعاطفياً. فالرجل الأشد فضيلة هو الرجل الذي يعتزل العالم، والرجال الفاعلون الوحيدون الذين اعتبروا قديسين هم أولئك الذين



أضاعوا حياتهم وممتلكاتهم في قتال الأتراك، كالقديس لويس مثلاً. إذ ما كان للكنيسة أن تنظر إلى رجل كقديس لأنه أصلح مالية دولة أو قانون جرائم أو قضاء. مثل هذه الإسهامات سينظر إليها على أنها غير ذات أهمية. «أنا لا أعتقد أن هناك قديساً في قائمة القديسين كلها يدين بقدسته إلى عمل ذي فائدة عامة. مع هذا الفصل بين الشخص الاجتماعي والشخص الأخلاقي نشأ فصل متزايد بين الروح والجسد وهو ما تبقى في الميتافزيقيا المسيحية وفي الأنظمة المستمدة من فكر ديكارت. وإذا ما تكلمنا بصراحة، يمكن للمرء أن يقول إن الجسد يمثل الجزء الاجتماعي والعام من الإنسان، فيما الروح تمثل الجزء الخاص فيه. بتأكيدها على الروح، جعلت الأخلاق المسيحية من ذاتها فردية تماماً. ومن الواضح، على ما أظن أن النتيجة الخالصة للمسيحية طوال تلك القرون كلها، هي جعل الناس أنانيين أكثر، منغلقين على أنفسهم أكثر مما هم بالفطرة، ذلك أن الدوافع التي تجعل الإنسان بشكل طبيعي يخرج خارج جدران ذاته إنما هي دوافع الجنس، الأبوة والأمومة وإحساسه الوطني أو غريزة القطيع. بالنسبة إلى الجنس، فعلت الكنيسة كل شي لكي تشجبه وتحط من قدره. العاطفة العائلية، حط المسيح نفسه من قدرها وكذلك جملة أتباعه، فيما لم تستطع الوطنية أن تجد لها مكاناً بين رعايا الإمبراطورية الرومانية والهجوم العنيف على العائلة في الأناجيل مسألة لم تلق الاهتمام الذي تستحق. صحيح أن الكنيسة تعامل أم المسيح باحترام، لكن المسيح نفسه لم يُظهر لها إلا القليل من هذا الاحترام، «ما علي أن أفعل بك يا امرأة؟» (يوحنا 11، 4). ذلك هو أسلوبه في مخاطبتها. كذلك يقول إنه جاء لكي يضع رجلاً على خلاف مع والده ضد والده، وأن يضع الإبنة ضد الأم والكنة ضد حماتها وأن من يحب أمه وأباه أكثر منه ليس جديراً به (متى. × 350 - 7). هذا كله لا يمكن أن



يعني إلا تحطيم الرابطة العائلية البيولوجية من أجل العقيدة - وهو موقف ذو شأن كبير بمسألة عدم التسامح التي اجتاحت العالم مع انتشار المسيحية.

هذه الفردانية بلغت ذروتها في الاعتقاد بخلود روح الفرد الذي كان سيتمتع بعدئذ بالنعيم الأبدي أو العذاب الأبدي طبقاً للظروف. أما الظروف التي يتوقف عليها هذا الفارق الخطير فمثير للاستغراب بشكل ما، فإذا مت، فعلاً بعد أن يباركك الكاهن مباشرة ويرش عليك الماء، متلفظاً ببعض الكلمات، فإنك ستحصل على النعيم الأبدي، فيما إذا حدث، وبعد حياة طويلة فاضلة، أن ضربتك صاعقة في اللحظة التي كنت فيها تستخدم كلاماً بذيئاً لأنك قطعت رباط حذائك، فإنك ستلقى العذاب الأبدي. أنا لا أقول إن المسيحي البروتستانتي الحديث يؤمن بهذا، وربما حتى الكاثوليكي الحديث الذي اطلع جيداً على علم اللاهوت، لكنني أقول إن هذا من صلب العقيدة المسيحية التي ظل المسيحيون يؤمنون بها حتى وقت قريب. لقد كان الإسبان في المكسيك والبيرو يلجؤون إلى تعميد الأطفال الهنود ثم يحطمون أدمغتهم مباشرة، فهم بهذه الوسيلة كانوا يضمنون أن أولئك الأطفال سيذهبون إلى الجنة. وما من مسيحي ملتزم بدينه كان يجد سبباً منطقياً لإدانة عملهم، رغم أن جميع المسيحيين يدينون ذلك اليوم. إن الاعتقاد بخلود الروح بشكله المسيحي كان له وبطرق لا عد لها ولا حصر، تأثيرات كارثية على الأخلاق، كما كان للفصل الميتافيزيقي بين الروح والجسد تأثيرات كارثية أيضاً على الفلسفة.



منابع التعصب

إن التعصب الذي انتشر في العالم مع ظهور المسيحية هو سمة من أشد سماتها إثارة للاستغراب وترجع، على ما أظن، إلى الاعتقاد اليهودي بصحة معتقدهم وبحصرهم معرفة الحقيقة الإلهية اليهودية بهم. لماذا ينبغي لليهود أن تكون لهم هذه الخصائص، أنا لا أدري لقد نمت لديهم، على ما يبدو، خلال الأسر، وكرد فعل على محاولة تمثل اليهود من قبل السكان الآخرين، ومع أن ذلك يمكن أن يكون، فإن اليهود، وبشكل خاص الأنبياء منهم، شددوا أكثر وأكثر على صحة معتقدهم وعلى فكرة أنه أمر رديء أن تتحمل وجود أي دين غير دينهم. هاتان الفكرتان كان لهما تأثير كارثي على نحو خارق للعادة في التاريخ الغربي. إذ كان للكنيسة دور في كثير من أعمال اضطهاد المسيحيين التي مورست من قبل الدولة الرومانية قبل زمن قسطنطين. مع ذلك، كان هذا الاضطهاد ضئيلاً متقطعاً وسياسياً كلياً، وفي كل الأوقات، من عهد قسطنطين إلى نهاية القرن السابع عشر، تعرض المسيحيون لاضطهاد أشد قسوة وفظاعة من قبل مسيحيين آخرين أكثر مما تعرضوا له على أيدي الأباطرة الرومان. قبل صعود المسيحية، كان موقف الاضطهاد هذا مجهولاً من قبل العالم القديم، ما خلا بين اليهود. فإن تقرأ هيرودوتس، مثلاً، تجد وصفاً بسيطاً ومتسامحاً لعادات الأمم الأخرى التي زارها. صحيح، أحياناً، أنه يمكن لعادة بربرية على نحو خاص أن تصدمه لكن، عموماً، هو يتقبل العادات والآلهة الأجنبية، كما أنه غير تواق لأن يبرهن أن الناس الذين يدعون زيوس باسم آخر سوف يلقون الهلاك الأبدي وأنه يجب تنفيذ الإعدام بهم لكي ينالوا عقابهم بأسرع ما يمكن. هذا الموقف تم الاحتفاظ به للمسيحيين. صحيح أن إيمان المسيحي



المعاصر أقل شدة، لكن ذلك ليس بفضل المسيحية، بل هو بفضل أجيال من المفكرين الأحرار الذين جعلوا المسيحيين بدءاً من عصر النهضة وحتى اليوم، يخجلون من كثير من معتقداتهم التقليدية، وإنه لمسلٍ أن تسمع مسيحياً معاصراً يخبرك كم إن المسيحية لطيفة وعقلانية، متجاهلاً أن لطفها ذلك وعقلانيتها كلها ترجع إلى تعاليم رجال كانوا في أيامهم مضطهدين أشد أنواع الاضطهاد من قبل المسيحيين المتدينين. فلا أحد في هذه الأيام يؤمن بأن العالم تم خلقه سنة 4004 ق.م. لكن ليس قبل زمن طويل جداً، كان التشكيك بهذه النقطة يعتبر جريمة لا تغتفر. فجدي الأكبر، بعد أن لاحظ تجمع الحمم على سفوح جبل إتنا، توصل إلى استنتاج أن العالم يجب أن يكون أقدم مما تفترض العقيدة ولقد نشر هذا الرأي في كتاب. لكن رداً على هذه الإساءة قاطعته المقاطعة ونبذه المجتمع. ولو أن ظروفه كانت أقل تواضعاً إذن، لكانت عقوبته أشد قسوة دون شك. إذن لا فضل للمتزمتين في أنهم لا يؤمنون اليوم بكل تلك السخافات التي كانوا يؤمنون بها قبل 150 عاماً، فالإضعاف التدريجي للتزمت المسيحي حدث، على الرغم من المقاومة الشديدة للغاية، فقط كنتيجة لهجمات أصحاب الفكر الحر.

عقيدة الإرادة - الحرة

لقد كان موقف المسيحيين حيال موضوع القانون الطبيعي مترجرجاً ومضطرباً على نحو يثير الاستغراب. فمن جهة كانت هناك عقيدة الإرادة - الحرة التي كان يؤمن بها غالبية المسيحيين، وهذه العقيدة تقول إن أفعال الناس على الأقل يجب أن تخضع للقانون الطبيعي. من جهة أخرى، كان هناك، خاصة في القرن الثامن عشر



والتاسع عشر، إيمان بالإله باعتباره مانح - القانون، وبالقانون الطبيعي كواحد من الأدلة الرئيسية على وجود الخالق. في الأزمنة القريبة بدأ الاعتراض على تحكم القانون باهتمامات الإرادة - الحرة يقوى أكثر من الاعتقاد بالقانون الطبيعي بوصفه يقدم دليلاً على مانح القانون. لقد استخدم الماديون قوانين الفيزياء ليبينوا أو يحاولوا أن يبينوا، أن تحركات الأجسام البشرية تتم بصورة ميكانيكية، بالتالي فإن كل شيء نقوله وكل تغير في الوضع يمكن أن يحدث، إنما يقع خارج نطاق أي إرادة - حرة ممكنة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما يمكن أن يبقى لإرادتنا غير المقيدة هو ذو قيمة ضئيلة. فإذا كانت الحركات الجسدية المتعلقة بعمله، حين يكتب المرء قصيدة أو يرتكب جريمة، ناتجة فقط عن أسباب جسدية سيبدو من الحماقة أن تنصب له تمثالاً في الحالة الأولى أو تشنقه في الحالة الثانية. في بعض الأنظمة الميتافيزيقية يمكن أن يبقى هناك نطاق من التفكير المحض تكون فيه الإرادة حرة، لكن، بما أن ذلك يمكن إيصاله للآخرين عبر الحركة الجسدية فقط، فإن نطاق الحرية سيكون من النوع الذي لا يمكنه أبداً أن يكون خاضعاً للإيصال ولا يمكن أبداً أن يكون له أية أهمية اجتماعية.

إذن، مرة ثانية نقول إنه كان للتطور تأثير كبير على أولئك المسيحيين الذين تقبلوه. لقد رأوا أن ذلك لا يقدم الكثير من الادعاءات لصالح الإنسان مما يختلف كلياً عن ادعاءاته الأخرى لصالح الأشكال الأخرى من الحياة. لهذا، ولكي يضمنوا حرية - الإرادة لدى الإنسان، فقد عارضوا كل محاولة لشرح سلوك المادة الحية بمصطلحات القوانين الفيزيائية والكيميائية، أما موقف ديكارت القائل بأن الحيوانات الدنيا كلها أوتوماتيكية، فلم يعد يجد قبولاً لدى



حتى اللاهوتيين المتحررين. ذلك أن عقيدة الاستمرارية جعلتهم يميلون لأن يخطوا خطوة أبعد أيضاً وأن يدعوا القول: بأنه حتى ما يدعى بالمادة الميتة لا يحكم سلوكها حكماً صارماً قوانين ثابتة لا تتغير. فعلى ما يبدو، قد تجاوزوا حقيقة مفادها أنك إذا كنت ستلغي حكم القانون، عليك أيضاً أن تلغي إمكانية وجود المعجزات، نظراً لأن المعجزات هي من صنع الإله وحده وهي تتناقض مع القوانين التي تتحكم بالظواهر العادية، مع ذلك، فإن بإمكاني أن أتصور لاهوتياً متحرراً حديثاً يدعم بشيء من العمق أن الخلق كله أمر عجائبي بحيث لا يعود بحاجة لأن يتمسك ببعض الوقائع مثل الدليل الخاص على التدخل الإلهي.

لقد تمسك بعض الكتاب المدافعين عن المسيحية تحت تأثير رد الفعل هذا تجاه القانون الطبيعي، بآخر المعتقدات الخاصة بالذرة والتي تميل لتبيان، أن القوانين الفيزيائية التي اعتقدنا بها حتى الآن تمتلك حقيقة تقريبية ونسبية فقط حين تطبق على أعداد الذرات الكبيرة، بينما الاختيار الفرداني يسلك سلوكاً حسناً وكما يشتهي. إنني أعتقد أن هذا هو طور مؤقت وأن الفيزيائيين سيكتشفون مع الزمن قوانين تتحكم بأدق الظواهر، رغم أن هذه القوانين قد تختلف كثيراً عن قوانين الفيزياء التقليدية. وأياً كان ذلك، فإنه يستحق منا أن نلاحظ أن المعتقدات الحديثة فيما يتعلق بالظواهر الدقيقة لا تعتمد على أي شيء ذي أهمية عملية. فالحركات المرئية، وبالحقيقة كل الحركات التي تُحدث أي فرق لأي شخص، تتعلق بالأعداد الكبيرة للذرات التي تدخل ضمن نطاق القوانين القديمة فكتابة قصيدة أو ارتكاب جرم (بالرجوع إلى مثالنا السابق) هو فعل يقتضي منا أن نحرك قدراً ذا قيمة من الحبر أو الرصاص والإلكترونات التي يتشكل



منها الحبر قد تكون متراقصة بحرية في فراغ كرتها الضئيل لكن كرتها ككل تتحرك وفقاً لقوانين الفيزياء القديمة وهذا وحده هو ما يعني الشاعر وناشره. لذلك، لا تعتمد المعتقدات الحديثة اعتماداً ذا قيمة على أي من مشاكل المصلحة البشرية هذه التي يعنى بها اللاهوتيون.

نتيجة ذلك، تبقى مسألة الإرادة الحرة حيث كانت. لكن مهما يكن تفكير الناس حولها كمسألة ميتافيزيق نهائية، فمن الواضح تماماً أنه ما من أحد يؤمن بها عملياً. لقد كان الجميع يؤمنون دائماً أن بالإمكان تدريب الشخصية، كما كان الجميع يعلمون أن الكحول أو الأفيون ذو تأثير معين على السلوك. والكاتب المؤيد للإرادة الحرة يؤيد أن الإنسان يمكنه بالإرادة الحرة أن يتجنب بلوغه مرحلة السكر لكنه لا يؤيد أنه عندما يسكر لا يمكن لهذا الإنسان أن يقول عن «دستور بريطاني» بالوضوح ذاته كما لو أنه صاح. وكل من اضطر في يوم من الأيام للتعامل مع الأطفال يعلم أن «نظاماً غذائياً مناسباً» قد يجعلهم أكثر تمسكاً بالفضيلة من كل مواعظ العالم. إن التأثير الوحيد الذي كان لمذهب الإرادة - الحرة عملياً هو منعه الناس من تتبع معرفة فطرية كهذه حتى استنتاجاتها العقلانية، حين يعمل الإنسان بطرق تزعجنا، نميل لأن نفكر بأنه رديء ونرفض أن نواجه الحقيقة، بأن سلوكه المزعج هو نتاج أسباب مسبقة إن تتبعتها بما يكفي ستعود بك إلى ما وراء لحظة وقوع الإزعاج وبالتالي إلى وقائع قد لا يكون هو مسؤولاً عنها بأي شكل من أشكال التصور.

ما من إنسان يتعامل مع سيارة بالحماقة التي يتعامل بها مع كائن بشري آخر. فحين ترفض السيارة أن تسير، لا يعزو الإنسان سلوكها المزعج للإثم، أي هو لا يقول، «أنت سيارة رديئة فاسدة، وأنا لن أزودك بالبنزين إلى أن تسيري»، بل هو يحاول أن يكتشف سبب العطل



وأن يصلح السيارة، لكن الطريقة المماثلة للتعامل مع كائن بشري تعتبر مناقضة لحقائق ديننا المقدس. وهذا ينطبق حتى على التعامل مع الأطفال الصغار. فكثير من الأطفال لهم عادات تترسخ نتيجة العقاب لكن ربما كانت ستنتهي من تلقاء ذاتها لو تركت دون أن يلاحظها أحد. مع ذلك، تعتبر المربيات مع قليل من الاستثناء، أن من الصواب إيقاع العقاب بالطفل، رغم أنهن، بفعلهن ذلك، يواجهن خطر إصابتهم، بالجنون. وحين يحدث هذا، يقال في المحاكم القانونية إن ذلك برهان على ضرر العادة وليس العقوبة (إنني أشير هنا إلى اضطهاد جرى مؤخراً بسبب كلام بذيء في ولاية نيويورك).

لقد حصلت الإصلاحات في التعليم، إلى حد كبير جداً من خلال دراسة المجانين وضعاف العقول، لأنهم لم يعتبروا مسؤولين أخلاقياً عن إخفاقاتهم، لذلك عوملوا بصورة علمية أكثر من الأطفال العاديين. لقد كان يعتقد، حتى وقت قريب أنه إذا لم يستطع الطفل أن يتعلم دروسه، فإن العلاج الناجع هو ضربه بالعصا أو السوط. هذه النظرة انقرضت تقريباً في معاملة الأطفال لكنها ما تزال باقية في قانون الجرائم. إن من الواضح أن الإنسان الذي لديه استعداد للإجرام يجب إيقافه، وهذا ما يجب فعله أيضاً تجاه الإنسان المصاب بداء الكلب ويريد أن يعض الناس. رغم أنه ما من أحد يعتبره مسؤولاً أخلاقياً. كذلك فإن الإنسان الذي يعاني من داء معدٍ، ينبغي أن يحجر عليه إلى أن يشفى، رغم أنه ما من أحد يعتبره رديئاً فاسداً. الأمر ذاته يمكن أن ينطبق على إنسان يعاني من نزعة ارتكاب التزوير، لكن يجب ألا تكون هناك أية فكرة أخرى عن الإثم في هذه الحالة أكثر مما هي في الحالة الأخرى. هذا هو الإحساس الفطري، على الرغم من أنه شكل من أشكال الإحساس الفطري الذي تعارضه الأخلاق والميتافيزيقيا المسيحية.



لكي نحكم على التأثير الأخلاقي لأي مؤسسة على جماعة سكانية، علينا أن نتأمل نوع الدافع الذي يتجسد في المؤسسة والدرجة التي تزيد فيها المؤسسة من فعالية وتأثير الدافع لدى تلك الجماعة. أحياناً، يكون الدافع المعني واضحاً تماماً لكن في أحيان أخرى يكون أقل وضوحاً. مثال على ذلك، نادٍ رياضي يجسد بكل وضوح دافع المغامرة، وهيئة متعلمين تجسد دافع المعرفة. كذلك فإن العائلة كمؤسسة تجسد الرعاية والمشاعر العائلية، فيما نادي كرة قدم أو حزب سياسي يجسد الدافع للعب التنافسي، لكن المؤسستين الاجتماعيتين الكبيرتين - أي بالتحديد الدولة والكنيسة - هما أكثر تعقيداً في دوافعهما السيكولوجية. فالهدف الأساسي للدولة هو بكل وضوح الأمن، حماية المجتمع من المجرمين والأعداء الخارجيين على حد سواء وإنه لمتأصل لدى الأطفال ميلهم للتجمع معاً حين يكون هناك ما يخيفهم. أن يبحثوا عن شخص بالغ يوفر لهم الإحساس بالأمان. للكنيسة أصول أكثر تعقيداً، فمما لا شك فيه أن المنبع الأهم للدين هو الخوف. هذا يمكن رؤيته في الوقت الحاضر، نظراً لأن أي شيء يسبب الخوف حري بأن يجعل الناس يفكرون بالإله. معركة، طاعون، تحطم سفينة، كلها تميل لأن تجعل الناس متدينين، لكن للدين فتناً أخرى إلى جانب فتنة الخوف. إنه يفتن على وجه الخصوص تقديرنا لذاتنا كبشر. فالبشر، إذا صدقت المسيحية، ليسوا ديداناً تثير الشفقة، كما يبدو أنهم هم. إنهم ذوو أهمية لخالق الكون الذي يكون مسروراً منهم حين يحسنون التصرف وينزعج حين يسيئون التصرف. هذا إطراء عظيم وعلينا ألا نفكر بتفحص وكر النمل كي نكتشف أن نملة قامت بواجبها المحدد مسبقاً، كما علينا بالتأكيد ألا نفكر بالتقاط تلك النمال المهملة ونلقيها في نار تشتعل في الهواء الطلق. وإذا كان الإله يفعل ذلك بنا، فإن ذلك يعني أننا مهمون



وسيكون إطراء لنا أكثر مدعاة للسرور، إذا كان يكافئ الجيدين منا بالسعادة الأبدية في الفردوس. إذن هناك فكرة حديثة نسبياً أن التطور الكوني مصمم كله لإحداث نوع من النتائج التي ندعوها خيراً - أي: نوع من النتائج التي تمنحنا السرور، هنا أيضاً، يطرينا أن نفترض أن الكون يتحكم به كائن يشاركنا ذوقنا وأهواءنا.

فكرة الحق والصواب

الدافع السيكولوجي الثالث الذي يتجسد في الدين هو الدافع الذي أدى إلى مفهوم الحق والصواب. إنني أدرك أن الكثيرين من ذوي التفكير الحر يعالجون هذا المفهوم بكثير من الاحترام ويؤمنون أنه يجب الحفاظ عليه رغم فساد الدين كعقيدة، لكنني لا أوافقهم في هذه النقطة. إن التحليل السيكولوجي لفكرة الصواب تبدو لي وكأنها تبين أنها متجذرة في العواطف غير المرغوب بها وينبغي عدم ترسيخها برخصة من المنطق. ذلك أنه ينبغي تناول الصواب وعدم الصواب معاً، إذ من المستحيل التأكيد على أحدهما دون التأكيد على الآخر أيضاً. الآن، ما هو «عدم الصواب» عملياً؟ إنه ممارسة لسلوك من النوع الذي تكرهه الجماعة. وبدعوته عدم صواب، كذلك بترتيب منظومة أخلاقية معقدة حول هذا المفهوم، فإن الجماعة تبرر لنفسها إيقاع العقوبة والانتقام بأناس هم موضوع كراهيتهم، في الوقت ذاته ونظراً لأن الجماعة على صواب تحديداً، فإن ذلك يعزز من تقديرها - لذاتها، في اللحظة التي يرخي فيها العنان لدافع القسوة لديها. هذه هي سيكلوجيا إعدام الناس دون محاكمة، والأساليب الأخرى التي يعاقب فيها المجرمون. لهذا، فإن جوهر مفهوم الصواب والحق وفر منفذاً للسادية بإخفاء القسوة تحت عباءة العدالة.



لكن يمكن القول إن الوصف الذي تقدم للصواب غير قابل للتطبيق بتاتاً على الأنبياء العبرانيين الذين اخترعوا الفكرة أساساً. ثمة حقيقة، في هذا: فالصواب لدى أنبياء اليهود كان يعني ما يوافقون عليه هم وإلههم يهوا. الموقف ذاته يجد المرء التعبير عنه في فصول الأناجيل، حيث بدأت هذه بالكلمات التالية: «لأنه بدا جيداً للروح القدس ولنا»: (فصل 15، 28) لكن هذا النوع من اليقين المفرد فيما يتعلق بذوق الإله وآرائه يمكن جعله الأساس لأية مؤسسة. تلك كانت دائماً الصعوبة التي كان على البروتستانتية أن تواجهها: أي وجود نبي جديد يمكن أن يؤكد أن وحيه كان أكثر صواباً وصحة من وحي سابقيه، وفي النظرية العامة للبروتسانتية، لم يكن هناك شيء يبين أن هذا الزعم كان غير صحيح. نتيجة ذلك انشقت البروتستانتية إلى طوائف لا تعد مضعفة بذلك بعضها بعضاً. ولدينا من الأسباب ما يدعونا لأن نفترض أنه بعد مائة سنة من الآن ستكون الكاثوليكية هي الممثل الوحيد الفعال للإيمان المسيحي. ففي الكنيسة الكاثوليكية، الوحي كما تلقاه الأنبياء له مكانته، لكنهم يدركون أن الظواهر التي تبدو نوعاً ما وكأنها وحي إلهي خالص قد تكون من وحي إبليس، وعلى الكنيسة أن تميز بين الإثنين، فهو شغلها تماماً كما أنه شغل خبير فني أن يميز لوحة ما من أنها لوحة لليوناردو دافنتشي أم أنها مزيفة. بهذه الطريقة، تضفى الصبغة المؤسساتية على الوحي في الآن ذاته. فالصواب هو ما توافق عليه الكنيسة وعدم الصواب هو ما ترفضه، بذلك فإن الجزء الفعال من مفهوم الصواب هو تبرير لكراهية الجماعة الفطرية.

لذلك يبدو أن الحوافز البشرية الثلاثة المجسدة في الدين هي: الخوف، الوهم والكراهية، وهدف الدين، كما يمكن للمرء أن



يقول، هو أن يضفي هالة من الاحترام على تلك العواطف، شريطة أن تظل ضمن قنوات معينة. ولأن هذه العواطف، بالإجمال، تصنع الكثير من البؤس البشري يمكننا القول إن الدين قوة شر، نظراً لأنه يسمح للناس بأن يغرقوا في هذه العواطف دون كابح أو حد.

يمكنني عند هذه النقطة أن أتصور اعتراضاً من غير المحتمل مناقشته، ربما، من قبل معظم المؤمنين الأتقياء، لكنه مع ذلك جدير بالتمحيص. فالحزن والكراهية، كما يمكن القول، صفتان أساسيتان خاصتان بالبشر الذين كانوا يشعرون بهما ولسوف يظلون. والطريقة الأفضل للتعامل معهما، كما يمكن أن يقال لي، هي توجيههما باتجاه قنوات مدنية يمكن أن يكونا فيها أقل ضرراً من قنوات معينة أخرى. فاللاهوتي المسيحي يمكن أن يقول إن معالجة الكنيسة لهما تماثل معالجتها لدافع الجنس الذي تدينه وتشجبه. إنها تحاول أن تجعل الشهوة الجنسية غير ضارة بحصرها ضمن حدود الزوجية. وهكذا، يمكن القول، إذا كان لا بد للجنس البشري من أن يشعر بالكراهية، فمن الأفضل توجيه ذلك الشعور باتجاه أولئك الذين يكونون مؤذين فعلاً، وذلك بالضبط ما تفعله الكنيسة بمفهوم الصواب.

على هذا الرأي موضع الجدل، ثمة جوابان - أحدهما سطحي نسبياً، والآخر يغوص إلى جذر المسألة. الجواب السطحي هو أن مفهوم الكنيسة عن الصواب ليس أفضل الممكن والجواب العميق هو أن الخوف والكراهية يمكن، بمعارفنا الحالية في مجال علم النفس وما حققناه من تقدم تقني صناعي، إزالتهما كلياً من الحياة البشرية. لنأخذ النقطة الأولى بادئ ذي بدء. إن مفهوم الكنيسة عن الصواب مفهوم غير مرغوب فيه اجتماعياً بالعديد من الطرق، أولها وفي رأسها الانتقاص من قدر الفكر والعلم. هذا العيب موروث من الأناجيل. إذ



يقول لنا المسيح أن نصبح مثل الأطفال الصغار، لكن الأطفال الصغار لا يستطيعون أن يفهموا الحساب التفاضلي أو مبادئ التداول النقدي أو المبادئ الحديثة في مكافحة الأمراض. واكتساب معرفة كهذه ليس جزءاً من واجبنا طبقاً لتعاليم الكنيسة، وهذه لم تعد تجادل بأن المعرفة إثم بحد ذاتها، مع أنها كانت كذلك في أيام عزها، لكن اكتساب المعرفة، حتى وإن يكن غير إثم، هو عمل خطر، نظراً لأنه يمكن أن يؤدي إلى زهو الفكر وبالتالي إلى التساؤل والتمحيص حول العقيدة المسيحية. لنأخذ، مثلاً، رجلين، أحدهما قضى على الحمى الصفراء في منطقة واسعة من المناطق المدارية، لكنه خلال عمله، كان على صلة مع نساء لم يكن زوجاً لهن، فيما كان الآخر كسولاً، عديم الحركة، ينجب طفلاً كل سنة إلى أن ماتت زوجته من الإنهاك، ولا يهتم كثيراً بأطفاله إلى أن قضى نصفهم نحبه لأسباب قابلة للمنع، لكنه لم ينغمس في أي علاقة جنسية غير شرعية. كل مسيحي متدين لا بد أن يدعم القول بأن الرجل الثاني من هذين الرجلين هو الرجل الفاضل وليس الأول. مثل هذا الموقف، بالطبع، خرافي ومناقض تماماً للمنطق والعقل. مع ذلك ثمة شيء من الحماقة لا مناص منه، طالما أن التفكير ينصب على أن تجنب الإثم أكثر أهمية من الجدارة الموضوعية وطالما أن لا أحد يعترف بأهمية المعرفة باعتبارها عوناً مساعداً ونافعاً في الحياة. الاعتراض الثاني والأكثر أساسية على استخدام الخوف والكراهية من قبل الكنيسة لمنافعها الخاصة هو أنه من الممكن الآن القضاء كلياً تقريباً على هذه العواطف وإزالتها من الطبيعة البشرية بالإصلاحات السياسية والاقتصادية والتربوية. هذه الأخرى يجب أن تكون الأساس، نظراً لأن الناس الذين يشعرون بالكراهية والخوف يعجبون أيضاً بهذه المشاعر ويرغبون في



استمرارها على الرغم من أن هذا الإعجاب والرغبة قد يكونان باللاوعي، كما هو الأمر لدى المسيحي العادي. والتربية المصممة للقضاء على الخوف ليس من الصعب إيجادها بتاتاً. إذ من الضروري أن نعامل الطفل بكل لطف، وأن نضعه في بيئة، حيث المبادرة ممكنة دون أن يكون لها نتائج كارثية وأن نوفر عليه التماس مع بالغين ذوي أخطاء لا عقلانية وأن لا نخيفه من الظلام أو الفئران أو الثورة الاجتماعية. كذلك، ينبغي عدم إخضاع الطفل للعقاب القاسي أو التهديد أو التوبيخ المفرط والشديد، لكن أن ننقذ الطفل من الشعور بالكراهية أمر أكثر تعقيداً نوعاً ما على أنه ينبغي تجنيبه المواقف المثيرة للحسد والغيرة بكثير من العناية والحرص وذلك من خلال تحقيق عدالة صحيحة ودقيقة بين مختلف الأطفال. كما ينبغي أن يشعر الطفل بأنه موضع ود وحميمية من جهة بعض من يتعامل معهم على الأقل. وينبغي عدم معارضة أنشطته أو حب استطلاعه إلا عندما يتعلق الأمر بخطر يهدد حياته أو صحته. وبصورة خاصة، ينبغي ألا يكون هناك حظر على المعرفة الجنسية أو الحوار حول مسائل يعتبرها الناس التقليديون غير لائقة. هذه المسائل البسيطة، إن تمت مراعاتها منذ البداية فإن الطفل سيصبح ودياً خلواً من الخوف.

لكن لدى دخوله حياة البلوغ، فإن اليافع المنشأ على هذه الشاكلة سيجد نفسه (أو نفسها) غارقاً في عالم كله ظلم وقسوة وبؤس كان يمكن منعها. فالظلم والقسوة والبأساء الموجودة في العالم المعاصر هي إرث من الماضي ومصدرها الأساسي اقتصادي، نظراً لأن التنافس حتى درجة الموت على وسائل العيش كان في الأيام السابقة حتمياً ولا مناص منه، لكن ليس هو حتمياً ولا مناص منه في أيامنا هذه. إذ باستطاعتنا، إن اخترنا، أن نؤمن بما حققناه من



تقنية صناعية راهنة، العيش الكريم للجميع، كما يمكننا أن نضمن أن سكان العالم سيكونون مستقرين، إن لم يحل بيننا وبين ذلك النفوذ السياسي للكنيسة التي تفضل الحرب والأوبئة والمجاعة على منع الحمل. إن المعرفة التي يمكن بها ضمان سعادة البشر موجودة. والعائق الوحيد للانتفاع بها لذلك الغرض إنما هو تعاليم الدين. فالدين يمنع أطفالنا من الحصول على تربية عقلانية، والدين يمنعنا من إزالة الأسباب الأساسية للحرب والدين يمنعنا من تلقين أخلاق التعاون العلمي بدلاً من العقائد الشرسة القديمة للإثم والعقاب. من المحتمل أن الجنس البشري على عتبة عصر ذهبي، وإذا كان الأمر كذلك من الضروري أولاً أن نذبح التنين الذي يحرس الباب، ألا وهو الدين.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثالث

ما أؤمن به

نشرت هذه المقالة ككتيب صغير سنة 1925. وقد كتب رسـل في مقدمتها: «لقد حاولت أن أقـول مـا أفكـر بـه عـن مكانـة الإنـسان في الكون وعن إمكاناته في تحقيق حياة صـالحة... إن بإمكاننـا أن نـرى، في الـشؤون البـشرية، أن هنـاك قـوى تعمـل للـسعادة وقـوى تعمـل للبأساء، ولا ندري لأيهما ستكون الغلبة لكن لكي نعمل بحكمة علينا أن نكون واعين لهما كلتيهما. في إجراءات المحكمة التي انعقـدت في نيويورك سنة 1948. كان هذا الكتيب واحداً من الأدلـة المقدمـة علـى أن رسل غير مناسب للتدريس في كلية المدينة. كما أن مقتبـسات منـه نشرت على نطاق واسع في الصحافة، وبطريقة يقصد بها عادة إعطـاء انطباع زائف تماماً عن نظرات رسل».

1ـ الطبيعة والإنسان

الإنـسان جزء من الطبيعة وليس شيئاً يتناقض مع الطبيعـة. أفكـاره وحركات جسده تتبع القوانين ذاتها التي تنطبق علـى حركـات النجـوم والذرات. إن العالم الطبيعي كبير مقارنة بالإنسان، أكبر مما كـان يظـن أيام دانتي لكنه ليس بالكبر الذي كانوا يظنونه، كمـا يبـدو، قبـل مائـة عام. إن العلم، سواء فيما يتعلق بالأشياء العلوية أو الـسفلية، الكـبيرة أو الصغيرة يبلغ الحدود علـى مـا يبـدو، والظـن أن الكـون ذو مـدى محـدود فـضائياً، وأن الـضوء يمكـن أن يطـوف حولـه بـبضع مئـات الملايـين مـن الـسنين. كمـا يظـن أن المـادة تتكـون مـن إلكترونـات



وبروتونات هي ذات حجم محدود وعدد محدود في العالم. ربما تغيراتها ليست متواصلة، كما كان يظن عادة، لكنها تتقدم بحركات ليست أصغر من حركة معينة في حدها الأدنى. على أن بالإمكان اختصار قوانين هذه التغيرات، بكل وضوح، بعدد ضئيل من المبادئ العامة جداً، التي تبت بماضي ومستقبل العالم حين يُعرف أي جزء صغير من تاريخه. هكذا وصل العلم الفيزيائي إلى المرحلة التي تقارب الاكتمال ولذلك هو غير مثير للاهتمام. إذ انطلاقاً من القوانين التي تحكم حركات الإلكترونات والبروتونات البقية، هي مجرد جغرافية - أي مجموعة من الحقائق الخاصة تتحدث عن إسهامها في جزء ما من تاريخ العالم. والعدد الكلي لحقائق الجغرافية التي نحتاجها للبت بتاريخ العالم هو عدد محدود، أي نظرياً يمكن أن تدون كلها في كتاب كبير يحفظ في بيت سومرست مع آلة حاسبة تليق به والتي، بإدارة مقبضها، يتمكن السائل من اكتشاف حقائق في أزمان أخرى غير تلك المسجلة. وإنه لمن الصعب أن نتصور أي شيء أقل إثارة للاهتمام أو أكثر اختلافاً من المباهج العاطفية لاكتشاف نقص. إنه أشبه بتسلق جبل عالٍ ثم عدم إيجاد شيء في القمة سوى مطعم يبيعون فيه الجعة ويلفه الضباب لكنه مجهز بلاسلكي. ربما في أيام أحمس، كان جدول الضرب مثيراً للاهتمام أكثر.

في هذا العالم الطبيعي، غير المهم بحد ذاته، الإنسان جزء منه وجسده، ككل مادة أخرى، يتكون من إلكترونات وبروتونات تخضع، على حد علمنا، للقوانين ذاتها التي تخضع لها تلك التي تشكل جزءاً من الحيوانات أو النباتات. ثمة من يقول بأن الفيزيولوجيا لا يمكن اختصارها إلى مجرد فيزياء لكن حججهم ليست مقنعة كثيراً ويبدو من الحكمة أن نفترض أنهم مخطئون. فما ندعوه «بأفكار» ما يبدو أنه يعتمد على تنظيم مسارات في الدماغ بالطريقة ذاتها التي تعتمد فيها



الرحلات على الطرق والسكك الحديدية كما أن الطاقة المستخدمة في التفكير ذات منشأ كيمياوي على ما يبدو. مثال على ذلك، نقص اليود يحول الإنسان الذكي إلى معتوه. كما أن الظواهر الذهنية، ترتبط، على ما يبدو، بالبنية الجسدية وإذا كان الأمر كذلك، لا يمكننا أن نفترض أن إلكتروناً أو بروتوناً بمفرده يمكنه أن «يفكر» إلا بقدر ما يتوقع أن يلعب شخص بمفرده مباراة بكرة القدم. كذلك لا يمكننا أن نفترض أن تفكير إنسان ما يمكن أن يبقى بعد موته. نظراً لأن الموت يدمر منظومة الدماغ ويقضي على الطاقة التي تنتفع بها مسارات الدماغ.

لا يجد الإله والخلود، وهما المعتقدان المركزيان للديانة المسيحية، أي دعم من قبل العلم، ولا يمكن القول إن أياً منهما غير موجود في البوذية (بالنسبة إلى الخلود، هذا الشكل من القول يمكن أن يكون مضللاً لكنه صحيح في نهاية المطاف). لكننا في الغرب توصلنا إلى أن نفكر بأن ذلك هو الحد الأدنى غير القابل للاختزال في علم اللاهوت، ولا شك أن الناس سيستمرون في اعتناق هذه المعتقدات، لأنها سارة تماماً كما هو سار أن نفكر بأننا نحن الفاضلون الخيرون وأعداءنا هم الأشرار. لكن، من جهتي، لا أستطيع أن أرى أساساً لأي منهما. وأنا لا أزعم أنني قادر على إثبات أنه لا يوجد إله. كذلك لا يمكنني أن أثبت أن الشيطان هو مجرد تخيل. فقد يكون الإله المسيحي موجوداً، كما يمكن أن تكون آلهة الأولمب أو آلهة مصر القديمة أو بابل موجودة. لكن ما من افتراض من هذه الافتراضات محتمل أكثر من أي افتراض آخر. إنها تقع خارج نطاق حتى المعرفة المعقولة، لهذا ما من داعٍ لأن نضع أياً منها موضع الاعتبار. لكنني لن أتوسع في هذه المسألة نظراً لأنني فعلت ذلك في مكان آخر[1].

---

(1) انظر كتابي: «فلسفة لايبنتز» الفصل 15.



بيد أن مسألة خلود الفرد تقوم على أساس مختلف بشكل من الأشكال، هنا الأدلة على أي من الطريقين ممكنة. فالأشخاص جزء من العالم اليومي الذي يعنى به العلم والشروط التي تبت بوجودهم غير قابلة للاكتشاف. قطرة الماء ليست جامدة ويمكن تحليلها إلى أكسجين وهدروجين، لهذا إذا كان على قطرة الماء أن تدعم أن لها ماهية الماء التي سيبقى بعد تحللها، فإننا سنميل للارتياب في ذلك. بالإسلوب ذاته، نحن نعلم أن الدماغ ليس خالداً أو أن الطاقة المنظمة للجسد الحي تتحلل، إن جاز القول، عند الموت، لهذا تكون غير متاحة لعملية الجمع من جديد. كما تبين الأدلة كافة أن ما نعتبره حياة ذهنية هو مرتبط ببنية الدماغ والطاقة المنظمة جسدياً. لذلك، من المعقول أن نفترض أن الحياة الذهنية تتوقف عندما يتوقف الجسد عن الحياة. الحجة ذات احتمالية واحدة فقط لكنها بقوة تلك الحجج التي تقوم عليها معظم الاستنتاجات. العلمية مع ذلك، ثمة أسس عديدة يمكن مهاجمة هذا الاستنتاج انطلاقاً منها. فالبحث في الخوارق والروحانيات يعمل على إيجاد أدلة علمية عملية على الخلود ولا شك أن الإجراءات التي يتخذها هي، من حيث المبدأ صحيحة علمياً. مثل هذه الأدلة يمكن أن تكون مفحمة بحيث لا يستطيع أحد ذو عقل علمي أن يرفضها.

لكن الوزن الذي يعطى لهذه الأدلة يجب أن يتوقف على الاحتمالية المسببة لفرضية البقاء، ثمة دائماً طرق مختلفة لتعليل أي مجموعة من الظواهر، من هذه، يمكننا أن نفضل الطريقة الأقل معقولية مسبقاً. فأولئك الذين يفكرون مسبقاً أن من المحتمل أن نبقى بعد الموت سيكونون جاهزين لأن يروا إلى هذه النظرية على أنها أفضل تفسير للظواهر الخارقة للطبيعة. وعلى أسس أخرى فإن أولئك



الذين يعتبرون هذه النظرية غير مقبولة سيبحثون عن تفسيرات أخرى. من جهتي، أنا أرى أن الأدلة المقدمة من قبل علم نفس الخوارق لصالح البقاء أضعف بكثير من الأدلة الفزيولوجية التي يقدمها الجانب الآخر لكنني أقر تماماً بأنها يمكن أن تصبح أقوى في أية لحظة، وفي تلك الحالة سيكون من غير العلمي عدم الإيمان بالبقاء. غير أن البقاء بعد موت الجسد مسألة مختلفة عن الخلود، إذ يمكن أن يعني فقط تأجيل الموت النفسي، إنه الخلود الذي يرغب الناس في الإيمان به، والمؤمنون بالخلود سيعترضون على الحجج الفيزيولوجية، كما استخدمتها، على أسس أن الروح والجسد غير قابلين للانفصال كلياً وأن الروح شيء ما مختلف تماماً عن تجلياته التجريبية في أعضائنا الجسدية. أنا أعتقد أن هذا نوع من الأساطير الميتافيزيقية فالعقل والجسد هما على حد سواء، ولأغراض معينة، مصطلحان ملائمان للاستخدام، لكنهما ليسا حقيقتين نهائيتين. الإلكترونات والبروتونات هي، مثل الروح، تخيلات منطقية كل منها هو فعلاً تاريخ، سلسلة من الوقائع وليست كينونة مستمرة مفردة. في حالة الروح، هذا واضح من حقائق النمو. فمن يتأمل مسألة الإخصاب والحبل والطفولة لا يمكن أن يؤمن جدياً بأن الروح في أي شيء غير قابل للانقسام، هي كاملة وتامة خلال هذه العملية. إذ من الواضح أنها تنمو مثل الجسد، وأنهما كليهما مستمدان من الحيوان المنوي والبويضة، بحيث أنها لا يمكن أن تكون قابلة للانقسام. هذه ليست نظرية مادية، إنها مجرد اعتراف بأن المهم هو مسألة التنظيم وليس المادة الأولية.

لقد قدم الميتافيزيقيون حججاً لا عد لها ولا حصر لكي يبرهنوا على أن الروح لا بد من أن تكون خالدة، لكن، ثمة اختبار واحد بسيط يمكنه أن يدحض كل تلك الحجج كما أنها كلها تبرهن على أن الروح



لا بد أن تنتشر في كل الفضاء، لكن مثلما لا نتوق لأن نعيش طويلاً، فإنه ما من أحد من الميتافيزيقيين قيد المسألة لاحظ يوماً هذا التطبيق لمحاكماتهم المنطقية، وما هذا إلا مثال عن القوة المدهشة للرغبة في أن يتعامى حتى الرجال القادرون جداً على الإتيان بمغالطات يمكن في الحالة الأخرى أن تكون واضحة في الحال. فلو لم نكن نخاف الموت، إذن ما كنا لنعتقد أن فكرة الخلود قد ظهرت يوماً.

إن الخوف هو أساس العقيدة الدينية، كما هو أساس أشياء أخرى كثيرة في حياة البشر. فالخوف من الكائنات البشرية، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي، يهيمن على الكثير من حياتنا الاجتماعية، إلا أن الخوف من الطبيعة هو الذي يدعم صعود الدين، فالتضاد بين العقل والجسد كما سبق ورأينا، هو وهمي تقريباً، لكن، ثمة تضاد آخر أكثر أهمية - أي بالتحديد التضاد بين الأشياء التي يمكن أن تتأثر برغباتنا والأشياء التي لا تتأثر. إن الخط الفاصل بين الاثنين لا هو حاد ولا هو ثابت غير قابل للتغير - فمع تقدم العلم، المزيد والمزيد من الأشياء ستوضع تحت سيطرة الإنسان. مع ذلك تبقى هنالك أشياء بشكل محدد في الجانب الآخر. من بين هذه الأشياء، حقائق عالمنا الكبرى كلها، ذلك النوع من الحقائق التي يتعامل معه علم الفلك، إنها الحقائق الوحيدة على سطح الأرض أو قربها، التي يمكن، إلى حد ما، أن نشكلها بما يناسب رغباتنا، بل حتى على سطح الأرض، قوانا محدودة جداً. وفوق كل شيء، ليس بإمكاننا أن نمنع الموت، رغم أننا يمكن أحياناً أن نؤخره.

إن الدين هو محاولة للتغلب على هذا التضاد. فإذا كان العالم محكوماً من قبل الإله، وكان بالإمكان تحريك عواطف الإله بالصلاة له، إذن ستكون لنا حصة في صفة الإله كلي القوة. لقد كانت



المعجزات، أيام زمان تحدث استجابة لصلاة، وهي ما زالت كذلك لدى الكنيسة الكاثوليكية، لكن البروتستانت فقدوا هذه المقدرة. مع ذلك، من الممكن صرف النظر عن المعجزات، طالما أن العناية الإلهية سنت أن عمل القوانين الطبيعية سيؤدي إلى أفضل النتائج الممكنة. كذلك مازال الإيمان بالإله يفيد في إضفاء الصبغة الإنسانية على عالم الطبيعة وفي جعل الناس يشعرون أن القوى الطبيعية هي بالفعل حليفة لهم وبأسلوب مشابه، يزيل الخلود الخوف من الموت، فالناس الذين يؤمنون أنهم عندما يموتون سيلقون النعيم الأبدي، قد يواجهون الموت دون خوف رغم أنه، لحسن حظ رجال الطب، هذا لا يحدث دائماً. لكنه مع ذلك يخفف من مخاوف الناس بشكل ما رغم أنه لا يزيلها كلياً.

ونظراً لأن منبع الدين أساساً هو الرعب فقد بجّل أنواعاً معينة من الخوف وجعل الناس يفكرون أنها غير معيبة، وفي هذا قدم للجنس البشري ضرراً بالغاً: فكل خوف سيء. أنا أعتقد أنني عندما أموت لن يبقى شيء مني أنا ذاتي. صحيح أنني لست شاباً لكنني أحب الحياة. مع ذلك أحتقر نفسي إن ارتعشت خوفاً من فكرة العدم. فيما السعادة لن تكون أقل حقيقية لأنها لا بد من أن تصل إلى نهاية، كذلك لا الحب ولا الفكر يفقدان قيمتهما لأنهما ليسا دائمين. إن الكثير من الرجال صعدوا إلى المشنقة وهم رافعو الرؤوس، وبالتأكيد هذا الكبرياء ذاته يجب أن يعلمنا أن نفكر بشكل صحيح حول مكانة الإنسان في العالم بل حتى إن كانت النوافذ المفتوحة للعلم تجعلنا، في البداية، نرتعش على أثر الدفء الداخلي الحميم للأساطير التقليدية ذات الصبغة الإنسانية، فإن الهواء الطلق، في النهاية، سيأتي لنا بالانتعاش والقوة. كما أن للفضاءات الواسعة سحرها الخاص.



إن فلسفة الطبيعة شيء وفلسفة القيمة شيء آخر تماماً، ولا شيء غير الأذى يمكن أن ينجم عن الخلط بينهما. فما نظن أنه جيد وما نحب لا تأثير له أياً كان على ما هو كائن، وهي المسألة الأساسية لفلسفة الطبيعة. من جهة أخرى، لا يمكن منعنا من تقييم هذا أو ذاك انطلاقاً من أن العالم غير البشري لا يقيمه، كما لا يمكن إلزامنا بأن نعجب بأي شيء، لأنه «قانون طبيعة». نحن جزء من الطبيعة ولا شك، الطبيعة التي أنتجت رغائبنا، آمالنا ومخاوفنا، بالاتساق مع القوانين التي بدأ عالم الفيزياء اكتشافها. بهذا المعنى نحن جزء من الطبيعة، تابعون لها، كما أننا نتاج لقوانين الطبيعة وضحاياها في نهاية المطاف.

بيد أن فلسفة الطبيعة لا ينبغي أن تكون أرضية بصورة غير مناسبة - لأنها، أي الأرض مجرد كوكب من الكواكب الصغرى لنجم من أصغر نجوم درب التبانة. ولسوف يكون من المضحك أن نحرف فلسفة الطبيعة لكي نستنتج نتائج ترضي طفيليات بالغة الصغر في هذا الكوكب التافه.

تبين الحيوية، كفلسفة، وكذلك التطورية، الافتقاد في هذا المجال للإحساس بالنسبة والتناسب والترابط المنطقي. إنها تنظر إلى حقائق الحياة المثيرة للاهتمام، على صعيدنا الشخصي، باعتبار أن لها أهمية كونية، لا أهمية تنحصر بسطح الأرض، والتفاؤل والتشاؤم كفلسفتين كونيتين تتكشفان عن النزعة الإنسانية الساذجة ذاتها، فالعالم الكبير، كما عرفناه حتى الآن من فلسفة الطبيعة. لا هو خيّر ولا هو شرير كما أنه غير معني البتة بأن يجعلنا سعداء أو أشقياء. كل هذه الفلسفات تنبع من شعورنا بأهمية الذات ومن الأفضل تصحيحها بقليل من علم الفلك. لكن في فلسفة القيمة، الوضع ينعكس إذ تكون الطبيعة مجرد جزء مما يمكن أن نتصور، وكل شيء حقيقي أو



مجازي، يمكن أن يتم تقييمه من قبلنا وليس هناك معيار خارجي يبين أن تقييمنا خاطئ. فنحن وحدنا المقيّمون النهائيون الذين لا راد لما يضعونه من قيمة. في عالم القيمة، الطبيعة هي جزء فقط. وهكذا في هذا العالم نكون نحن أكبر من الطبيعة كما أن الطبيعة بحد ذاتها حيادية، لا خيرة ولا شريرة. كذلك هي لا تستحق منا الإعجاب ولا النقد. إننا نحن الذين نبدع القيمة ورغباتنا هي التي تمنح القيمة. في هذا العالم نحن ملوك ونحن نحط من ملكيتنا إذا ما انحنينا للطبيعة. كذلك من أجلنا يتم البت بما هو خير لا من أجل الطبيعة - ليس حتى من أجل الطبيعة المشخصة على شكل إله.

2 ـ الحياة الصالحة

هنالك في الأزمنة المختلفة ولدى الشعوب المختلفة العديد من المفاهيم المختلفة عن الحياة الصالحة. وإلى حد ما فإن الاختلافات قابلة للنقاش ذلك كان عندما كان الناس يختلفون فيما يتعلق بالوسيلة لإنجاز غاية معينة. إذ يفكر البعض أن السجن وسيلة جيدة لمنع الجريمة، آخرون يعتقدون أن التربية وسيلة أفضل. فارق من هذا النوع يمكن البت به بالأدلة الكافية، لكن بعض الفوارق لا يمكن وضعها قيد الاختبار بهذه الطريقة. لقد أدان تولستوي الحرب، فيما كان آخرون يعتقدون أن حياة جندي يخوض المعارك من أجل الدفاع عن الحق هي حياة نبيلة جداً. هنا يتعلق الأمر ربما بالفارق الحقيقي فيما يتعلق بالغايات، فأولئك الذين يمدحون الجندي يعتبرون عادة أن عقاب الآثمين أمر جيد بحد ذاته، لكن تولستوي لم يفكر هكذا. حول مسألة كهذه، النقاش غير ممكن. لذلك لا يمكنني أن أبرهن أن وجهة نظري عن الحياة الصالحة صحيحة، بل يمكنني فقط أن أذكر وجهة نظري وأرجو أن يوافق عليها أكبر عدد ممكن. تلكم هي وجهة



نظري: الحياة الصالحة هي التي تنجم عن الهام الحب وإرشاد المعرفة. فالحب والمعرفة كلاهما قابلان للتوسع إلى درجة لا محدودة، لهذا، مهما تكن الحياة جيدة، يظل بالإمكان تصوير حياة أفضل إذ لا حب بلا معرفة ولا معرفة بلا حب يمكن أن يفضيا إلى حياة صالحة. في العصور الوسطى، حين كان يظهر وباء في بلد ما، كان رجال الدين ينصحون الناس بالتجمع في الكنائس والصلاة من أجل الخلاص، النتيجة هي أن العدوى كانت تنتشر بسرعة فائقة بين الجمهور المحتشد من المتضرعين. ذلك مثال على الحب بلا معرفة. الحرب الأخيرة قدمت مثالاً على المعرفة بغير حب، والنتيجة هي الموت على نطاق واسع.

رغم أن الحب والمعرفة ضروريان معاً، فإن الحب بمعنى من المعاني أساسي أكثر، نظراً لأنه سيقود الناس الأذكياء للبحث عن المعرفة كي يكتشفوا كيف يمكن إفادة أولئك الذين يحبونهم. لكن إذا لم يكن الناس أذكياء فسيرضون بالاعتقاد بما قيل لهم بل يمكن أن يوقعوا الأذى بالآخرين رغم نزعة الخير الخالصة تماماً لديهم. ربما، يقدم الطب هذا المثال الأفضل عما أعني. فالطبيب المتمكن أكثر فائدة للمريض من أشد الأصدقاء إخلاصاً والتقدم في المعرفة الطبية يخدم صحة المجتمع أكثر من مؤسسة بر وإحسان سيئة - المعرفة، مع ذلك، عنصر خير وحب الخير ضروري حتى هنا، إن كان أي أحد غير الأغنياء يجب أن ينتفع من الاكتشافات العلمية. تغطي كلمة الحب طيفاً واسعاً من المشاعر، ولقد استخدمتها عن قصد، نظراً لأنني أرغب في أن أضمّنها كلها. فالحب كعاطفة - وهو ما أتكلم عنه الآن، لأن الحب «من حيث المبدأ» لا يبدو لي خالصاً - يتحرك بين قطبين: المتعة الخالصة في التأمل، من جهة ومن جهة ثانية، النزعة الخالصة إلى فعل الخير. وحيث يتعلق الأمر بالأشياء غير الحية، فإن المتعة وحدها



تدخل في الحسبان، إذ لا يمكننا أن نشعر بنزعة فعل الخير تجاه منظر طبيعي أو قطعة موسيقية. هذا النوع من الاستمتاع يفترض أنه مصدر الفن وهو، كقاعدة، أقوى لدى الأطفال مما هو لدى البالغين الذين يكونون أميل للنظر إلى الأشياء نظرة نفعية. إنه يمثل دوراً كبيراً في مشاعرنا تجاه البشر الذين يكون بعضهم ساحرين وبعضهم العكس حين ينظر إليهم ببساطة كموضوعات للتأمل الجمالي.

القطب الثاني للحب هو نزعة الخير الخالصة. فالناس كانوا يضحون بحياتهم لمساعدة المصابين بالجذام، في هذه الحالة لا يمكن أن يكون للحب الذي يشعرون به أي عنصر من عناصر الاستمتاع الجمالي. العاطفة الأبوية، كقاعدة، تترافق بالاستمتاع لدى ظهور الطفل لكنها تظل قوية حتى في غياب هذا العنصر كلياً. ولقد يبدو غريباً أن ندعو اهتمام الأم بطفل مريض نوعاً من «حب الخير»، لأننا نستعمل هذه الكلمة عادة لوصف عاطفة باهتة، تسعة أعشارها خداع. لكن من الصعب أن نجد أية كلمة أخرى لوصف الرغبة في خير ومصلحة شخص آخر، وإنها لحقيقة أن رغبة من هذا النوع يمكن أن تبلغ أي درجة من القوة لا تبلغها إلا عاطفة الأم أو الأب. في الحالات الأخرى، تكون أقل تركيزاً بكثير، وبالحقيقة يمكن أن تبدو أن كل عاطفة غيرية هي نوع من فيض المشاعر الأبوية أو أحياناً تتويج لها. وبسبب الحاجة لكلمة أخرى، سأدعو هذه العاطفة «الداعمة الخيرية»، لكن بودي أن أوضح أنني أتكلم عن عاطفة، لا مبدأ، وأنني لا أضمنها أي شعور بالتفوق، مثلما يترافق أحياناً مع هذه الكلمة. تعبر كلمة «تعاطف» جزئياً عما أعني لكنها تترك خارجاً عنصر النشاط الذي أرغب في تضمينه. الحب، بكل معنى الكلمة، هو مركب، غير قابل للانفصال، من عنصرين: الاستمتاع والرغبة - في الأحسن. إن سرور أحد الوالدين بطفل جميل وناجح يتضمن كلا



العنصرين، وهكذا حب الرجل والمرأة بأفضل حالاته. لكن في هذا الأخير، نزعة الخير توجد فقط حيث يكون هناك امتلاك مضمون، وإلا فإن الغيرة ستدمره في الحالة الأخرى، فيما ربما يزداد قليلاً الاستمتاع في التأمل. قد يكون الاستمتاع دون الرغبة - في - الأحسن قياسياً تماماً، والرغبة - في - الأحسن دون الاستمتاع تنحو بسهولة نحو البرودة والشعور بالتفوق قليلاً. فالشخص الذي يرغب في أن يكون محبوباً يرغب في أن يكون موضوع حب يحوي كلا العنصرين، إلا في حالات الضعف الشديد، كالطفولة والمرض الشديد. في هذه الحالات، يمكن لنزعة الخير أن تكون كل ما هو مرغوب. والعكس في حالات القوة، إذ يكون الإعجاب مرغوباً أكثر من نزعة الخير. هذه هي الحالة الذهنية للملوك والجميلات الشهيرات. إننا نرغب فقط بالرغبات الجيدة لدى الناس الآخرين طبقاً لما نشعر نحن أنفسنا بالحاجة للمساعدة أو في حالة الخطر من أذى يأتي منهم. ذلك، على الأقل، يبدو وكأنه المنطق الحيوي للموقف لكن ذلك لا ينطبق تماماً على الحياة، إننا نرغب بالعاطفة والود لكي نهرب من الشعور بالوحدة ولكي نكون، كما يمكن القول، «مفهومين». هذه هي قضية التعاطف، لكن فقط فيما يتعلق بنزعة الخير، فالشخص الذي تكون عاطفته مرضية لنا يجب ألا يتمنى لنا الخير فقط بل يجب أن يعرف مما تتكون سعادتنا، لكن هذا يمت للعنصر الآخر من الحياة الصالحة، أي المعرفة.

كل كائن ذي حس، في عالم كامل، قد يكون بالنسبة لأي شخص آخر، موضوع حب بالمعنى الكامل للكلمة، أي الحب المركب من المتعة وحب الخير والفهم ممتزجة كلها امتزاجاً لا انفصال له. لكن لا يتبع ذلك، في هذا العالم العملي، أنه يجب أن نحاول أن تكون لدينا مشاعر كهذه تجاه كل كائن ذي حس نلتقي به.



فهناك الكثيرون ممن لا يمكننا أن نشعر بالبهجة معهم، لأنهم مثيرون للاشمئزاز وإذا كان علينا أن تفسر طبيعتنا على أن نرى نقاط جمال فيهم، فإن علينا فقط أن نثلّم حساسيتنا تجاه ما نجده جميلاً بصورة طبيعية. وإذا صرفنا النظر عن الشر، هناك البراغيث والبق والقمل، ولسوف يتعين علينا أن نضغط على أنفسنا بشدة، شأن ذلك البحار القديم، قبل أن نستطيع الاستمتاع بتأمل تلك المخلوقات. صحيح أن بعض القديسين دعوها «لآلئ الإله» لكن ما كان هؤلاء الناس يستمتعون به إنما هو فرصة تتاح لهم لعرض قداستهم.

حب الخير أسهل لأن يتمدد على نطاق واسع، لكن حتى حب الخير له حدود. فإذا رغب الإنسان في أن يتزوج سيدة يجب ألا نفكر أن من الأفضل له أن ينسحب إذا وجد أن شخصاً آخر يرغب في الزواج بها. بل علينا أن نعتبر أن هذا ميدان حسن للتنافس. مع أن مشاعره تجاه المنافس لا يمكن أن تكون خيرة كلياً. إنني أظن أن علينا، في كل وصف للحياة الجيدة هنا على الأرجح، أن نفترض قاعدة معينة للحيوية لدى الحيوان وللغريزة لديه. بدون هذا، تصبح الحياة مدجَّنة وغير مثيرة للاهتمام. أما الحضارة فيجب أن تكون شيئاً ما يضاف إلى هذا، لا أن يكون بديلاً له إن القديس الزاهد والحكيم المعتزل يفشلان في هذا المجال في أن يكونا كائنين بشريين كاملين، كما أن عدداً ضئيلاً منهم يمكن أن يغني المجتمع لكن عالماً مؤلفاً منهم سيميت من السأم.

هذه الاعتبارات تؤدي إلى توكيد معين على عنصر الاستمتاع باعتباره أحد مكونات الحب الأفضل. والاستمتاع في هذا العالم العملي هو انتقائي بصورة لا مناص منها كما أنه يمنعنا من أن تكون لنا المشاعر ذاتها تجاه كل البشر، لكن حين ينشب الصراع بين



الاستمتاع ونزعة الخير، يجب كقاعدة، أن نبت بهما عبر التسوية وليس بالخضوع الكامل لأي منهما. إن للغريزة حقوقها وإذا مارسنا القسر عليها بشكل يتجاوز الحد فإنها ستنتقم بطريقة اللف والدوران، لذلك، لدى استهداف الحياة الجيدة، يجب أن تبقى حدود الاحتمال البشري في الذهن، لكن هنا، ثانية، نعود إلى ضرورة المعرفة.

حين أتكلم عن المعرفة كمكون من مكونات الحياة الجيدة. لا أفكر بالمعرفة، الأخلاقية بل بالمعرفة العلمية ومعرفة الحقائق الخاصة. وأنا لا أظن أن هناك، ولنتكلم بدقة، شيئاً يدعى المعرفة الأخلاقية. فإذا رغبنا في إنجاز هدف ما يمكن للمعرفة أن تبين لنا الوسيلة كما يمكن تمرير هذه المعرفة على أنها أخلاقية. لكنني لا أعتقد أن بإمكاننا أن نبت فيما إذا كان ذلك النوع من السلوك صواباً أم خطأ إلا بالرجوع إلى نتائجه المحتملة، ولنفترض أن هناك هدفاً ينبغي تحقيقه، فإن على العلم أن يكتشف كيف نحققه. كما أن كل القواعد الأخلاقية يجب اختبارها بأن نمحص ما إذا كانت تنزع لتحقيق تلك الأهداف التي نرغب بها أم لا. إنني أقول الأهداف التي نرغب، لا الأهداف التي يتوجب علينا أن نرغب بتحقيقها. فما يتوجب أن نرغب به هو فقط ما يريد منا شخص آخر أن نرغب به، وهو عادة ما يكون سلطة من السلطات ـ الدين، الأساتذة، الشرطة أو القضاة. فإن قلت لي يجب عليك أن تفعل كذا وكذا، فإن القوة الدافعة لملاحظتك تكمن في رغبتك في أن أوافقك – ربما جنباً إلى جنب مع الجزاء أو العقاب المرتبط بموافقتي أو عدم موافقتي. وبما أن كل سلوك ينبع من رغبة، فمن الواضح أن الأفكار الأخلاقية لا يمكن أن تكون ذات أهمية ما عدا ما يؤثر منها في الرغبة، إنها تؤثر من خلال الرغبة في



الموافقة والخوف من عدم الموافقة، هذه قوى اجتماعية هامة، نسعى بشكل فطري لكسبها إلى جانبنا إذا كنا نرغب في تحقيق أي هدف اجتماعي، وحين أقول يجب الحكم على أخلاق السلوك بنتائجها المحتملة، فإنني أعي بذلك أنني أرغب في إعطاء الموافقة على سلوك يحتمل أن يحقق أهدافاً اجتماعية أرغب بها وعدم الموافقة على سلوك مضاد. حالياً، هذا لا يتم، فهناك قواعد تقليدية يتم وفقاً لها الموافقة أو عدمها بغض النظر تماماً عن النتائج، لكن هذا موضوع أعالجه في القسم التالي.

إن الأخلاق النظرية زائدة ولا ضرورة لها وذلك واضح في الحالات البسيطة. لنفترض، مثلاً، أن طفلك مريض. سيجعلك الحب ترغب في أن تشفيه والعلم ينبئك كيف تفعل ذلك، ليس هناك مرحلة متوسطة للنظرية الأخلاقية حيث يتضح أن من الأفضل أن يشفى طفلك. إن سلوكك ينبع مباشرة من الرغبة في تحقيق هذه الغاية، جنباً إلى جنب مع معرفة الوسيلة لذلك. هذا أيضاً ينطبق على كل الأفعال سواء أكانت خيراً أم شراً. الأهداف تختلف، فالمعرفة صالحة في بعض الحالات أكثر من حالات أخرى، لكن ليس هناك طريقة لفهم كيف نجعل الناس يقومون بأفعال لا يرغبون بها. ما هو معقول أن نغير رغباتهم بمنظومة من الجزاء والعقاب ليس التأييد أو الرفض الاجتماعي أقلها قوة، من هنا، فإن المسألة بالنسبة للمشرع الأخلاقي هي التالية: كيف ترتب منظومة الجزاء والعقاب هذه بحيث تضمن الحد الأعلى لما ترغب به السلطة التشريعية؟ وإذا قلت إن السلطة التشريعية كان لديها رغبات سيئة، فإنني أعني فقط أن رغباتها تتعارض مع رغبات شريحة ما من المجتمع الذي تمت له، فليس هناك معيار أخلاقي خارج رغبات البشر.



وهكذا، ما يميز الأخلاق من العلم ليس أي نوع خاص من المعرفة بل مجرد الرغبة. أما المعرفة المطلوبة في الأخلاق فهي تماماً مثل أي معرفة في نطاق آخر. ما هو خاص أن أهدافاً معينة هي المرغوبة وأن السلوك الصحيح هو ما يوصل إليها. بالطبع، إذا كان تعريف السلوك الصحيح يلقى قبولاً واسعاً، فإن على الأهداف أن تكون ما يرغب به نطاق واسع من شرائح المجتمع. وإذا عرّفت السلوك الصحيح بأنه ذاك الذي يزيد دخلي الخاص، فإن القراء لن يوافقوا. إن الفعالية الكلية لأية حجة أخلاقية إنما تكمن في الجانب العلمي، أي في البرهان على أن ذلك النوع من السلوك، وليس سواه، هو الوسيلة لتحقيق الغاية التي نرغب بها، لكنني مع ذلك أميز بين الحجة الأخلاقية والتربية الأخلاقية فالأخيرة تتكون من تقوية رغبات معينة وإضعاف رغبات أخرى. وهذه عملية مختلفة تماماً سنناقشها بشكل مستقل في مرحلة تالية.

الآن، يمكننا أن نشرح بدقة أكثر الهدف من تعريف الحياة الصالحة الذي بدأ به هذا الفصل، فحينما قلت إن الحياة الصالحة تتألف من حب ترشده المعرفة، فإن ما دفعني إلى ذلك إنما هو الرغبة في أن أعيش حياة كهذه ما أمكن وأن أرى الآخرين يعيشونها أيضاً، والمضمون المنطقي لهذا القول هو أنه، في مجتمع يعيش الناس بهذه الطريقة، ستكون الرغبات المشبعة فيه أكثر من مجتمع يكون فيه الحب أقل أو المعرفة أضأل. أنا لا أعني أن حياة كهذه هي حياة «فاضلة» أو أن عكسها «آثمة»، لأن هذه المصطلحات مفاهيم تبدو لي بلا أي مبرر علمي.



3 ـ القواعد الأخلاقية

إن الحاجة العملية للأخلاق تنبع من صراع الرغبات سواء أكانت رغبات أناس مختلفين أو الشخص نفسه في أوقات مختلفة أو حتى في الآن ذاته. فالمرء قد يرغب في أن يشرب الكحول، وكذلك أن يكون في وضع مناسب لعمله صباح اليوم التالي. إننا سنفكر أنه غير أخلاقي إذا تبنى المسار الذي يمنحه شيئاً من التلبية الكاملة لرغبته، كما نظن السوء بالناس الذين يميلون للمبالغة أو الطيش حتى وإن كانوا لا يؤذون سوى أنفسهم، لقد افترض بينتام أن الكل الكامل للأخلاق يمكن أن يُستمد من «الاهتمام المتنور - بالذات» وأن المرء الذي يتصرف دائماً وعينه على تلبية الحد الأقصى من رغباته، فإنه على المدى الطويل يكون قد تصرف تصرفاً صحيحاً. أنا لا أستطيع أن أقبل هذه النظرة. فالطغاة يوجدون من يستمد سروراً فائقاً من التعذيب ومشاهدة عمليات التعذيب، وأنا لا أستطيع أن أثني على أناس كهؤلاء، حين يقودهم التعقل لتوفير حياة ضحاياهم لكي يعذبوهم أكثر وأكثر في اليوم التالي. مع ذلك، وإذا تساوت الأشياء الأخرى، فإن التعقل جزء من الحياة الصالحة. إذ حتى روبنسون كروزو كان لديه فرصة لممارسة مهنة، والتحكم - بالذات والتكهن بالمستقبل، وهي أمور ينبغي حسبانها على أنها صفات أخلاقية نظراً لأنها تزيد من التلبية الإجمالية للرغبة دون أذى مقابل يلحق بالآخرين، هذا الجزء من الأخلاق يلعب دوراً مهماً في تدريب الأطفال، الذين لديهم نزوع ضئيل للتفكير بالمستقبل، وإن هي مورست أكثر في الحياة فيما بعد، إذن سيصبح العالم بسرعة نوعاً من الفردوس، نظراً لأنه سيكون مناسباً تماماً لمنع الحروب التي هي نتاج المشاعر والانفعالات وليس العقل، مع ذلك، ورغم أهمية التعقل، فإنه ليس الجزء الأهم من



الأخلاق. وليس هو الجزء الذي يثير المشاكل الفكرية، نظراً لأنه لا يتطلب أن يرضي أي شيء يتجاوز الاهتمام - بالذات.

إن الجزء من الأخلاق الذي لا يتضمن التعقل هو، جوهرياً، مماثل للقانون أو قواعد نادٍ من النوادي. إنها الطريقة التي تمكّن الناس من أن يعيشوا معاً في مجتمع واحد رغم الاحتمال بأن رغباتهم قد تتعارض. لكن هنا، توجد طريقتان مختلفتان ممكنتان. فهناك طريقة قانون الجرائم، التي تهدف إلى التناغم الخارجي فقط بمراقبة النتائج غير المقبولة لأفعال تنتهك رغبات أناس آخرين بطرق معينة. وهناك أيضاً طريقة النقد والاستهجان الاجتماعي: أي أن نظرة المجتمع إلى العمل على أنه سيء إنما هي شكل من أشكال العقاب، كذلك أن تتجنب ما يتجنبه معظم الناس لكونه يتجاوز قوانين الجماعة. لكن، ثمة طريقة أخرى أساسية أكثر ومرضية أكثر حين تنجح، وهي أن نغير شخصيات الناس ورغباتهم بطريقة تنقص إلى أدنى حد من أسباب الصراع وذلك بجعل رغبات الإنسان متساوقة ما أمكن مع رغبات الآخر. ذلك يفسر لماذا الحب أفضل من الكره، السبب هو أنه يحقق التناغم بدلاً من الصراع بين رغبات أشخاص معينين، فشخصان يجمعهما الحب ينجحان أو يخفقان معاً لكن حين يكره الشخصان واحدهما الآخر، فإن نجاح أي منهما هو إخفاق للآخر.

وإذا كنا على حق في قولنا إن الحياة الصالحة إنما تكون بإلهام من الحب وإرشاد من المعرفة، فإن من الواضح أن الدستور الأخلاقي لأي مجتمع لا يكون نهائياً ومكتفياً بذاته بل لا بد من إخضاعه للتمحيص من حين لآخر مع التوجه لأن نرى ما إذا كان من الحكمة ونزعة الخير سن أشياء جديدة أخرى. ليست القوانين الأخلاقية دائماً دون عيوب، فالأزتيك كانوا يعتبرونه نوعاً من الواجب المؤلم أن



يأكلوا لحم البشر خشية أن يحتجب نور الشمس عنهم. لقد كانوا مخطئين في علومهم، وربما كانوا سيلاحظون خطأهم العلمي لو كان لديهم أي حب للقرابين البشرية التي يضحون بها، كما أن بعض القبائل كانت تسجن الفتيات من سن العاشرة إلى السابعة عشرة في العتمة، خشية أن تسبب أشعة الشمس الحبل لهن لكن أخلاقنا الحديثة لا تحوي، بالتأكيد شيئاً مماثلاً لتلك الممارسات الوحشية؟ وبالتأكيد نحن نمنع فقط الأشياء التي تؤذي فعلاً أو تكون، بأية حال، سيئة إلى حد أنه ما من شخص محترم يمكن أن يدافع عنها؟ أنا لست متأكداً أن الأخلاق الراهنة هي خليط عجيب من النفعية والخرافية لكن للقسم الخرافي اليد العليا وهو أمر طبيعي نظراً لأن الخرافة هي أصل القواعد الأخلاقية، إذ كان يعتقد، أصلاً، أن بعض الأفعال تزعج الآلهة، وكان القانون يمنعها لأن الغضب الإلهي يمكن أن ينزل على المجتمع كله وليس فقط على الأفراد المذنبين. من هنا نشأ مفهوم الإثم، باعتباره الفعل الذي يزعج الإله. لكن ما من سبب يمكن أن يفسر بالنسبة لنا لماذا بعض الأفعال مزعجة هكذا، وقد يكون من العسير جداً أن نقول، مثلاً، لماذا كان يزعج الإله أن ينتفع الطفل بحليب أمه، لكن الوحي كشف أن تلك هي الحالة، ذلك أن الأوامر الإلهية كانت تفسر أحياناً بطريقة غريبة، مثال على ذلك، قيل لنا أن لا نعمل أيام السبت، والبروتستانت يأخذون هذا بمعنى أن علينا ألا نمثل أيام الأحد، لكن السلطة العليا ذاتها هي التي قامت بالمنع الجديد كما كان شأنها مع القديم.

من الواضح أنه لا يمكن لإنسان ذي نظرة علمية للحياة أن يدع نفسه عرضة للترهيب من قبل نصوص في إنجيل أو تعاليم للكنيسة. ولن يرضى بأن يقول: «فعل كذا وكذا آثم وانتهى الأمر». بل هو سيتساءل ما إذا كان يوقع أي أذى أو ما إذا كان، على العكس،



الاعتقاد بذلك هو الذي يسبب الأذى. ثم سيجد، خصوصاً فيما يتعلق بالجنس، أن أخلاقنا الحالية تتضمن قدراً كبيراً من الأمور التي هي ذات منشأ خرافي أسطوري محض، كما سيجد أيضاً أن هذه الأسطورة شأنها شأن أسطورة الأزتيك، تشتمل على قسوة لا ضرورة لها ومن الممكن إزالتها بعيداً، إذا ما امتلك الناس مشاعر لطيفة تجاه جيرانهم. لكن المدافعين عن الأخلاق التقليدية نادراً ما يكونون ناساً ذوي قلوب دافئة، كما يمكن أن نلحظ ذلك من حب النزعة العسكرية لدى رجالات الكنيسة الكبار. ذلك يغري المرء بأن يفكر بأنهم يقيمون الأخلاق طبقاً لما تقدم من مخارج شرعية لرغباتهم في إحداث الألم، فالألم صعيد حسن، لهذا تباً للتسامح.

دعونا نتبع حياة إنسان عادي من المهد إلى اللحد ولنلاحظ النقاط التي تكون فيها الأخلاق الخرافية سبباً في إحداث معاناة يمكن الحؤول دونها. سأبدأ من الحمل، لأن تأثير الخرافة هنا جدير بالملاحظة على نحو خاص. فإذا كان الوالدان غير متزوجين، سيشعر الطفل بوصمة عار، من الواضح أنه لا يستحقها البتة. وإذا كان أي من الوالدين مصاباً بمرض تناسلي فإن من المحتمل أن ينتقل إلى الطفل، وإذا كان لدى الوالدين مسبقاً أطفال كثر بالنسبة إلى دخل العائلة، فسيعاني من الفقر، سوء التغذية، الزحمة ومن المحتمل جداً سفاح القربى. مع ذلك فإن الغالبية العظمى من المنظرين للأخلاق يتفقون على أنه من الأفضل للوالدين ألا يعرفا كيف يحولان دون هذا البؤس بمنع الحمل[1]. ولكي يسر هؤلاء المنظرون الأخلاقيون، فإن حياة

---

(1) لحسن الحظ هذا لم يعد ينطبق على أيامنا هذه، فغالبية قادة اليهود والبروتستانت لم يعودوا يعرفون كيف يعترضون على تحديد النسل، لكن كلام رسل كان وصفاً دقيقاً تماماً للظروف السائدة سنة 1925. (ملاحظة الناشر).



العذاب التي يعيشها ملايين البشر الذين ينبغي ألا يكونوا موجودين، إنما تحدث فقط لأنه يفترض أن ممارسة الجنس عمل فاسد ما لم يكن مصحوباً بالرغبة في إنجاب ذرية لكنه ليس فاسداً إذا ما توفرت هذه الرغبة، حتى ولو كان من المؤكد أن الذرية ستكون فاسدة. فأن تقتل فجأة ثم تؤكل، كما كان مصير ضحايا الأزتيك، هو على درجة من المعاناة أقل بكثير مما يحدث لطفل يولد في محيط بائس ويصاب بالعدوى بمرض خطير. لكن المعاناة الكبرى هي تلك التي يسببها عمداً الأساقفة والسياسيون باسم الأخلاق ولو كان لديهم ذرة من حب أو شفقة على الأطفال لما كانوا سيتمسكون بقوانين أخلاقية تشتمل على هذه القسوة الشيطانية.

فمنذ ولادته، وطوال طفولته المبكرة، يعاني الطفل العادي من الأسباب الاقتصادية أكثر من الخرافة. ذلك أن المرأة الميسورة حين تنجب أطفالاً يتوفر لها أحسن الأطباء وأحسن المربيات وأحسن الغذاء، كذلك أفضل أسباب الراحة والمراقبة. لكن نساء الطبقة العاملة لا يتمتعن بشيء من هذه المزايا وغالباً ما يموت أطفالهن لافتقارهم لتلك المزايا، والسلطات لا تفعل إلا القليل من أجل رعاية الأمهات، وإن فعلت فعلى مضض شديد. كذلك، في اللحظة التي توقف فيها تقديم الحليب للأمهات المرضعات، بغية توفير المال، فإن السلطات العليا تنفق المبالغ الطائلة على إقامة الأرصفة للمناطق السكنية الغنية حيث لا يوجد إلا القليل من حركة المرور. إن على هذه السلطات أن تدرك، لدى اتخاذ قرارات كهذه، أنها تحكم على عدد معين من أطفال الطبقة العاملة بالموت، بسبب الفقر، مع ذلك، فإن الحزب الحاكم، مدعوماً بغالبية بارزة من رجال الدين، وعلى رأسهم البابا، سخروا القوى الواسعة للخرافة في كل أنحاء العالم من أجل دعم الظلم الاجتماعي.



يعتبر تأثير الخرافة على الأطفال في كل مراحل التربية تأثيراً كارثياً إذ تتكون لدى نسبة معينة من الأطفال عادة التفكير، وأحد أهداف التربية هو تخليصهم من هذه العادة. فالأسئلة غير المناسبة تقابلها كلمة «صه.. صه». أو العقوبة. والعاطفة الجمعية تستغل لزرع أنواع معينة من الإيمان وبشكل أخص ذات النزعة القومية. الرأسماليون، العسكريون والكهنوت يتعاونون في مسألة التربية، لأنهم جميعاً يعتمدون من أجل بقاء سلطتهم، على أن تطغى النزعة العاطفية ويضعف الحكم النقدي، وبمساعدة الطبيعة البشرية، تنجح التربية في زيادة هذه النزعات لدى الإنسان العادي وتكثيفها.

ثمة طريقة أخرى تخرب بها الخرافة التربية، وذلك من خلال تأثيرها على اختيار المعلمين. فالمعلمة، لأسباب اقتصادية، يجب ألا تكون متزوجة، ولأسباب أخلاقية يجب ألا تكون لها علاقات جنسية خارج نطاق الزوجية. ورغم أن كل من تحمل مشقة دراسة علم النفس المرضي يعلم أن العنوسة، كقاعدة، مؤذية أذى شديداً للمرأة، إلى درجة أنه في مجتمع عاقل، تكون موضع تثبيط شديد لدى المعلمات، كما أن القيود المفروضة تؤدي أكثر وأكثر إلى رفض المعلمات النشطات، صاحبات المشاريع رفضاً تاماً لمهنة التعليم. وذلك كله بسبب التأثير الباقي لنزعة الزهد الخرافية.

في مدارس الطبقة الوسطى والعليا، المسألة أشد سوءاً أيضاً. فهناك خدمات كنسية، كما أن رعاية الأخلاق من مسؤولية رجال الدين، هؤلاء الذين يفشلون، بشكل حتمي تقريباً بطريقتين اثنتين كمعلمين للأخلاق، فهم يحكمون على الأعمال التي لا تؤدي بالإدانة، أما الأعمال التي تسبب الكثير من الأذى فيمررونها، إنهم جميعاً يدينون العلاقات الجنسية بين أناس غير متزوجين، يحبون



بعضهم بعضاً، إنما ليسوا متأكدين بعد من أنهم يرغبون في أن يعيشوا معاً طوال حياتهم. كما أن معظم رجال الدين هؤلاء يدينون تحديد النسل، فيما لا أحد منهم يدين وحشية زوج يسبب لزوجته الموت بسبب كثرة الحمل والولادة. بل إنني أعرف رجل دين يعيش على الطراز الحديث، أنجبت زوجته تسعة أطفال خلال تسع سنوات، فأخبره الأطباء أنها إن حملت مرة أخرى ستموت. في العام التالي، فعلاً، أنجبت ولداً آخر وماتت. لكن ما من أحد أدانه، بل حصل على رتبة كنسية ذات دخل وتزوج من جديد. وطالما استمر رجال الدين في غض النظر عن القسوة وفي الوقت نفسه إدانة المتع البريئة، سيظل بوسعهم فقط إيقاع الأذى بالناس بوصفهم الأوصياء على أخلاق الشبان.

ثمة أثر آخر سيء للخرافة على التربية ألا وهو غياب التعليم فيما يتعلق بحقائق الجنس. إذ ينبغي أن تدرّس الحقائق الفيزيولوجية الأساسية بكل بساطة وطبيعية قبل البلوغ بوقت حين لا تكون مثيرة. في البلوغ، ينبغي أن تدرس عناصر الأخلاق الجنسية غير الخرافية، فعلى الصبيان والبنات أن يتعلموا أنه لا شيء يمكن أن يبرر العلاقة الجنسية ما لم يكن هناك ميل متبادل. هذا مناقض لتعاليم الكنيسة التي تؤمن، شريطة أن يكون الطرفان متزوجين والرجل يرغب في إنجاب طفل آخر، أن العلاقة الجنسية مبررة، مهما تكن الزوجة نافرة من الزوج. كما ينبغي أن يتعلم الصبيان والبنات احترام حرية بعضهم بعضاً، كذلك يجب توجيههم بحيث يشعرون أنه ما من شيء يعطي الكائن البشري حقوقاً زيادة على الآخر وأن الغيرة وحب التملك يقتلان الحب. إضافة إلى ذلك، ينبغي أن يتعلموا أن إتيانهم بكائن بشري آخر إلى العالم مسألة خطيرة جداً ولا يجوز أن تحدث إلا حين يتوفر للطفل الظروف الصحية الملائمة والمحيط الجيد والرعاية



الأبوية التامة. لكن عليهم أيضاً أن يتعلموا طرق تحديد النسل لكي يضمنوا أن لا يأتي الأطفال إلا حين يكون مرغوباً بهم. أخيراً عليهم أن يتعلموا مخاطر المرض التناسلي وطرق الوقاية والشفاء منه، علماً أن زيادة سعادة البشر التي يتوقع الحصول عليها من التربية الجنسية في هذه المحاور هي أكبر من أن تقاس.

هذا ويجب الاعتراف، في غياب الأطفال، أن العلاقات الجنسية هي مسألة خاصة جداً ولا تعني أحداً سواء أكانت دولة أو جيراناً. بعض أشكال الجنس التي لا تفضي إلى إنجاب الأطفال يعاقب عليها قانون العقوبات في الوقت الحاضر. وهذا شيء خرافي تماماً، نظراً لأن المسألة لا تؤثر على أحد ما عدا الطرفين المعنيين مباشرة. وحيث يوجد أطفال من الخطأ أن نفترض أنه، لمصلحتهم، يجب حتماً أن نجعل الطلاق صعباً جداً، فالإدمان على المخدرات، والقسوة والجنون أسس ينبغي أن يكون الطلاق بوجودها ضرورياً من أجل الأطفال تماماً كما هو من أجل الزوج أو الزوجة. الأهمية الخاصة التي تعطى في الوقت الحاضر لارتكاب الزنى، أمر غير عقلاني بتاتاً، إذ من الواضح أن الكثير من أشكال سوء السلوك هي أكثر فتكاً بالسعادة الزوجية من عدم الإخلاص الذي يقع أحياناً. على أن إصرار الذكر على إنجاب طفل كل عام، وهو حسب العقل التقليدي ليس بالسلوك السيئ ولا القاسي، يعتبر الأشد فتكاً من الكل.

كذلك ينبغي ألا تكون القواعد الأخلاقية بحيث تجعل السعادة الغريزية مستحيلة، مع أن ذلك هو من تأثير أحادية الزواج الصادقة في مجتمع، أعداد الجنسين فيه متفاوتة كثيراً. في ظروف كهذه، تخرق القواعد الأخلاقية بالطبع، ذلك أنه عندما تكون القواعد الأخلاقية بحيث لا يمكن طاعتها إلا بالقضاء إلى حد كبير على سعادة



المجتمع، وحين يكون من الأفضل خرقها بدلاً من الالتزام بها فمن المؤكد أنه يكون قد حان الوقت لتغيير تلك القواعد، وإن لم يتم هذا، فإن كثيراً من الناس الذين يتصرفون بطريقة لا تناقض الصالح العام سيكون أمامهم البديل غير الصحيح ألا وهو النفاق أو الخزي. الكنيسة لا ترى أهمية للنفاق الذي هو صفة إطراء لسلطتها، لكن في مكان آخر، يصل الأمر إلى الاعتراف به كشر علينا ألا نمارسه.

لكن ما هو أشد أذى من الخرافة اللاهوتية، خرافة القومية، أي خرافة واجب المرء تجاه دولته، لاتجاه أحد سواها. غير أنني لا أقترح، في هذه المناسبة، أن أناقش المسألة خارج الاستنتاج بأن تحديد الإنسان بأبناء وطنه فقط هو مناقض لمبدأ الحب الذي اعترفنا أنه المكون الأساس في الحياة الصالحة كما أنه مناقض، بالطبع، للمنفعة - الذاتية المتنورة، نظراً لأن القومية الحصرية لا تفيد حتى الأمم المنتصرة.

ثمة مجال آخر يعاني فيه مجتمعنا من مفهوم «الإثم» اللاهوتي ألا وهو التعامل مع المجرمين. فالنظرة القائلة بأن المجرمين «أشرار» ويستحقون العقاب ليس ما يمكن للأخلاق العقلانية أن تدعمه. بعض الناس يرتكبون ولا شك أشياء يرغب المجتمع في منعها وله الحق في منعها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وبإمكاننا أن نتخذ من جريمة القتل الحالة الأبسط. فمن الواضح أنه إذا كان المجتمع متماسكاً معاً ونحن نستمتع بمباهجه وامتيازاته، فإننا لا يمكن أن نسمح بأن يقتل الناس بعضهم بعضاً، في أي حين يشعرون بالدافع لفعل ذلك، لكن ينبغي معالجة هذه المشكلة بروح علمية خالصة. إذ علينا أن نسأل ببساطة: ما هي الطريقة الأفضل لمنع جرائم القتل؟ فإذا كان هناك طريقتان فعالتان بالتساوي لمنع



القتل، فإن الطريقة التي تشتمل على أذى أقل للقاتل يجب أن تكون الأفضل، ذلك أن الأذى الذي نسببه للقاتل سنندم عليه كلياً، شأنه شأن الألم الذي نسببه بعملية جراحية، إنه قد يكون ضرورياً تماً، لكن ينبغي ألا يكون موضع استمتاع وسرور من قبلنا، فالشعور الانتقامي الذي يدعى «بالسخط الأخلاقي» هو مجرد شكل من أشكال القسوة. ومعاناة المجروح لا يمكن تبريرها أبداً بفكرة العقاب الانتقامي. وإذا كان التعليم، جنباً إلى جنب مع اللطف، فعالاً أيضاً، إذن ينبغي أن يكون المفضل. ويجب أن يكون مفضلاً أكثر، إذا كان فعالاً أكثر. إن منع الجريمة، بالطبع، وعقاب المجرم مسألتان مختلفتان تماماً، كما أن موضوع تسبيب الألم للمجرم يفترض أن يكون معوقاً وإذا كانت السجون ذات معاملة إنسانية جيدة بحيث يحصل السجين على تعليم جيد مجاناً، فإن الناس قد يرتكبون جرائم تؤهلهم لدخول السجن. لا شك أن السجن يجب أن يكون أقل بهجة من الحرية، لكن الطريقة الأفضل لضمان هذه النتيجة هي أن نجعل الحرية أكثر بهجة مما هي حالياً. مع ذلك، أنا لا أرغب في أن أباشر الحديث حول إصلاح قانون العقوبات. أنا أرغب فقط في أن أقول بأن علينا أن نعامل المجرم كما ينبغي أن نعامل إنساناً يعاني من داء. كلاهما خطر عام وكلاهما ينبغي الحد من حريته إلى أن يتوقف عن تشكيل خطر على المجتمع، لكن الإنسان الذي يعاني من داء يكون موضع تعاطف وشفقة، في حين أن المجرم يكون موضع لعن ومقت. هذا أمر لا عقلاني البتة. وبسبب هذا الفرق في الموقف، فإن سجوننا تنجح في شفاء النزعات الإجرامية على نحو أقل بكثير مما تفعله المستشفيات في شفاء الأمراض.



4 ـ الخلاص: فرداً ومجتمعاً

إن أحد عيوب الدين التقليدي إنما هو فردانيته. هذا العيب يمت أيضاً للأخلاق المصاحبة له، فالحياة الدينية تقليدياً هي، إن جاز القول، حوار ثنائي بين الروح والإله: الفضيلة فيها هي أن نمتثل لإرادة الإله، وهذا ممكن للفرد بغض النظر تماماً عن حالة المجتمع. لقد طورت الطوائف البروتستانتية فكرة «إيجاد الخلاص»، لكنها كانت دائماً بعيدة عن تعاليم المسيحية. فردانية الروح هذه بحد ذاتها كان لها قيمتها في مراحل معينة من التاريخ، لكن في العصر الحديث، نحن بحاجة أمسّ لمفهوم الصالح الاجتماعي أكثر من الفردي. في هذا المجال، بودي أن ألقي نظرة على مسألة: كم يؤثر هذا في مفهومنا عن الحياة الصالحة.

لقد نشأت المسيحية في عهد الإمبراطورية الرومانية، بين أناس لا يملكون شيئاً من السلطة السياسية بتاتاً، أناس دولهم الوطنية مدمرة ومدمجة في حشد واسع من بلدان لا علاقة له بها، وخلال القرون الثلاثة الأولى من عمر المسيحية، فإن الأفراد الذين اعتنقوا المسيحية لم يستطيعوا تغيير الأوضاع الاجتماعية أو السياسية التي كانوا يعيشون فيها رغم اقتناعهم الشديد بسوئها. في هذه الظروف، كان من الطبيعي أن يعتقدوا بأن الفرد يمكن أن يكون كاملاً في عالم غير كامل وأن الحياة الصالحة لا شأن لها بهذا العالم. ما أعنيه يمكن أن يصبح بسيطاً بالمقارنة مع جمهورية أفلاطون فعندما أراد أفلاطون أن يصف الحياة الصالحة، وصف المجتمع ككل وليس الفرد، ولقد فعل ذلك لكي يحدد ماهية العدالة التي هي مفهوم اجتماعي بالضرورة. لقد كان يألف حياة المواطن في جمهوريته، وكان يعتبر المسؤولية السياسية تحصيل حاصل. لكن مع ضياع الحرية الإغريقية نشأت الرواقية التي



هي مثل المسيحية وخلافاً للأفلاطونية، تؤمن بالمفهوم الفرداني للحياة الصالحة.

إننا، نحن الذين نمتّ للديموقراطيات الكبرى، نجد أخلاقاً في أثينا الحرة أكثر ملاءمة مما في روما الإمبراطورية المستبدة. وفي الهند، حيث الظروف السياسية مشابهة كثيراً لظروف يهودا في زمن المسيح، نجد غاندي يعظ بأخلاق مشابهة كثيراً لأخلاق المسيح وقد عوقب عليها من قبل أتباع للمسيحية ورثوا بونيتوسبيلا طس. غير أن القوميين الهنود الأكثر تطرفاً لم يكونوا راضين عن الخلاص الفردي، بل كانوا يريدون الخلاص الوطني. وهم في ذلك أخذوا بنظرة الديموقراطيات الحرة في الغرب. هنا أريد أن أقول إن هناك بعض المجالات التي لا تكون فيها هذه النظرة، وذلك بسبب التأثيرات المسيحية، جريئة وواعية - ذاتياً كفاية، مع ذلك ما تزال عرضة للإعاقة بسبب الإيمان بالخلاص الفردي.

تتطلب الحياة الصالحة كما نفهمها، جملة من الشروط الاجتماعية التي لا يمكن أن تتحقق بدونها. لقد قلنا إن الحياة الصالحة هي الحياة التي تكون بإلهام من الحب وإرشاد من المعرفة. والمعرفة المطلوبة لا يمكن أن توجد إلا حيث الحكومات أو الأثرياء الكبار يكرسون أنفسهم لاكتشافها ونشرها. مثال على ذلك، انتشار السرطان مخيف - ما الذي يمكننا فعله حيال ذلك؟ في اللحظة الراهنة، لا يمكن لأحد أن يجيب على هذا السؤال نظراً للافتقار للمعرفة، تلك التي لا يمكن أن تتكون إلا من خلال البحث المدعوم مالياً: مرة ثانية نقول، معرفة العلم، التاريخ، الأدب والفن يجب أن يحصل عليها كل من يرغب بها، وهذا يتطلب ترتيبات معقدة من جانب السلطات العامة كما لا يمكن الوصول إليها بواسطة الهداية



الدينية. ثم، هناك تجارة خارجية، بدونها نصف سكان بريطانيا قد يموتون جوعاً، وإذا متنا جوعاً فإن قلة قليلة منا ستعيش الحياة الصالحة. لا حاجة بعد ذلك لأن نضرب أمثلة، فالنقطة المهمة هي أن العالم، في كل ما يفرق بين الحياة الجيدة والحياة السيئة، هو وحدة واحدة والإنسان الذي يزعم أنه يعيش على نحو مستقل، هو طفيلي واعياً كان أم غير واعٍ.

تصبح فكرة الخلاص الفردي، التي عزّى المسيحيون الأوائل أنفسهم بها نتيجة خضوعهم السياسي، أقول تصبح غير ممكنة حالما نتخلص من المفهوم الضيق جداً للحياة الصالحة. ففي المفهوم المسيحي القويم، الحياة الصالحة هي الحياة الفاضلة، فيما الفضيلة تتكون من الامتثال لإرادة الإله وإرادة الإله تتجلى لكل فرد من خلال صوت الضمير. هذا المفهوم كله هو مفهوم أناس خاضعين لحكم الأجنبي واستبداده، لكن الحياة الصالحة تشتمل على ما هو أكثر بكثير من الفضيلة - كالتفكير، مثلاً. إن الضمير دليل خطاء، نظراً لأنه يتكون من ذكريات غامضة عن مفاهيم سمعها المرء في صباه بحيث لا تكون أكثر حكمة من مفاهيم المربية أو الأم. ولكي نعيش حياة صالحة بكل ما في الكلمة من معنى، يجب أن يكون لدينا تعليم جيد، أصدقاء، حب، أطفال (إذا كان المرء يرغب بهم)، دخل مناسب يحفظنا بعيداً عن الحاجة والقلق الخطير، ثم صحة جيدة وعمل يحظى باهتمامنا ورضانا. هذه الأشياء كلها، وبدرجات متفاوتة، تتوقف على المجتمع وتكون موضع إعانة أو إعاقة من قبل الأحداث السياسية. الحياة الصالحة يجب أن تعاش في مجتمع صالح وإلا ستكون مستحيلة في الحالة الأخرى.



ذلكم هو الخلل الأساسي في المثل الأعلى الأرستقراطي، ذلك أن بعض الأشياء الجيدة، كالفن والعلم والصداقة مثلاً يمكن أن تزدهر بصورة جيدة جداً في مجتمع أرستقراطي. ولقد وجدت في مجتمع الإغريق على أساس العبودية، وهي موجودة بيننا نحن على أساس الاستغلال. لكن الحب، بمعنى التعاطف أو حب الخير لا يمكن أن يوجد بصورة حرة في مجتمع أرستقراطي. إذ على الأرستقراطي أن يقنع نفسه بأن العبد أو العامل من الطبقة الدنيا أو الشخص الملون هو أدنى طينة وأن معاناته لا تهم أبداً. في اللحظة الراهنة ثمة إنكليز من الطبقة الراقية يجلدون أفارقة، بكثير من القسوة إلى حد أنهم يموتون بعد ساعات من العذاب الذي لا يمكن وصفه. وحتى لو كان هؤلاء الإنكليز الراقون حصلوا على تعليم حسن، فنانين ومتحدثين يثيرون الإعجاب، فإنني لا يمكن أن أقر بأنهم يعيشون حياة صالحة. إن الطبيعة البشرية تفرض حداً ما من التعاطف، لكن ليس درجة من القسوة كتلك، وفي مجتمع ذي تفكير ديموقراطي، وحده المهووس يمكنه أن يتصرف بتلك الطريقة أما حد التعاطف الذي يتضمنه المثل الأعلى الأرستقراطي فهو الإدانة والشجب. إن الخلاص هو مثل أعلى أرستقراطي لأنه فرداني. لهذا السبب أيضاً، فإن فكرة الخلاص الشخصي، مهما يكن تأويلها وتوسيعها، لا يمكن أن تفيد في تعريف الحياة الصالحة.

ثمة ميزة أخرى للخلاص هي أنه ينتج عن تغير كارثي مثل هداية القديس بولس. تقدم قصائد شيلي توضيحاً لهذا المفهوم ينطبق على المجتمعات، فحين تأتي اللحظة التي يهتدي فيها الجميع، «الفوضى» تولي و«العصر العظيم للعالم يبدأ من جديد». من الممكن القول إن الشاعر شخص غير مهم وأفكاره ليست بذات أهمية، لكنني مقتنع أن



نسبة كبيرة من القادة الثوريين كانت لديهم أفكار متطرفة مثل أفكار شيلي، إذ كانوا يفكرون أن البؤس والقسوة وانتقاص القدرة كلها بسبب الطغاة أو الكهنة، أو الرأسماليين أو الألمان وأنه إذا ما أطيح بمصادر الشر هذه، سيكون هناك تغير عام في طبيعة المرء العاطفية والأخلاقية وهذا سيجعلنا نعيش بعد ذلك حياة أكثر سعادة وهناءة. وانطلاقاً من معتقداتهم تلك كانوا يشنون «الحرب لإنهاء الحرب». ولقد كانوا محظوظين أولئك الذين عانوا مرارة الهزيمة أو الموت مقارنة بأولئك الذين كان من سوء حظهم أنهم خرجوا منتصرين إذ اختزل انتصارهم إلى التشاؤم واليأس نتيجة خيبة آمالهم المتألقة كلها إذ أن المنبع الأساسي لهذه الآمال إنما كان المعتقد المسيحي بالهداية الكارثية باعتبارها طريق الخلاص.

ليس بودي هنا أن أقول إن الثورات ليست ضرورية أبداً لكن بودي القول إنها ليست انقطاعات قصيرة للعصر الألفي السعيد. وليس هناك انقطاع قصير للحياة الصالحة، سواء أكان فردياً أم اجتماعياً. فلكي نشيد حياة صالحة، علينا أن نشيد صرح الفكر، ضبط النفس والتعاطف. هذه مسألة نوعية، مسألة تحسن تدريجي، تدريب مبكر، وتجربة تعليمية. وحده نفاد الصبر يدفع للاعتقاد بإمكانية التحسين المفاجئ. إن التحسين التدريجي الذي هو ممكن والطرق التي يمكن تحقيقه بواسطتها هما قضية علم المستقبل. لكن ثمة ما يمكن قوله الآن، وجزء مما يمكن قوله سأحاول أن أطرحه في القسم النهائي.



5 ـ العلم والسعادة

إن هدف المنظّر الأخلاقي هو تحسين سلوك الناس، وهذا طموح يثنى عليه، نظراً لأن سلوك الناس موضع شجب وإدانة في معظمه. لكنني لا أستطيع أن أثني على منظّر الأخلاق سواء من أجل التحسينات الخاصة التي يرغب بها أو الطرق التي يتبناها لإنجاز ذلك. فطريقته الظاهرية هي الموعظة الأخلاقية وطريقته الحقيقية (إن كان ملتزماً بالدين القويم) هي منظومة من المكافآت والعقوبات الاقتصادية. والتأثيرات السابقة لا شيء عنها مهم أو دائم كما أن تأثير الإحيائيين الدينيين، من سانوفا رولا ونزولا، كان دائماً من النوع سريع الزوال. أما الأخيرة - أي العقوبات والمكافآت - فهي ذات تأثير كبير جداً، إنها تجعل الرجل مثلاً، يفضل العاهرات العرضيات على الصديقة شبه الدائمة، إذ يتعين عليه أن يتبنى الطريقة الأسهل: الإخفاء. إنه بذلك يحافظ ويرفع من أعداد محترفات مهنة خطرة جداً كما يضمن انتشار مرض تناسلي. على أن هذه ليست هي الأهداف التي يرغب منظِّر الأخلاق في الكلام عنها، كما أنه بعيد عن العلمية إلى حد يصعب عليه أن يلاحظ أنها هي الأهداف التي يحققها فعلاً.

هل هناك أفضل من استبدال هذا المزيج اللاعلمي من الوعظ والرشوة؟ أنا أظن أن هناك.

تكون أفعال الناس مؤذية إما بسبب الجهل أو النيات السيئة. هذه النيات «السيئة» عندما نتكلم من وجهة نظر اجتماعية، يمكن تحديدها على أنها الرغبات التي تنزع لانتهاك رغبات الآخرين، أو، على نحو أدق، تلك التي تنتهك الرغبات أكثر مما تساعدها. وليس من الضروري أن نركز على الأذى الذي ينبع من الجهل، فهنا كل ما هو مطلوب المزيد من المعرفة، بحيث يكمن الطريق إلى التحسن في



المزيد من البحث والمزيد من التعليم. لكن الأذى الذي ينبع من الرغبات السيئة هو مسألة أصعب بكثير.

هناك، لدى المرء والمرأة العادية، قدر معين من النزعة النشطة للشر، سواء منها سوء - النية الموجهة إلى الأعداء الخصوصيين أو الشماتة بمصائب الآخرين. ومن المألوف أن نغطي هذه بالعبارات المعسولة التي تشكل الأخلاق التقليدية غطاء لنصفها. لكن ذلك يجب مواجهته، إذا كان منظرو الأخلاق يهدفون لتحقيق أي تحسين لسلوكنا. ذلك يمكن توضيحه بألف طريقة، كبيرة أو صغيرة! في الأغاني الجماعية التي يكررها الناس ويعتقدون أنها فضائحية، في المعاملة القاسية للمجرمين رغم البرهان الواضح بأن المعاملة الحسنة قد تكون ذات تأثير أكبر في إصلاحهم، في الوحشية التي لا تصدق والتي يعامل بها كل البيض كل الزنوج، وفي الاستمتاع الشديد الذي تستخلصه السيدات العجائز ورجال الدين من فرض الخدمة العسكرية على الشبان أثناء الحرب. إذ حتى الأطفال يمكن أن يكونوا أهدافاً للقسوة المتحللة من كل خلة: ودافيد كوبرفيلد كما أوليفر تويست ليسا من صنع الخيال على الإطلاق. نية الشر النشطة هذه هي السمة الأسوأ للطبيعة البشرية وهي السمة التي تبدو الحاجة ماسة أكثر لتغييرها إذا كان على العالم أن يصبح أكثر سعادة. ولعل لهذه الصفة شأناً بنشوب الحروب والنزاعات أكثر من كل الأسباب الاقتصادية والسياسية مجتمعة.

انطلاقاً من مشكلة منع نية الشر هذه، كيف ترانا نتعامل معها؟ أولاً، دعونا نحاول أن نفهم أسبابها، وهذه، كما أعتقد: اجتماعية جزئياً وفيزيولوجية جزئياً أيضاً. فالعالم اليوم كما كان في أي وقت سابق، يقوم على التنافس المصيري، والمسألة التي تطرح في الحرب



هي ما إذا كان أطفال الألمان أو أطفال الحلفاء سيموتون من العوز والجوع. (ولكن بمعزل عن الحقد والضغينة من كلا الجانبين، ليس هناك أدنى سبب لماذا لا ينبغي أن يعيشا كلاهما). فلدى معظم الناس في مؤخرة أذهانهم خوف مقيم من الدمار وهذا ينطبق خصيصاً على الشعوب التي لديها أطفال، خوف شديد من أن الشيوعيين سيصادرون ممتلكاتهم، وخوف أخف من أنهم سيفقدون وظائفهم أو صحتهم. الكل ينشغلون في السعي المجنون لضمان «أمنهم» ويتصورون أن هذا يتحقق بإبقاء الأعداء المحتملين قيد الإذعان والخضوع. في لحظات الخوف هذه، تصبح القسوة واسعة الانتشار إلى أبعد حد كما تغدو أشد فظاعة. يسعى الرجعيون في كل مكان للجوء للخوف، في انكلترا الخوف من الشيوعية في فرنسا الخوف من ألمانيا، في ألمانيا الخوف من فرنسا والأثر الوحيد للجوئهم هذا هو زيادة الخطر الذي يرغبون في اتقائه.

لهذا، يجب أن يكون أحد الاهتمامات الرئيسية للأخلاقي العلمي هو أن يكافح الخوف، وذلك يتم بطريقتين: زيادة الأمن وتنمية الشجاعة. إنني أتكلم عن الخوف كعاطفة لا عقلانية، وليس التحفظ العقلاني من مصاب محتمل. فعندما يشب حريق في مسرح، يرى الإنسان العقلاني الكارثة بوضوح تام مثلما يراها الذي أصابه الهلع والذعر، لكنه يتبنى طرقاً يحتمل أن تخفف من الكارثة، في حين أن الرجل المذعور يتبنى طرقاً تزيدها. لقد كانت أوروبا منذ سنة 1914 مثل جمهور مذعور في مسرح يحترق.

ما هو مطلوب إنما الهدوء، وتوجهات من السلطات المسؤولة ترشد إلى كيفية النجاة دون أن يدوس الناس بعضهم بعضاً حتى الموت. لقد كان العصر الفكتوري، رغم كل خداعه واحتياله، مرحلة



تقدم سريع لان الناس كان يدفعهم الأمل وليس الخوف. وإذا كان علينا أن نحقق تقدماً ثانية، فعلينا أن نستعيد من جديد ذلك الأمل الذي يمكن أن يدفعنا.

كل شيء يزيد من الأمان العام يحتمل أن يخفف من القسوة. هذا ينطبق على منع الحرب، سواء من خلال عصبة الأمم كمؤسسة أو سواها، وكذلك منع الفقر المدقع، الوصول إلى صحة أفضل من خلال تحسين وضع الطب، الشروط الصحية وكل الوسائل الأخرى لتخفيف المخاوف التي تكمن في تلافيف أدمغة الناس وتظهر على شكل كوابيس حين ينامون، لكن لا شيء يتحقق بجعل جزء من الجنس البشري آمناً على حساب جزء آخر - الفرنسيين، مثلاً، على حساب الألمان، الرأسماليين على حساب العمال، البيض على حساب الصفر وهلم جرا. مثل هذه الأساليب تزيد الرعب، ليس إلا، لدى الجماعة المهيمنة، خشية أن تؤدي الكراهية لدى المهيمن عليهم المضطهدين لأن يتمردوا. العدالة وحدها يمكن أن توفر الأمن، وأنا أعني بـ «العدالة» الاعتراف بالمتطلبات المتساوية لكل البشر.

لكن هناك، إضافة إلى التغيرات الاجتماعية الهادفة لتحقيق الأمن، وسائل أخرى أكثر مباشرة لتخفيف الخوف وذلك تحديداً بنظام سائد مصمم لزيادة الشجاعة. لقد اكتشف الناس باكراً، بسبب أهمية الشجاعة في المعركة، وسائل لزيادتها من خلال التعليم والنظام الغذائي - فأكل لحم البشر، مثلاً، كان يفترض أنه مفيد، لكن الشجاعة العسكرية كان ينبغي أن تكون شرطاً لازماً للطبقة الحاكمة: إذ كان على الاسبارطيين أن يمتلكوا المزيد من العبيد، والضباط البريطانيين المزيد من الأتباع الهنود، والرجال المزيد من النساء وهلم جراً. كما كان يفترض طوال قرون من الزمن أن يكون هناك امتياز



للارستوقراطية. ذلك أن كل زيادة في الشجاعة لدى الطبقة الحاكمة كانت تستخدم لزيادة الأعباء على المضطهدين المحكومين، ولذلك تزداد أسس الخوف لدى الحكام المضطهدين، وبالتالي تظل أسباب القسوة كما هي دون نقصان. كذلك ينبغي أن تضفى الديموقراطية على الشجاعة كي يكون باستطاعتها أن تجعل الناس أكثر إنسانية.

لقد سبق وأن أضفيت الديموقراطية على الشجاعة إلى حد كبير في الأحداث الأخيرة. فالمناديات بحق المرأة في الاقتراع أوضحن أن لديهن قدراً من الشجاعة يضاهي ما لدى أشجع الرجال، ذلك الإيضاح كان جوهرياً لاكتسابهن حق الاقتراع. إن الجندي العادي في الحرب يحتاج من الشجاعة قدر ما يحتاج النقيب أو الملازم وأكثر بكثير من الجنرال، ولذلك شأن كبير في تعامله مع الافتقاد للذل بعد التسريح. لا يفتقر البلشفيك، الذين يزعمون أنهم أنصار البروليتاريا. للشجاعة، مهما قيل عنهم. يبرهن على ذلك سجلهم ما قبل الثورة. وفي اليابان حيث كان الساموراي يحتكرون الحمية العسكرية، فإن التجنيد أدى للحاجة إلى الشجاعة لدى السكان الذكور. وهكذا ضمن كل القوى الكبرى، تم فعل الكثير خلال نصف القرن الماضي لجعل الشجاعة غير حكر على الأرستقراطية فقط، ولو لم تكن هذه هي الحال، فإن الخطر على الديموقراطية ربما يكون أكبر بكثير مما هو حالياً.

بيد أن الشجاعة في القتال ليست هي الشكل الوحيد البتة، وربما ليست الشكل الأهم. فهناك الشجاعة في مواجهة الفقر، الشجاعة في مواجهة السخرية، الشجاعة في مواجهة المرء لعدوانية جماعته في هذه الحالات، ربما يتبين أن أشجع الجنود هم غير أكفاء إلى حد يرثى له، فوق ذلك كله، هناك الشجاعة في أن تفكر بهدوء وعقلانية



في مواجهة الخطر وأن تتحكم بدافع الخوف أو ثورانه. هذه، بالتأكيد، أمور يمكن للتعليم أن يساعد في اكتسابها، كما أن تعليم كل شكل من أشكال الشجاعة يغدو أيسر بوجود الصحة الجيدة، البنية الجسدية الجيدة، التغذية المناسبة والتصرف الحر من أجل الدوافع الحيوية الأساسية. ربما بالإمكان اكتشاف مصادر الشجاعة الفزيولوجية من خلال مقارنة دم قطة بدم أرنب. وفي كل ما يشبه ذلك، ليس هناك حد لما يمكن للعلم أن يفعله من أجل زيادة الشجاعة، مثلاً، تجريب الخطر، الحياة الرياضية، والنظام الغذائي المناسب. هذه الأشياء كلها، يتمتع بها أبناء الطبقة العليا إلى حد كبير، طالما أنه ما يزال يتوفر لهم الثروة كشرط مسبق. أما الشجاعة التي تعزَّز حتى الآن لدى الشرائح الأفقر من المجتمع فهي شجاعة الخضوع للأوامر، لا ذلك النوع من المبادرة والقيادة. عندما تصبح الصفات التي تتوفر الآن للقيادة شاملة، لن يظل بعد ذلك قادة وأتباع ولسوف يكون بالإمكان تحقيق الديموقراطية أخيراً.

غير أن الخوف ليس هو المصدر الوحيد للحقد والضغينة، فللحسد والإحباط حصتهما أيضاً. إن حسد الكسيح والأحدب مضرب المثل باعتباره مصدراً للحقد والضغينة، لكن عاهات أخرى غير عاهاتهم هذه تؤدي إلى نتائج مماثلة. فالرجل أو المرأة التي انتهكت جنسياً، حري بها أن تكون مفعمة حسداً وحقداً. هذا، عادة، يتخذ شكل الإدانة الخلقية للأحسن حظاً، وكثير من القوة الدافعة للحركات الثورية يعود إلى الحسد الذي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء.

بالطبع، الغيرة شكل خاص من أشكال الحسد، حسد الحب، كذلك غالباً ما يحسد كبار السن الشبان وحين يفعلون ذلك، يغدو من المحتمل أن يعاملوهم معاملة قاسية.



ليس هناك، على حد علمي، طريقة للتعامل مع الحسد إلا أن نجعل حياة الحسود أكثر سعادة وامتلاء، وأن نشجع لدى الشباب فكرة المشاريع الجمعية بدلاً من التنافس. إن أسوأ أشكال الحسد تظهر لدى أولئك الذين لا يعيشون حياة ممتلئة من خلال الزواج أو الأطفال أو الحياة المهنية. سوء حظ كهذا يمكن تفاديه في معظم الحالات من خلال مؤسسات اجتماعية أفضل، مع ذلك يجب الإقرار بأن أثراً باقياً للحسد لا بد أن يظل. في التاريخ، ثمة أمثلة كثيرة عن جنرالات كانوا يغارون كثيراً من بعضهم إلى حد أنهم كانوا يؤثرون الهزيمة على تعزيز سمعة جنرال آخر. كذلك فإن سياسيين من الحزب ذاته أو فنانين من المدرسة ذاتها من المؤكد تقريباً أنهما يغاران واحدهما من الآخر. في حالات كهذه، يبدو أنه ما من شيء يمكن فعله، إلا أن نرتب، ما أمكن، أن يكون المنافس غير قادر على إلحاق الأذى بالآخر، وأن يكون قادراً على الفوز فقط باستحقاق المتفوق. فغيرة فنان من منافس لا تسبب عادة، إلا القليل من الأذى، لأن الطريقة الوحيدة الفعالة لتحقيق ذلك، إنما هي أن يرسم لوحات أفضل من لوحات منافسه، نظراً لأنه غير متاح له أن يخرب لوحات منافسه. لكن، حين لا يكون بالإمكان تجنب الحسد، ينبغي استخدامه كمحرض دافع لجهود المرء الخاصة وليس لانتهاك جهود المنافسين.

إن إمكانيات العلم على طريق زيادة السعادة البشرية هي إمكانات لا تنحصر فقط بتخفيف تلك الجوانب من الطبيعة البشرية التي تقف وراء الهزيمة المتبادلة والتي، لهذا السبب، ندعوها «سيئة». فربما ليس هناك حد لما يمكن للعلم أن يفعله في مجال زيادة التميز الإيجابي. لقد تم من قبل تحسين الصحة إلى حد كبير، ورغم نحيب أولئك الذين يؤمنون بالماضي الذهبي، فإننا الآن نعيش حياة أطول



ونصاب بأمراض أقل من أية طبقة أو أمة في القرن الثامن عشر. ومع مزيد من التطبيق للمعرفة التي توفرت لدينا من قبل، يمكننا أن نكون بصحة أفضل بكثير مما نحن الآن. كما أن من المحتمل أن تسرّع اكتشافات المستقبل من هذه العملية إلى حد كبير.

إنه العلم الطبيعي الذي كان له، حتى الآن، أشد التأثير على حياتنا، لكن في المستقبل يحتمل أن يكون للفيزيولوجيا والسيكولوجيا دور أكبر بكثير، فحين نكتشف كم تعتمد الشخصية على الشروط الفيزيولوجية، سنكون قادرين، إذا اخترنا ذلك، أن ننتج المزيد من نمط الكائن البشري الذي يعجبنا. الذكاء، المقدرة الفنية، حب الخير - كل هذه الأشياء يمكن زيادتها بواسطة العلم ولا شك فهناك لا يبدو أي حد لما يمكن فعله من أجل إنتاج عالم خيّر، فقط إذا استخدم الناس العلم بشيء من الحكمة. لقد عبرت في مكان آخر عن مخاوفي من أن لا يستخدم الناس استخداماً حكيماً القدرة التي يستمدونها من العلم. في الوقت الحاضر، أنا معني بالخير الذي يمكن للناس أن يفعلوه إذا اختاروا، دون السؤال عما إذا كانوا سيختارون بدلاً من ذلك أن يفعلوا الأذى.

ثمة موقف معين حيال تطبيق العلوم على الحياة البشرية وهو موقف أتعاطف معه، رغم أنني، بالتحليل الأخير، لا أتفق معه. إنه موقف أولئك الذين يخافون من كل ما هو «غير طبيعي». وروسو، بالطبع، هو المناصر الأكبر لهذه النظرة في أوروبا. في آسيا، هناك لاو- تسي الذي دفع ذلك الموقف قدماً على نحو أشد إقناعاً وأبكر بـ2400 سنة، إنني أظن أن هناك مزيجاً من الحقيقة والزيف في الإعجاب بالطبيعة، من المهم هنا أن نفككه. لنبدأ بالسؤال ما هو «الطبيعي»؟ إنه، إذا ما تكلمنا على نحو تقريبي، أي شيء ألفه



المتكلم في طفولته. لاو - تسي يعترض على الطرق والعربات والزوارق، وكلها ربما كانت غير معروفة في القرية حيث ولد. روسو كان معتاداً على هذه الأشياء ولا ينظر إليها على أنها ضد الطبيعة، لكنه كان ولا شك سيشن حملة صاعقة على سكك الحديد لو عاش إلى أن رآها. الثياب والطبخ أقدم بكثير من أن يشجبها معظم رسل الطبيعة رغم أنهم جميعاً يعترضون على الأزياء الجديدة في كلا المجالين. كما أن الناس الذين يتحملون العزوبية ينظرون إلى تحديد النسل على أنه رديء لأنه انتهاك جديد للطبيعة فيما الأول أمر قديم مألوف. بهذه الطرق كلها يعتبر أولئك الذين يعظون بالعودة إلى «الطبيعة» غير متماسكين. وهناك ما يغري المرء باعتبارهم مجرد محافظين.

مع ذلك، ثمة ما يمكن قوله لصالحهم. لنأخذ مثلاً الفيتامينات التي أحدث اكتشافها انقلاباً لصالح الأغذية «الطبيعية» لكن يبدو أن الفيتامينات يمكن تقديمها عن طريق زيت كبد سمك القد. كذلك ضوء الكهرباء الذي لا يشكل بالتأكيد جزءاً من النظام الغذائي للكائن البشري. هذه الحالة توضح أنه، في غياب المعرفة، يمكن أن يحدث أذى غير متوقع عن طريق انفصال جديد عن الطبيعة، لكن عندما نتوصل إلى فهم الأذى يمكن عادة علاجه بمواد صنعية جديدة. أما فيما يتعلق ببيئتنا الطبيعية ووسائلنا المادية لتلبية رغباتنا، فإنني لا أظن أن عقيدة «الطبيعة» تبرر أي شيء يتجاوز حرصاً تجريبياً ما في تبني وسائل جديدة. الثياب مثلاً، مناقضة للطبيعة ولا بد من أن يلحق بها ممارسة أخرى غير طبيعية، وهي تحديداً الغسيل، إذا أردنا أن لا تسبب لنا المرض. لكن الممارستين معاً تجعلان الإنسان أفضل صحياً من المتوحش الذي يتجنبهما كلتيهما.



ثمة المزيد مما يمكن قوله بالنسبة «للطبيعة» في عالم الرغبات البشرية. فأن نفرض على رجل أو امرأة أو طفل حياة تنتهك أقوى الدوافع لديه هو أمر خطر وقاس على السواء. في هذه الحالة، يجب إدانة هذه الحياة، وفقاً للطبيعة، بشروط معينة. إذ لا شيء يمكن أن يكون اصطناعياً أكثر من سكة حديد كهربائية تحت الأرض، لكن ما من عنف سيلحق بطبيعة الطفل إذا ما سافر عليها. بالعكس كل الأطفال يجدون التجربة ممتعة. والأشياء المصطنعة التي تلبي رغبات الإنسان العادي هي جيدة، إذا ما تساوت الأمور الأخرى. لكن ما من شيء يمكن قوله فيما يتعلق بأساليب الحياة الاصطناعية بمعنى أن تكون مفروضة من قبل سلطة أو ضرورة اقتصادية. أساليب حياة كهذه، ولا شك، هي ضرورية إلى حد ما في الوقت الحاضر، فالسفر في المحيطات كان سيصبح صعباً جداً لو لم يتوفر وقادون في السفن التجارية. لكن ضرورات من هذا النوع هي مدعاة للندم وعلينا أن نبحث عن طرق لتجنبها. إن قدراً معيناً من العمل ليس بالأمر الذي يدعو للشكوى، والحقيقة أنه، في تسعة أعشار الحالات، يجعل الإنسان أكثر سعادة من البطالة التامة. لكن مقدار العمل ونوعه، ذاك الذي يتعين على الناس أن يقوموا به حالياً هو شر خطير. وإنه لسيء على نحو خاص الارتباط طوال الحياة بنظام روتيني معين. فالحياة يجب ألا تكون شديدة التنظيم أو شديدة المنهجية، ودوافعنا، حين لا تكون تخريبية أو مؤذية للآخرين، يجب ما أمكن أن نترك لها حرية التصرف وأن يكون هناك فسحة للمغامرة. إن علينا أن نحترم الطبيعة البشرية لأن دوافعنا ورغباتنا هي المادة التي تصنع منها سعادتنا. ولا جدوى من أن نمنح الناس شيئاً يعتبر بشكل مطلق «جيداً». يجب أن نمنحهم ما يرغبون به أو يحتاجونه إذا كنا نعمل من أجل سعادتهم. يمكن للعلم أن يعرف مع الزمن كيف يصوغ رغباتنا بحيث لا تتصارع



مع رغبات الآخرين بالطريقة ذاتها التي تحدث بها الأمور الآن. حينذاك، سنكون قادرين على تلبية نسبة من رغباتنا أكثر مما هي النسبة حالياً. بذلك المعنى وبه فقط، ستصبح رغباتنا حينذاك «أفضل». إن رغبة بعينها لا تكون أفضل ولا أسوأ إذا نظرنا إليها بمعزل عن أية رغبة أخرى غير أن مجموعة من الرغبات تكون أفضل من مجموعة أخرى إذا كانت كل رغبات المجموعة الأولى ممكنة التلبية في الآن نفسه، فيما بعض رغبات المجموعة الثانية لا تكون متساوقة مع رغبات الأخرى وذلك يفسر لماذا الحب أفضل من الكراهية.

من الحماقة أن نحترم الطبيعة المادية، فهذه يجب أن تخضع للدراسة مع التوجه في أن نجعلها تخدم الإنسان وغاياته ما أمكن، لكنها تبقى أخلاقياً لا خيرة ولا شريرة، وحيث تتماس الطبيعة البشرية مع الطبيعة المادية، كما في مسألة السكان مثلاً، لا حاجة لأن نطوي أيدينا بإعجاب سلبي وأن نقبل الحرب، الوباء، والمجاعة باعتبارها الوسائل الوحيدة الممكنة للتعامل مع الخصب المفرط. اللاهوتيون يقولون: إنه لأمر رديء، في هذه المسألة، أن نطبق العلم على الجانب الطبيعي من المشكلة، بل علينا (كما يقولون) أن نطبق الأخلاق على الجانب البشري ونمارس التقشف. وبغض النظر عن حقيقة أن الكل، بما فيهم اللاهوتيون، يعرفون أنه ما من أحد سيأخذ بنصيحتهم، نسأل لماذا هو أمر رديء أن تحل مشكلة السكان بتبني وسائل مادية محسوسة لمنع الحمل؟ لا جواب على ذلك السؤال إلا الجواب القائم على أسس عقائدية بالية ومن الواضح أن العنف الذي يمارس على الطبيعة والذي يناصره اللاهوتيون هو على الأقل بحجم العنف الذي يتعلق بتحديد النسل. إنهم يفضلون العنف الذي يمارس على الطبيعة البشرية



والذي حين يمارس بنجاح، يشتمل على الشقاء، الحسد، الميل للاضطهاد، وغالباً الجنون وإنني لأفضل «العنف» الذي يمارس على الطبيعة المادية والذي هو من نوع العنف المتعلق بمحرك بخاري أو حتى في استخدام مظلة. هذا المثل يبين كم هو غامض وغير مؤكد تطبيق المبدأ القائل بأن علينا أن نتبع «الطبيعة».

شيئاً فشيئاً، ستكف الطبيعة، حتى الطبيعة البشرية عن أن تكون معطى مطلقاً وشيئاً فشيئاً ستصبح ما يستطيع التدبير العلمي أن يجعل منها. إذ باستطاعة العلم، إن هو اختار، أن يجعل أحفادنا قادرين على عيش الحياة الصالحة وذلك بإعطائهم المعرفة، ضبط - النفس والصفات التي تؤدي إلى التناغم والتجانس بدلاً من النزاع والصراع. في الوقت الحاضر، هو يعلم أطفالنا أن يقتلوا بعضهم بعضاً، لأن الكثيرين من رجال العلم يرغبون في أن يضحوا بمستقبل البشر من أجل منفعتهم الآنية. لكن هذه الحالة ستمضي حين يكتسب الناس السيطرة ذاتها على عواطفهم، تلك السيطرة التي اكتسبوها من قبل على القوى الطبيعية للعالم الخارجي. حينذاك سنحصل أخيراً على حريتنا.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع

هل نبقى بعد الموت؟

هذه المقالة نشرت لأول مرة سنة 1936 في كتاب بعنوان «أسرار الحياة والموت». أما المقالة التي كتبها الأسقف بارنز والتي يشير إليها رسل فقد ظهرت في الكتاب ذاته.

قبل أن نتمكن من أن نناقش بشكل مفيد ما إذا كنا سنستمر في الوجود بعد الموت أم لا، من المستحسن أن نكون واضحين فيما يتعلق بالمعنى الذي يكون فيه إنسان ما هو الشخص نفسه الذي كان بالأمس. يفكر الفلاسفة عادة أن هناك شيئين محددين، هما الروح والجسد، يستمران معاً يوماً بعد يوم وأن الروح، ما إن يتم خلقها، حتى تستمر في الوجود عبر المستقبل كله، في حين يتوقف الجسد مؤقتاً بسبب الموت إلى أن يتم بعث هذا الجسد.

إن جزءاً من هذا المعتقد، أي ما يتعلق بحياتنا الحالية هو زائف جداً بالتأكيد. فالمادة التي يتكون منها الجسد تتغير باستمرار نتيجة عمليات التغذية والتلف. وحتى إن لم يحدث هذا؛ فإن الذرات في الفيزياء لم يعد أحد يفترض أنها ذات وجود مستمر، إذ لا معنى في أن تقول: هذه نفس الذرة التي كانت موجودة قبل بضع دقائق. إن استمرارية الجسم البشري هي مسألة مظهر وسلوك وليس مسألة مادة.



الأمر ذاته ينطبق على العقل. إننا نفكر ونشعر وَنتصرف لكن ليس هناك، إضافة إلى الأفكار والمشاعر والأفعال، كينونة، خالصة للعقل أو الروح تشعر أو تقوم بهذه الأعباء. إن الاستمرارية الذهنية للإنسان هي استمرارية العادة والذاكرة، ففي الأمس كان هناك شخص له مشاعر يمكنني أن أتذكرها وهو ذلك الشخص الذي أعتبره أنا نفسي أمس، لكن في الحقيقة، أنا الأمس مجرد وقائع ذهنية معينة يمكنني فقط أن أتذكرها الآن وتعتبر جزءاً من الشخص الذي يتذكرها اللحظة، فكل ما يشغل الإنسان إنما هو سلسلة من التجارب المرتبطة بالذاكرة وبعض الأعمال المتشابهة من ذلك النوع الذي نسميه عادة.

لهذا السبب، إذا كان علينا أن نعتقد أن شخصاً ما سيبقى بعد الموت، فإن علينا أن نعتقد أن الذكريات والعادات التي يتكون منها ذلك الشخص ستستمر لتعرض بحلة جديدة من الحوادث. الحقيقة، ما من أحد يستطيع أن يبرهن أن هذا لن يحدث. أي أن من السهل أن نرى أنه أمر غير محتمل إلى حد بعيد. فذاكراتنا وعاداتنا مرتبطة ببنية الدماغ بالطريقة نفسها التي يرتبط فيها النهر بحوضه. في النهر، الماء دائماً في حالة تغير لكنه يظل في المجرى ذاته لأن الأمطار السابقة هي التي رسمت المجرى. وبأسلوب مشابه، فإن الوقائع السابقة هي التي شقت لها مجرى في الدماغ وأفكارنا تتدفق على طول هذا المجرى وذلكم هو سبب الذاكرة والعادات الذهنية. لكن الدماغ، كبنية، يتحلل عند الموت، كذلك يتوقع أن تتحلل الذاكرة أيضاً وليس هناك من سبب يدعونا لأن نفكر بطريقة أخرى غير توقعنا أن يستمر نهر في مجراه القديم إثر زلزال يرفع جبلاً حيث كان هناك وادٍ من قبل.

كل ذاكرة، ولذلك (يمكن للمرء أن يقول) كل العقول تعتمد على الخاصة التي يمكن للمرء ملاحظتها كثيراً في بعض أنواع البنى



المادية لكن لا يمكن ملاحظتها إلا قليلاً، إن لوحظت أصلاً، في بعض الأنواع الأخرى. إنها خاصة تشكل العادات نتيجة لوقائع متماثلة تتكرر. مثال على ذلك، النور الساطع يجعل بؤبؤي العينين يتقلصان، وإذا ما عرضت عيني شخص ما لنور ساطع بشكل متكرر وقرعت جرساً في الآن نفسه، فإن قرع الجرس وحده في النهاية، سيجعل بؤبؤيه يتقلصان، هذه حقيقة تتعلق بالدماغ والجملة العصبية، أي تتعلق ببنية مادية ما. ولسوف نرى أن هناك حقائق مشابهة تماماً تفسر استجابتنا للغة واستخدامنا لها، لذكرياتنا والعواطف التي تستثيرها، لعاداتنا الخلقية وغير الخلقية في سلوكنا، وبالحقيقة لكل شيء يشكل شخصيتنا الذهنية، ما عدا الجزء الذي تحدده الوراثة؛ هذا الجزء ينتقل من خلالنا إلى ذريتنا لكن لا يمكن، لدى الفرد، أن يبقى بعد تفسخ وانحلال الجسد، لهذا، فإن كلاً من الأجزاء الموروثة والمكتسبة من الشخصية، إلى الحد الذي نعرفه بالتجربة، مرتبط ومحكوم بصفات بنيات جسدية معينة. إننا جميعاً نعلم أن الذاكرة يمكن أن تمسح نتيجة إصابة تصيب الدماغ وأن شخصاً فاضلاً يمكن جعله رذيلاً بواسطة السبات الناجم عن التهاب الدماغ. كما يمكن تحويل طفل ذكي إلى أبله نتيجة نقص اليود. ومن منظور وقائع مألوفة كهذه، لا يبدو من المحتمل أن يبقى العقل بعد الدمار الكلي لبنية الدماغ الذي يحدث إثر الموت.

إنها المشاعر، وليست الحجج العقلانية التي تجعلنا نؤمن بحياة مستقبلية، وأهم هذه المشاعر الخوف من الموت، الذي هو غريزي ومفيد بيولجياً. فإذا آمنا بإخلاص ومن صميم قلوبنا بالحياة المستقبلية، يتوجب علينا أن نكف عن الخوف من الموت، والنتائج ستكون غريبة وربما على النحو الذي سيأسف له معظمنا. لكن أسلافنا البشريين وشبه البشريين قاتلوا وقضوا على أعدائهم خلال أجيال



جيولوجية عديدة وانتفعوا بالشجاعة، لذلك من المفيد للمتصر في صراع من أجل الحياة أن يكون قادراً على التغلب على الخوف الطبيعي من الموت. بين الحيوانات والمتوحشين، ربما يكفي حب القتال الغريزي لهذا الغرض، لكن في مرحلة معينة من التطور، كما أثبت المسلمون لأول مرة، فإن الإيمان بالفردوس له قيمة عسكرية كبيرة كمعزز لحب القتال الطبيعي. لهذا علينا أن نعترف أن ذوي النزعة العسكرية حكماء في تشجيعهم الإيمان بالخلود، مفترضين دائماً أن هذا الإيمان لن يصبح عميقاً جداً بحيث يؤدي إلى اللامبالاة بشؤون الدنيا.

ثمة عاطفة أخرى تعزز الإيمان بالبقاء، ألا وهي الإعجاب بتميز الإنسان. فكما يقول أسقف برمنغهام: «دماغه أحسن حجة بكثير من أي شيء ظهر من قبل - إنه يعلم الصواب والخطأ، كما أن بإمكانه أن يبني دير ويستمنستر، أن يصنع طائرة وأن يحسب المسافة بين الأرض والشمس. فهل الإنسان، بعدئذ، يهلك كلياً عند الموت؟ هل تلك الأداة التي لا نظير لها، عقله، تنتهي عندما تنتهي الحياة؟».

ثم يمضي الأسقف ليناقش بأن «الكون شكله الإله، كما أنه يديره بهدف ذكي، وأنه سيكون عملاً غير ذكي، وقد صنع الإنسان، أن يتركه يهلك».

على هذه الحجة ثمة ردود كثيرة. ففي المقام الأول، تبين لدى التقصي العلمي للطبيعة، أن تدخل القيم الأخلاقية أو الجمالية كان دائماً عائقاً أمام الاكتشاف فقد كانوا يفكرون عادة بأن الأجرام السماوية يجب أن تتحرك ضمن دوائر، لأن الدائرة هي الانحناء الأشد اكتمالاً، وأن الأجناس يجب أن تكون ثابتة غير قابلة للتغير لأن الإله يخلق ما هو كامل فقط، لذلك يثبت دونما حاجة للتحسين، وأنه



من غير المجدي مكافحة الأوبئة إلا بالندم والتوبة لأنها جاءت عقاباً على ما ارتكبناه من آثام وهلم جراً. مع ذلك، فقد اكتشفنا، بقدر ما يمكننا اكتشافه، أن الطبيعة لا تبالي بقيمنا وأن من الممكن فهمها أفضل، بتجاهل أفكارنا المتعلقة بالخير والشر، ثم قد يكون للكون هدف، لكن لا شيء مما نعرفه يوحي، إن كان الأمر كذلك، بأن ذلك الهدف يشبه أياً من أهدافنا نحن.

وليس في هذا ما يثير الدهشة. فالدكتور بارنز يخبرنا أن الإنسان «يعرف الخطأ والصواب»، لكن بالحقيقة تبين لنا الانتروبولوجيا أن وجهات نظر الناس حول الخطأ والصواب تتغير إلى حد أنه ما من بند واحد منها ثبت على الدوام. لهذا، لا يمكننا القول إن الإنسان يعرف الخطأ والصواب بل فقط بعض الناس يعرفون، لكن أيهم؟ نيتشه ناقش لصالح أخلاق تختلف كثيراً عن أخلاق المسيح، وبعض الحكومات القوية قبلت تعاليمه. فإذا كان على معرفة الخطأ والصواب أن تكون حجة لصالح الخلود، فإن علينا أن نقرر أولاً ما إذا كنا سنؤمن بالمسيح أو بنيتشه ومن ثم نناقش بأن المسيحيين خالدون، لكن هتلر وموسوليني ليسا كذلك أو العكس بالعكس. لكن من الواضح أن المعركة هي التي ستبت بالقرار وليس المكتب. فأولئك الذين لديهم أفضل غاز سام ستكون لهم أخلاق المستقبل ولذلك هم الذين سيبقون.

إن مشاعرنا ومعتقداتنا حول موضوع الخير والشر، مثل كل شيء آخر حولنا، هي حقائق طبيعية تطورت عبر الصراع من أجل الوجود، دون أن يكون لها أي منشأ إلهي أو خرافي. ففي إحدى خرافات إيسوب، يعرض على الأسد صور لصيادين بشر يمسكون بأسود فيلاحظ الأسد أنه لو كان هو الذي رسم تلك اللوحات، لكان



سيرسم الأسود هي التي تمسك بالصيادين. إن الإنسان، كما يقول د. بارنز، شخص رائع لأن باستطاعته أن يصنع طائرة وقبل زمن قليل، كانت هناك أغنية شعبية حول ذكاء الذباب لقدرته على المشي مقلوباً على السقف، فيما الجوقة تردد: «هل باستطاعة لويد جورج أن يفعل ذلك؟ هل يستطيع السيد بولدوين أن يفعل ذلك؟ أو باستطاعة رايس ماك؟ لم لا؟» على هذا الأساس، يمكن لذبابة ذات عقل لاهوتي أن تقدم حجة قد يجدها الذباب الآخر، ولا شك، أشد إمتاعاً.

الأكثر من ذلك أننا فقط حين نفكر بشكل مجرد، يكون لدينا مثل هذا الرأي الرفيع عن الناس. أما الناس في الواقع المحسوس، فإن معظمنا يفكرون أن الغالبية العظمى منهم سيئون، إذ تنفق الدول المتحضرة أكثر من نصف وارداتها على قتل مواطني بعضها بعضاً. لننظر إلى التاريخ الطويل من الفعاليات التي تمت بوحي من الحمية الأخلاقية: ضحايا بشرية، اضطهادات هراطقة، اصطياد ساحرات، مذابح آمنين، وصولاً إلى القضاء بالجملة على الناس بواسطة الغازات السامة التي يفترض أن واحداً على الأقل من زملاء بارنز يفضلها، طالما أنه يؤمن أن النزعة السلمية نزعة غير مسيحية. هل هذه الأشياء البغيضة والمعتقدات الأخلاقية التي تشكل دافعاً لها دليل فعلي على وجود خالق ذكي أو هل يمكننا فعلاً أن نراقب في أن يعيش الناس الذين يمارسونها إلى الأبد؟ من الممكن أن نفهم العالم الذي يعيش فيه على أنه نتاج «اللخبطة» والمصادفة، لكن أن يكون محصلة غاية مقصودة، فإن تلك الغاية لا بد وأن تكون غاية شيطانية. وإنني، من جهتي لأجد المصادفة فرضية أقل إيلاماً وأكثر قبولاً بكثير.



الفصل الخامس

يبدو يا سيدتي؟ بل، هو كذلك

(كتبت هذه المقالة سنة 1899، لكن لم تنشر من قبل. لقد أعيد تحريرها بشكل رئيسي لأهميتها التاريخية، نظراً لأنها تمثل تمرد رسل الأول ضد فلسفة هيغل، تلك التي كان أحد المتمسكين بها في أيامه الأولى في كامبريدج، ورغم أن معارضته للدين لم تكن تلك الأيام معلنة، كما حدث منذ الحرب العالمية الأولى، إلا أن بعض انتقاداته قامت بالأصل على الأسس ذاتها).

إن الفلسفة، حين كانت ما تزال في عزها ومزدهرة، كانت تدعي أنها قدمت لأنصارها المتحمسين، أنواعاً مختلفة من أهم الخدمات. لقد قدمت لهم الراحة عند المحنة، التفسير حين مواجهة الصعوبات الفكرية والإرشاد في حالة الحيرة الأخلاقية. ولا عجب إذا كان «الأخ» الأصغر حين قُدّمت له أمثلة عن استخداماتها، قد هتف بحماسة الشباب:

كم هي ساحرة، الفلسفة المقدسة!!

ليست قاسية ولا معقدة مبهمة، كما يفترض الحمقى البلداء

بل هي موسيقية مثلما هو عود أبولو

لكن تلك الأيام السعيدة ولت. فالفلسفة، نتيجة انتصارات ذريتها البطيئة، أرغمت على أن تتخلى عن ادعاءاتها العالية، الواحدة تلو الأخرى، إن الجزء الأهم من حل الصعوبات الفكرية إنما تم بواسطة



العلم - والادعاءات القلقة للفلسفة حول بعض المسائل الاستثنائية التي ما تزال تسعى لحلها تعتبر من قبل سواد الناس على أنها من بقايا العصور المظلمة وهي قيد الانتقال بكل السرعة الممكنة إلى العلم الصارم للسيد إف. مايرز. أما حالات الحيرة الأخلاقية - التي كانت حتى وقت قريب، ودون تردد في عهدة الفلاسفة ومجالهم الخاص - فقد تخلى عنها ماك تاغرت والسيد برادلي لنزوات علم الإحصاء والرأي العام. غير أن القدرة على منح الراحة والمواساة ـ آخر قدرة لمن ليس له قدرة - ما تزال تفترض من قبل ماك تاغرت أنها تمت للفلسفة. إنها هذه الملكية الأخيرة التي أود، الليلة، أن أسلبها من الوالد الهرم لآلهتنا المعاصرين.

قد يبدو، للوهلة الأولى، أن المسألة يمكن حلها بسرعة كبيرة. «أنا أعلم أن الفلسفة يمكن أن تمنح الراحة». يقول ماك تاغرت، «لأنها بالتأكيد تريحني». مع ذلك سأحاول أن أبرهن أن تلك الاستنتاجات التي تمنحه الراحة هي استنتاجات لا تتماشى مع موقفه العام - الذي لا يتابعه بالحقيقة، وبشكل معروف، بل يحتفظ به فقط، وكما يبدو، لأنه يمنحه الراحة.

وبما أنني لا أرغب في مناقشة حقيقة الفلسفة، بل فقط قيمتها العاطفية، فإنني سأفترض أنه نوع من الميتافيزيقا ما يقوم على التمييز بين الظاهر والحقيقة وأن الأخيرة أبدية وكاملة. إن المبدأ الذي تقوم عليه أي ميتافزيقا كهذه يمكن وضعه في قشرة جوزة، «الإله في سمائه، وكل ما يتعلق بهذا العالم خطأ» تلك كلمته الأخيرة، لكن يفترض، على ما يبدو، نظراً لأنه في سمائه وهو دائماً كان هناك، أننا يمكن أن نتوقع أن يهبط ذات يوم إلى الأرض - إن لم يكن لمحاكمة الأحياء والأموات، فعلى الأقل لمكافأة الفلاسفة على إيمانهم. غير أن



اعتزاله الطويل وتمسكه بوجوده السماوي الخالص يمكن أن يوحي، فيما يخص شؤون الأرض، بنوع من الرواقية التي سيكون من الطيش أن نبني عليها آمالنا.

لكن لنتكلم بجد. القيمة العاطفية لأي معتقد، باعتباره راحة وقت الشدة، تعتمد، على ما يبدو، على تكهنه بالمستقبل. فالمستقبل، إذا ما تكلمنا على نحو عاطفي، أكثر أهمية من الماضي أو حتى من الحاضر. «كل ما هو حسن ينتهي بشكل حسن» هكذا هو القول المأثور للرأي العام الشائع. و«كثيراً ما ينقلب صباح كئيب إلى يوم رائع» هذا تفاؤل في حين يقول التشاؤم:

كم من صباح رائع قد شهدت

وكم أطريت ذرى الجبال بعين المسيطر

مقبلاً بوجه ذهبي المروج الخضراء

مذهّباً التيارات الشاحبة بالكيمياء السماوية

في وقت آخر، كم سمحت لأدنى الغيوم أن تجري

مع القزعات البشعة على وجهه السماوي

ومن العالم الوحيد أن تختفي صورته

متسللة، غير مرئية، إلى الغرب بكل هذا الخزي

إذن، عاطفياً، تعتمد نظرتنا إلى الكون سواء أكان خيراً أم شراً، على المستقبل، على ما سوف يكون، فنحن معنيون دائماً بالظواهر في حينها، وما لم نكن متأكدين من أن المستقبل ينبغي أن يكون أفضل من الحاضر، فإن من الصعب أن نرى أين يتعين علينا أن نجد العزاء.



وهكذا، يرتبط المستقبل، بالواقع، وإلى حد كبير بالتفاؤل الـذي يضطر ماك تاغرت نفسه، رغم أن كل تفاؤله يعتمد على إنكار الزمن، لأن يقدم المطلق على أنه حالة مستقبلية على الأشياء باعتباره «ذلك التناغم الذي لا بد من أن يصبح واضحاً ذات يوم». لكن ليس من اللطف أن ننبه إلى هذا التناقض، كما هو شأن تاغرت نفسه الذي جعلني مدركاً له. غير أن ما أود أن أنبه له هو أن أية راحة تستمد من العقيدة القائلة: بأن الحقيقة الباقية على مر الزمن والصالحة أبداً إنما تستمد فقط، وبصورة حصرية، من خلال هذا التناقض، فالحقيقة الأبدية قد لا تكون لها صلة حميمية بالمستقبل أكثر من صلتها بالماضي: وإن لم يظهر كمالها حتى الآن، فليس هناك من سبب يدعونا لأن نفترض أنه سيظهر - والحقيقة، هناك كل احتمال بأن الإله سيبقى في سمائه، كما يمكننا، بأدب مماثل، أن نتكلم عن التناغم الذي لا بد أن يتضح ذات مرة. وقد يكون من الممكن أن «حزني يقع أمامي ومرحي خلفي» - بذلك يتضح كم يقدم لنا هذا من راحة ضئيلة.

إن تجاربنا كلها مرتبطة بالزمن، وليس من الممكن أن نتصور تجربة بلا زمن. لكن حتى لو كان ذلك ممكناً، لا يمكننا أن نفترض أنه سيكون لنا أي تجربة كهذه، دون أن نقع في التناقض.. من هنا فإن كل تجربة، ولا شيء آخر، يمكن للفلسفة أن تبينها، يحتمل أن تكون شبيهة بالتجارب التي نعرفها - وإن بدا هذا شيئاً لنا، ما من عقيدة تميز الحقيقة عن الظاهر يمكن أن تعطينا أملاً بأي شيء أفضل. إننا نسقط، بالحقيقة، في ازدواجية لا أمل منها، فمن جهة، لدينا العالم الذي نعرفه بأحداثه، سارة كانت أم غير سارة، بما فيه من موت. إخفاق وكوارث، ومن جهة أخرى هناك عالم متخيل، نعمّده نحن بأنه عالم الحقيقة معوضين بذلك، ومن خلال ضمانة تلك الحقيقة، عن غياب أية إشارة على أن هناك عالماً كهذا بالفعل. والأساس



الوحيد الآن لعالم الحقيقة هذا هو أن هذا ما يجب أن تكون عليه الحقيقة إن كان بإمكاننا أن نفهمها. لكن إذا كانت نتيجة بنياننا المثالي الخالص ستنقلب إلى شكل مختلف جداً جداً عن العالم الذي نعرفه - وهو العالم الحقيقي بالواقع - بل أكثر من ذلك إذا كان سينشأ عن هذا البنيان أننا لن نعيش أبداً أو نجرب ما يدعى بعالم الحقيقة، إلا بالمعنى الذي جربنا فيه سابقاً لا شيء آخر - إذن، لا يمكنني أن أرى، بقدر ما تتعلق المسألة بالراحة، شيئاً من علل الحاضر. ما ترانا كسبنا من كل ميتافيزيقانا تلك؟ لنأخذ، مثلاً، مسألة كمسألة الخلود. الناس يرغبون في الخلود سواء كتعويض عن المظالم التي تلحق بهم في هذا العالم أو، وهو دافع أكثر احتراماً، باعتباره يقدم احتمالاً، في الالتقاء ثانية بأولئك الذين يحبهم الإنسان، هذه الرغبة نشعر بها جميعاً، وبالنسبة لأولئك الذين يمكن إرضاؤهم، إذا كانت الفلسفة ترضي، هو موضع امتنان إلى حد لا يقاس، لكن الفلسفة، في أحسن الأحوال، يمكن فقط أن تؤكد لنا أن الروح هي حقيقة أبدية. لكن في أية لحظة من الزمن، إن كان هناك أية لحظة، يمكن أن تظهر فهو أمر لا علاقة لهم به البتة، كما أنه ليس هناك دليل مشروع من عقيدة كهذه على الوجود بعد الموت وربما ما يزال كيتس نادماً.

أنا لن أنظر إليك أكثر

ولن أستمتع بالقوة الشيطانية

للحب الطائش!!

كذلك لا يمكن مواساته كثيراً بالقول له إن «مخلوقاً حسناً لساعة» ليست عبارة دقيقة ميتافيزيقياً. إذ ما يزال صحيحاً أنه «سيأتي الوقت الذي سيمضي بحبي بعيداً». وأن تلك الفكرة «كالموت الذي لا يمكن الاختيار سوى البكاء على ملكية ما يُخشى فقده». هكذا



الأمر بالنسبة إلى كل جزء من المعتقدات الخاصة بالحقيقة الأبدية الكاملة. إذ مهما تبدو شريرة الآن - وهو الشرط المؤسف للشر الذي لا بد منه، على ما يبدو ـ ومهما يظهر من شر الآن فقد يبقى، لأن علينا أن نعرف خلال الزمن كله، كيف نعذب آخر أحفادنا. وفي معتقد كهذا، ليس هناك، برأيي، أي أثر لراحة أو عزاء.

صحيح أن المسيحية، وكل النزعات التفاؤلية السابقة، قدمت العالم على أنه محكوم إلى الأبد بعناية إلهية خيرة ولذلك فهو ميتافزيقياً جيد. لكن هذا كان، في حقيقته، مجرد حيلة للبرهنة على الامتياز المستقبلي للعالم - والبرهنة، مثلاً، على أن الناس الصالحين سيكونون سعداء بعد الموت. إنه دائماً ذلك الاستنتاج- المصنوع بصورة غير شرعية طبعاً - الذي كان يمنح الراحة. «إنه شخص طيب، ولسوف يكون بخير تماماً».

يمكن القول، بالحقيقة، إن هناك راحة بمجرد الاعتقاد المطلق بأن الحقيقة خير. أنا نفسي لا أقبل بالرهان على هذا المعتقد، لكن حتى لو كان صحيحاً، فأنا لا أستطيع أن أرى لماذا يجب أن يكون مريحاً بل رأيي، في جوهره، هو أن الحقيقة، كما قدمها الميتافيزيق، لا صلة لها البتة بالعالم التجريبي. إنها تجريد فارغ، لا يمكن الحصول منه على استدلال صالح فيما يتعلق بعالم الظاهر، وهو العالم الذي يكمن فيه، مع ذلك، كل اهتمامنا. بل حتى الاهتمام الفكري الخالص، الذي تنبع منه الميتافيزيقا هو اهتمام بتفسير عالم الظاهر. لكن بدلاً من التفسير الفعلي لهذا العالم المحسوس العملي، فإن الميتافيزيقا تشيد عالماً آخر مختلفاً بالأساس، مختلفاً جداً ولا صلة له البتة بالتجربة الواقعية إلى حد أن عالم الحياة اليومية يظل غير متأثر به بتاتاً، ويمضي في طريقه تماماً كما لو أنه ليس هناك عالم حقيقة. على



الإطلاق. بل حتى لو سمح للمرء أن يتأمل عالم الحقيقة على أنه «عالم آخر»، مدينة سماوية موجودة في مكان ما من السماء، لا يمكن أن يكون هناك راحة لمجرد التفكير بأنه قد يكون للآخرين تجربة كاملة نفتقر لها نحن بل أن يقال لنا إن تجربتنا، كما نعرفها، هي تجربة كاملة، لا بد أن يتركنا ذلك باردين، نظراً لأنه لا يمكن أن نثبت أن تجربتنا هي أفضل مما كانت فعلاً، من جهة أخرى، أن نقول إن تجربتنا العملية ليست بتلك التجربة الكاملة التي تكلمت عنها الفلسفة، إنما يعني أن نحذف النوع الوحيد للوجود الذي يمكن أن يكون للحقيقة الفلسفية - نظراً لأنه لا يمكن التأكيد على أن الإله في عليائه هو شخص منفصل. إذن، إما أن تجربتنا القائمة تامة - وهي عبارة جوفاء تترك الأمر ليس أفضل من قبل - أو ليس هناك تجربة تامة، وعالم الحقيقة ذاك الذي تصورناه لكن دون أن يجربه أحد، موجود فقط في كتب الميتافيزيق. وفي كلتا الحالتين، يبدو لي، أنه ليس باستطاعتنا أن نجد في الفلسفة العزاء الذي نجده في الدين.

هناك، بالطبع، معانٍ عدة يمكن من خلالها أن يكون من الحماقة الإنكار أن الفلسفة قد تمنحنا الراحة. فنحن قد نجد في التفلسف طريقة سارة لتمضية صباحاتنا - بهذا المعنى، يمكن في الحالات المتطرفة مقارنة تلك الراحة براحة تناول المشروب الذي نمضي به مساءاتنا. كما يمكن، مرة ثانية، أن ننظر إلى الفلسفة على نحو جمالي - كما ربما ينظر معظمنا إلى سبينوزا. إن بإمكاننا أن نستخدم الميتافيزيق كما نستخدم الموسيقى والشعر وسيلة للتوصل إلى مزاج معين يمنحنا نظرة معينة للوجود، موقفاً معيناً تجاه الحياة - أما الحالة الذهنية الناجمة فتقيَّم بالنسبة لدرجة العاطفة الشاعرية المستثارة وعلى أساسها وليس بالنسبة لحقيقة المعتقدات المعتنقة. والحقيقة أن



رضانا، كما يبدو لي، في هذه الحالات المزاجية مضاد تماماً لممارسات الميتافيزيقيين. إنه الرضا الناتج عن نسيان العالم الحقيقي وشروره وإقناع أنفسنا، لوهلة من الزمن، بحقيقة العالم الذي اخترعناه نحن أنفسنا. هذا يبدو لي أحد الأسس التي يبرر بها برادلي الميتافيزيق. إذ يقول: «حين يكف الشعر والفن والدين كلياً عن إثارة الاهتمام لدينا، وحين لا يعود لدينا أي ميل لمواجهة المشكلات النهائية للإنسان بل نتوصل إلى التصالح معها، حين لا يعود الإحساس بالغموض والسحر يدفع الذهن للتجوال دون هدف، وحين لا تعرف ما تحب، أي باختصار، حين لا يعود للشفق سحر - حينذاك لن تكون للميتافيزيقا قيمة» إن ما تفعله الميتافيزيقا لنا بهذه الطريقة هو، بشكل جوهري، ما تفعله العاصفة - لكن قيمتها، من وجهة النظر هذه، مستقلة عن حقيقتها. إذ ليس لأن سحر بروسبيرو يجعلنا نتعرف على عالم الأرواح الذي نعطي فيه قيمة للعاصفة، وليس لأننا جمالياً، سمعنا عن عالم الأرواح، نعطي قيمة للميتافيزيق. إن هذا يوصلنا إلى الفارق بين الرضى الجمالي، الذي أسمح به، والراحة العينية التي أنكرها بالنسبة للفلسفة. إن القناعة الفكرية، بالنسبة للرضى الجمالي، غير ضرورية، ويمكننا لذلك أن نختار، حين نبحث عنها، الميتافيزيقا التي تمنحنا قدراً كبيراً منها. من جهة أخرى، فإن الإيمان ضروري بالنسبة للراحة الدينية، وإنني أؤكد أننا لن نحصل على الراحة الدينية من الميتافيزيقا التي نؤمن بها.

لكن من المحتمل، لكي نقدم تصفية للنقاش، أن نتبنى نظرية صوفية تقريباً للشعور الجمالي. كما يمكن التأكيد أنه، بالرغم من أننا لا يمكن أبداً أن نجرب الحقيقة كلياً كما هي فعلاً، ثمة بعض التجارب تقاربها أكثر من تجارب أخرى، مثل هذه التجارب، كما



يمكن القول، هي تلك التي يوفرها الفن والفلسفة؛ وبتأثير مثل هذه التجارب التي يمنحنا إياها أحياناً الفن والفلسفة، يبدو من السهل أن نتبنى هذه النظرة. ربما، ليس هناك، بالنسبة إلى من لديهم عاطفة ميتافيزيقية، عواطف ثرة وجميلة مرغوبة كلياً كتلك العاطفة التي يمتلكها الصوفي، والتي تمنحنا إياها الفلسفة أحياناً، تجاه عالم يتحول برؤيا شديدة الابتهاج. وكما يقول برادلي: «البعض بهذه الطريقة، والبعض بطريقة أخرى، يبدو أننا نلامس ونتصل مع ما هو وراء العالم المرئي. إننا بطرق مختلفة نجد شيئاً ما أعلى يدعمنا ويحط من قدرنا على حد سواء، كما يعاقبنا ويسندنا على حد سواء. أما الجهد الفكري، بالنسبة لأشخاص معينين، لفهم الوجود فإنما هو أسلوب أساسي لتجريب الألوهية هكذا». ثم يستمر «وهذا على ما يبدو، سبب آخر لأن يتابع بعض الأشخاص دراسة الحقيقة النهائية».

لكن أليس هو سبباً أيضاً لأن نأمل أن هؤلاء الأشخاص لن يجدوا الحقيقة النهائية أبداً؟ وإذا كان للحقيقة النهائية بالواقع، أي شبه بالمعتقدات المقدمة في «الظاهر والحقيقة» أنا لا أنكر قيمة العاطفة، لكنني أنكر، ولنتكلم بصراحة، أنها رؤية مبهجة بأي معنى خاص، أو تجريب للألوهية. كل تجربة بمعنى ما، بالطبع، هي تجربة ألوهية. وبمعنى آخر، نظراً لأن كل تجربة هي زمنية أيضاً بينما تجربة الألوهية لا زمن لها، فإنه ما من تجربة هي تجربة ألوهية - مثلما يمكن لمتحذلق أن يقدم لي. فالهوة بين الظاهر والحقيقة عميقة إلى درجة أنه ليس هناك أسس، على حد علمي، لاعتبار بعض التجارب أقرب من أخرى للتجربة الكاملة للحقيقة، لهذا، فإن قيمة التجارب قيد المسألة يجب أن تقوم كلياً على أساس ماهيتها العاطفية، وليس، كما يقترح برادلي، على أساس الدرجة الأعلى لارتباطها بالحقيقة. لكن، إن كان الأمر كذلك، فإنها، في أفضل



حالاتها، عزاءات للتفلسف وليس للفلسفة. إنها تشكل سبباً لمتابعة الحقيقة النهائية، طالما هي أزهار يمكن جمعها بالمصادفة لكنها لا تشكل مكافأة يمكن كسبها. نظراً لأنه طبقاً لكل ما يظهر، فإن الأزهار تنمو فقط في بداية الطريق وتختفي كلياً قبل أن نصل إلى نهاية رحلتنا.

إن النظرة التي أؤيدها ليست، ولا شك، بالنظرة الملهمة وليست النظرة التي، إن قبلتها بصورة عامة، يحتمل أن تدفع بدراسة الفلسفة إلى الارتقاء. ومن الممكن أن أبرر طرحي هذا، إذا رغبت في فعل ذلك، على أساس المبدأ القائل: «حيث كل شيء نتن، فإن شغل الإنسان هو أن يبكي على سمكة نتنة». لكنني أؤثر أن أقول إن المتيافيزيقا، حين تسعى لتقديم مكانة للدين، تخطئ فعلاً في دورها. فكونها تستطيع تقديم هذه المكانة أمر أعترف به، لكنها تقدمها له على حساب كونها ميتافيزيقا سيئة، لماذا لا نعترف بأن الميتافيزيقا، كالعلم، تجد تبريراً لها في الفضول الفكري وينبغي إرشادها بحسب الاستطلاع الفكري وحده؟ لقد أدت الرغبة في إيجاد الراحة في الميتافيزيقا، ويجب أن نعترف بذلك، إلى قدر كبير من المغالطات المنطقية والخيانة الفكرية، وهذه لن يخلصنا منها، على أية حال، سوى التخلي عن الدين. وبما أن الفضول الفكري موجود لدى بعض الناس، فإن من المحتمل أنهم سيتحررون يوماً من مغالطات معينة مستمرة حتى الآن. مرة ثانية لنقتبس من برادلي أيضاً «الإنسان الذي تكون طبيعته هكذا بحيث أن رغبته لا يمكن أن تصل إلى الذروة إلا بطريقة واحدة سيحاول أن يجدها بتلك الطريقة. مهما تكن ومهما يكن تفكير العالم بها. وإن لم يفعل ذلك سيكون موضع ازدراء».



الفصل السادس

حول الشكاكين الكاثوليك والبروتستانت

كل من هو على تماس كبير مع الناس ذوي التفكير الحر في البلدان المختلفة والأزمنة الماضية المختلفة لا بد وأن يصدم بالفارق الكبير بين ذوي المنشأ الكاثوليكي وذوي المنشأ البروتستانتي، مهما يكن تصورهم عن تخلصهم من اللاهوت الذي تعلموه في صباهم. هذا الفارق بين الكاثوليكي والبروتستانتي ملحوظ تماماً لدى ذوي التفكير الحر مثلما هو لدى المؤمنين. ولعل الأسهل، بالحقيقة، اكتشاف الفوارق الجوهرية، نظراً لأنها لا تكون مخفية خلف الانحرافات الظاهرية للعقيدة. بالطبع، ثمة صعوبة وهي أن معظم الملحدين البروتستانت إنكليز أو ألمان، في حين أن معظم الكاثوليك فرنسيون. وأولئك الإنكليز، مثل جيبون، الذين تأتى لهم أن يكونوا على تماس مباشر مع الفكر الفرنسي اكتسبوا مزايا المفكرين الأحرار الكاثوليك رغم منشأهم البروتستانتي مع ذلك، يبقى الفارق شاسعاً وقد يكون من المسلي أن نسعى لاكتشاف مما يتكون.

يمكن للمرء أن يتخذ، كمثال نموذجي كامل للمفكر البروتستانتي الحر، جيمس ميل، كما يظهر في السيرة الذاتية التي كتبها ابنه «أبي» يقول جون ستوارت ميل، «تعلم طبقاً لعقيدة المشيخانية السكوتلاندية، وكان من خلال دراساته وأفكاره، مسوقاً باكراً لأن يرفض ليس فقط الإيمان بسفر الرؤيا بل بأسس ما كان يدعى بصورة عامة الدين الطبيعي. إن رفض والدي لكل ما يدعى بالإيمان الديني لم



يكن كما قد يظن الكثيرون، مسألة منطق وأدلة من حيث المبدأ. بل إن أسسه كانت أخلاقية أكثر مما هي فكرية إذ وجد أن من المستحيل أن نؤمن بأن العالم المليء إلى درجة كبيرة بالشر هو من صنع خالق يجمع بين القوة اللامحدودة وبين الخير والحق التامين... كرهه للدين، بالمعنى الذي يتصل عادة بهذا المصطلح، هو من النوع نفسه لكره لوكريتيوس، إذ كان ينظر إليه بمشاعر لا تعود فقط إلى أنه وهم ذهني بل إلى أنه شر أخلاقي مستطير، ولقد كان أمراً يتناقض كلياً مع أفكار والدي عن الواجب أن يسمح لي بأخذ انطباعات مناقضة لقناعاته ومشاعره فيما يتعلق بالدين، ولقد ترك في ذهني منذ البداية الانطباع بأن «الطريقة التي جاء بها العالم إلى الوجود أمر لا يعلم أحد عنه شيئاً». مع ذلك، ليس هناك من شك في أن جيمس ميل بقي بروتستانياً. «لقد علمني أن يكون لي اهتمام شديد بالإصلاح، باعتباره الصراع الحاسم والعظيم ضد طغيان الكهنوت من أجل حرية الفكر».

في كل هذا، كان جيمس ميل يقوم فقط بما تمليه عليه روح جون كنوكس. لقد كان غير امتثالي، رغم أنه من طائفة متطرفة، وقد احتفظ بالتقوى الأخلاقية وبالاهتمام باللاهوت الذي ميز سابقيه. منذ البداية. كان البروتستانت يتميزون عن خصومهم بما لم يكونوا يؤمنون به، من هنا فإن تخليهم عن معتقد ما زيادة، هو فقط لكي يدفعوا بالتحرك مرحلة أبعد، والحمية الأخلاقية هي لب المسألة.

ذلك فارق واحد فقط من الفوارق المتميزة بين الأخلاق الكاثوليكية والبروتستانتية. بالنسبة للبروتستانتي، الإنسان الصالح بصورة استثنائية هو الإنسان الذي يعارض السلطات والمعتقدات المتوارثة، مثل «لوثر في غداء الديدان». والمفهوم البروتستانتي للخير هو شيء ما فرداني ومنعزل، أنا نفسي نشأت كبروتستانتي وأحد



النصوص التي تركت أشد الانطباعات في ذهني، كفتى، هو النص التالي: «أنت لن تتبع حشداً إلى الشر». إنني واع إلى هذا اليوم أن هذا النص أثر ويؤثر بي بأشد الأشكال خطورة. أما الكاثوليكي فلديه مفهوم مختلف تماماً عن الفضيلة. بالنسبة إليه، في كل فضيلة عنصر من عناصر الخضوع، ليس فقط لصوت الإله كما يتجلى في الوجدان، بل أيضاً للسلطة الكنسية باعتبارها هي مستودع الوحي. هذا يمنح الكاثوليكي مفهوماً عن الفضيلة، اجتماعياً أكثر بكثير من البروتستانتي ويجعل تغيره العنيف المفاجئ أكبر بكثير عندما يقطع صلته بالكنيسة. إن البروتستانتي الذي يترك الطائفة البروتستانتية الخاصة التي نشأ فيها إنما يفعل فقط ما فعله مؤسسو الطائفة ليس قبل زمن طويل جداً، حيث تكون ذهنيته مكيفة باتجاه تأسيس طائفة جديدة. من جهة أخرى، يشعر الكاثوليكي بنفسه ضائعاً دون دعم الكنيسة، رغم أن باستطاعته، طبعاً، أن ينضم إلى مؤسسة أخرى، كالماسونيين الأحرار، لكنه يبقى، مع ذلك، واعياً للتمرد البائس، وإلى حد كبير يظهر مقتنعاً، باللاوعي على الأقل، أن الحياة الأخلاقية محصورة بأعضاء الكنيسة، وهكذا بالنسبة للفكر الحر، فإن الأنواع العليا من الفضيلة تصبح مستحيلة. هذه القناعة تدفعه نحو طرق مختلفة طبقاً لمزاجه، فإذا كان ذا مزاج مرح وميل للتيسيرية، سيستمتع بما دعاه وليم جيمس: عطلة أخلاقية. وأفضل مثال على هذا النمط هو مونتانيو الذي سمح لنفسه بعطلة فكرية أيضاً اتخذت شكل العداء للنظم والاستنتاجات. لا يدرك المعاصرون دائماً إلى أي مدى كانت النهضة حركة مضادة - فكرياً. ففي العصور الوسطى، كانت العادة هي البرهنة على الأشياء. أما النهضة فقد اخترعت عادة مراقبة الأشياء. والقناعات المنطقية الوحيدة التي كان مونتانيو يقبلها هي تلك التي تبرهن على سلبية خاصة، كما هو الأمر، مثلاً، حين يسخّر كل



معرفته لكي يبين أن ما كل من ماتوا، كما مات آريوس، كانوا هراطقة. وبعد أن يعد مختلف الرجال السيئين الذين ماتوا بهذه الطريقة أو تلك يمضي ليقول: «لكن ماذا؟ يتبين أن إيرينيوس ذو حظ مماثل: فإرادة الإله هي أن يعلمنا أن في الخير شيئاً آخر نأمل به وأن في الشر شيئاً آخر نخشاه، غير الحظ الحسن أو السيئ في هذا العالم». شيء ما من هذه الكراهية للنظام بقيت تميز الكاثوليكي، بالمقارنة مع الفكر البروتستانتي الحر، والسبب ثانية هو أن نظام اللاهوت الكاثوليكي ملزم جداً بحيث لا يسمح للفرد (ما لم يمتلك قوة بطولية) أن يضع نظاماً آخر موضع منافسة له.

طبقاً لذلك، يميل المفكر الكاثوليكي الحر لأن يتحاشى الاحتفالات المهيبة سواء كانت أخلاقية أم فكرية، في حين يكون المفكر البروتستانتي الحر ميالاً لهما كلتيهما. لقد علم جيمس ميل ابنه أن السؤال الذي يطرح: من صنعني؟ لا يمكن الإجابة عليه، لأننا لا نملك التجربة ولا المعلومات الموثقة التي يمكن بناءً عليها الإجابة على السؤال. وإن أي سؤال كهذا إنما يزيد الصعوبة في الإجابة، أكثر وأكثر، نظراً لأن مثل ذلك السؤال يستثير سؤالاً آخر مباشرة: «من صنع الإله؟» لنقارن بهذا ما تعين على فولتير أن يقوله حول الإله في الموسوعة الفلسفية، إذ تبدأ مقالة «الإله» في ذلك العمل، كما يلي: «خلال حكم أركاديوس، ذهب لوغوماكوس، المحاضر في علم اللاهوت في القسطنطينية، إلى سيثيا ثم توقف عند سفوح جبال القوقاز في سهول زفيريم الخصبة على حدود كولشيس، بينما كان ذلك الرجل المسن المحترم. دوند يندداك، في صالته الكبيرة، بين حظيرة غنمه الضخمة ومستودع أعلافه الواسع. لقد كان راكعاً مع زوجته وأبنائه الخمسة وبناته الخمس، إضافة إلى والديه وخدمه، وإثر وجبة خفيفة انطلقوا جميعاً ينشدون مدائح الإله».



بالأسلوب نفسه تمضي المقالة، ثم بعد التفافات عدة تتوصل إلى استنتاج: «نظراً لأنني تلك المرة قررت ألا أجادل»، وليس بإمكان المرء أن يتصور تلك المرة التي قرر فيها جيمس ميل ألا يجادل بعد، ولا الموضوع، حتى لو كان أقل رفعة، الذي كان سيوضحه بخرافة، كما أنه لم يستطع أن يمارس فن اللامبالاة الحاذقة مثلما فعل فولتير حين قال عن لايبنتز: «لقد أعلن في شمالي ألمانيا أن بإمكان الإله أن يصنع عالماً واحداً فقط». أو قارن الحمية الأخلاقية التي أكد جيمس ميل بها وجود الشر بالفقرة التالية التي يقول فيها فولتير الشيء ذاته: «أن ننكر أن هناك شراً شيء يمكن أن يقال بطريق المزاح من قبل لوكوليوس، وهو في صحة جيدة، يأكل أطيب الطعام مع أصدقائه وعشيقته في بهو أبوللو، لكن دعه يتطلع إلى الخارج من النافذة ويرى بعض الكائنات البشرية التعيسة، دعه يعاني من الحمى ويكون هو نفسه تعيساً».

مونتانيو وفولتير هما مثالان رائعان على التشكيلة المرحة. لكن كثيراً من المفكرين الأحرار الكاثوليك كانوا أبعد عن المرح وكانوا يشعرون دائماً بالحاجة للإيمان الصارم وللكنيسة المرشدة. مثل هؤلاء الرجال يصبحون شيوعيين أحياناً، ولينين أفضل مثال هنا. لقد اقتبس لينين إيمانه من مفكر حر بروتستانتي. (إذ لا يمكن التمييز فكرياً بين اليهود والبروتستانت) لكن أسلافه البيزنطيين أجبروه على إيجاد كنيسة كتجسيد مرئي للإيمان. ثمة مثال آخر أقل نجاحاً هو أوغست كونت فالناس الذين هم بمزاجه، ما لم يتصفوا بقوة غير عادية، يرتمون عاجلاً أو آجلاً في أحضان الكنيسة. في عالم الفلسفة، ثمة مثال مهم جداً هو السيد سنتايانا الذي كان دائماً يحب الاستقامة في الدين بحد ذاتها، لكنه كان يتوق توقا شديداً لشكل بغيض فكرياً على نحو أقل



مما تقدمه الكنيسة الكاثوليكية. لقد كان يحب في الكاثوليكية دائماً مؤسستها الكنسية وتأثيرها السياسي، كما أحب، لنتكلم بصراحة، ما كانت الكنيسة قد أخذته من اليونان والرومان لكنه لم يحب قط ما أخذته الكنيسة من اليهود بما في ذلك طبعاً كل ما يعود إلى مؤسسها ولقد كان باستطاعته أن يرغب، لو نجح لوكرتيوس، في إنشاء كنيسة تقوم بالأساس على معتقدات ديموكريتوس، لأن المادية كانت دائماً تروق لفكره، وفي أعماله الأولى على أي حال، اقترب كثيراً من عبادة المادة أكثر من توجيه هذا الامتياز لأي شيء آخر. لكن على المدى الطويل، توصل، على ما يبدو، لأن يشعر بأن أي كنيسة موجودة فعلاً يجب أن تفضل على كنيسة حصرت نفسها بعالم الجوهر. مع ذلك، يعتبر السيد سنتايانا ظاهرة استثنائية، من الصعب أن تناسب أياً من تصنيفاتنا الحديثة. إنه سابق فعلاً للنهضة ويمت، إذا كان يمت لأحد، للجيبيليين الذين وجد دانتي أنهم كانوا يقاسون مر العذاب في الجحيم ليمسكهم بمعتقدات أبيقور. هذه النظرة تعززت، ولا شك، نتيجة الحنين للماضي الذي كان الاحتكاك المطول وغير الإرادي بأمريكا لا بد وأن ينتجه في المزاج الإسباني.

إن الجميع يعرفون كيف أن جورج إليوت علّم إف. مايرز أنه لا يوجد إله، مع ذلك علينا أن نكون صالحين. لقد ضرب جورج إليوت في هذا نموذجاً للمفكر الحر البروتستانتي، فالمرء يمكن أن يقول، ولنتكلم بصراحة، إن البروتستانت يحبون أن يكونوا صالحين وقد ابتكروا لاهوتاً لكي يحافظوا على أنفسهم هكذا، في حين إن الكاثوليك يحبون أن يكونوا طالحين، وقد ابتكروا لاهوتاً لكي يحافظوا على جيرانهم صالحين. من هنا، تأتي الصفة الاجتماعية للكاثوليكية والفردانية للبروتستانتية. جرمي بنتام، وهو مفكر حر



نموذجي للبروتستانت، كان يرى أن أعظم المسرات هي مسرة الاستحسان الذاتي، لذلك لم يمكن يغريه أكل أو شراب إلى حد الإفراط، أو أن يعيش حياة متسيبة أو أن يسرق محفظة جاره، فلا شيء من هذا كله كان سيعطيه ذلك الشعور الرائع الذي شارك به جاك هورنر، لكن ليس بشروط سهلة كهذه، إذ كان عليه أن يتخلى عن فطيرة عيد الميلاد لكي يحصل عليه. من جهة أخرى، كان ثمة، في فرنسا، أخلاق الزهد التي انهارت أولاً ثم جاء الشك اللاهوتي فيما بعد، نتيجة لذلك. هذا الاختلاف ربما كان وطنياً أكثر مما كان اختلافاً عقائدياً.

إن الصلة بين الدين والأخلاق لهي التي تستحق دراسة جغرافية غير متحيزة. وإنني لأذكر في اليابان التقائي بطائفة بوذية، الكهنوت فيها وراثي، فتساءلت، كيف يمكن أن يحدث هذا، نظراً لأن رجال الدين البوذيين، عامة، متبتلون لا يتزوجون. لا أحد رد على سؤالي لكن أخيراً تثبت من الحقائق في كتاب. لقد انطلقت الطائفة، على ما يبدو، من عقيدة التبرير بالإيمان وقد توصلت إلى نتيجة مفادها أنه طالما ظل الإيمان خالصاً، فإن الإثم غير مهم، نتيجة ذلك، انحاز رجال الكهنوت كلهم للإثم، لكن الإثم الوحيد الذي أغراهم إنما هو الزواج. من ذلك اليوم وحتى الوقت الحاضر، فإن رجال الكهنوت في هذه الطائفة يتزوجون لكنهم يعيشون حياة، ما عدا ذلك، لا شائبة فيها، ولعل الأمريكيين، إذا ما كان بالإمكان جعلهم يؤمنون بأن الزواج إثم، فإنهم قد لا يشعرون بعد ذلك بالحاجة للطلاق. ولعله سيكون من جوهر النظام الاجتماعي الحكيم إطلاق صفة «الإثم» على عدد من الأعمال غير الضارة، لكن يمكن التسامح مع أولئك الذين يقدمونها. بهذه الطريقة، يمكن احتواء متعة ارتكاب



السوء، دون أن يسبب ذلك أذى لأحد. هذه النقطة فرضت علي في التعامل مع الأطفال. فكل طفل يرغب من حين إلى حين في أن يكون سيء السلوك، لكن إذا ما تلقى تعليماً عقلانياً، يمكنه فقط أن يلبي الدافع للشر وسوء السلوك بالقيام بعمل ما غير مؤذ فعلاً، في حين إذا ما كان قد تعلم أن من أعمال السوء البالغة لعب الورق أيام الأحد أو أكل اللحم أيام الجمعة، يغدو بالإمكان تلبية الدافع للإثم دون إيذاء أحد. أنا لا أقول إنني أعمل وفق هذا المبدأ وأمارسه. لكن حالة الطائفة البوذية التي تكلمت عنها توحي لي الآن تماماً بأنه ربما من الحكمة أن نفعل ذلك.

مع ذلك، ليس بالإمكان الإصرار الشديد على التميز الذي نحاول تبيانه بين البروتستانت والكاثوليك من المفكرين الأحرار. مثال على ذلك، الموسوعيون وفلاسفة أواخر القرن الثامن عشر كانوا من النمط البروتستانتي، فصموئيل بطلر، يمكن أن ننظر إليه، لكن بشيء من التردد، كنمط كاثوليكي. الاختلاف الأساسي الذي يمكن للإنسان أن يلحظه أن الانفصال لدى النمط البروتستانتي، عما هو تقليدي أمر فكري من حيث المبدأ، في حين أنه لدى النمط الكاثوليكي عملي بالأساس، ليس لدى المفكر الحر البروتستانتي أدنى رغبة في أن يفعل أي شيء لا يوافق عليه جيران بمعزل عن مناصرة الآراء الهرطقية. فـ «الحياة البيتية مع هربرت سبنسر»، بقلم تاو (وهو واحد من أمتع الكتب التي وجدت) يذكر الرأي العام عن ذلك الفيلسوف بما معناه: «ليس هناك ما يقال عنه سوى أن له شخصية أخلاقية صالحة». وقد لا يكون حدث لسبنسر أو بنتام أو ميلز أو أي من المفكرين الأحرار البريطانيين الذين أكدوا في أعمالهم أن السعادة هي غاية الحياة - وما كان ليحدث، أكرر ثانية،



لأي من أولئك الرجال أن سعوا للسعادة هم أنفسهم، في حين أن الكاثوليكي الذي توصل إلى الاستنتاجات ذاتها كان يتعين عليه أن يضعها نصب عينه في العمل وفي الحياة ليعيش وفقاً لها. في هذا المجال، ينبغي القول إن العالم يتغير، فالمفكر الحر البروتستانتي في الوقت الراهن يحتمل أن يمارس من الحرية في العمل بقدر ما يمارس في التفكير، لكن ذلك مجرد عرض من أعراض التحلل العام للبروتستانتية. في الأيام القديمة الجيدة كان المفكر الحر البروتستانتي قادراً أن يتخذ قراراً بالمطلق لصالح الحب الحر، مع ذلك يعيش حياته كلها بنوع من التبتل الصارم. هذا التغير محزن على ما أظن، فالعصور العظيمة والشخصيات العظيمة إنما نشأت من تحلل نظام صارم ما: إذ يفرض النظام الصارم التماسك والانضباط الضروري، في حين أن تحلله يطلق الطاقة الضرورية. إن من الخطأ أن نفترض أن النتائج المرضية التي أنجزت في الوهلة الأولى للتحلل يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية. ولا شك في أن الشيء المثالي هو بعض الصرامة في العمل مع بعض المرونة في التفكير، لكن من الصعب تحقيق هذا عملياً إلا خلال فترات انتقالية قصيرة، ومن المحتمل، على ما يبدو، أنه إذا كانت الاستقامة الدينية القديمة تتحلل، فإن عقائد صارمة جديدة قد تنشأ من خلال ضرورات الصراع. حينذاك سيتعين أن يوجد بلاشفة ملحدون في روسيا يلقون بالشك على قدسية لينين ويستنتجون أنه ليس بالأمر الرديء أن يحب المرء أطفاله. وحينذاك، سيكون هناك ملحدو كومنتاغ الصين الذين لهم تحفظاتهم تجاه صن يات صن ولا يكنون أي احترام لكونفوشيوس، لكنني أخشى من أن تحلل الليبرالية سيجعل من الصعب على الناس، وبصورة متزايدة، أن يمتنعوا عن اعتناق عقيدة



قتالية ما. ربما سيكون على الملحدين من مختلف الأنواع أن يتجمعوا في جمعية سرية ويرتدوا إلى طرق اخترعها «بايل» في قاموسه. على أية حال، هناك ذلك العزاء في أن اضطهاد الرأي كان له تأثير رائع على الإبداع الفني والأدبي.



الفصل السابع

الحياة في العصور الوسطى[1]

ربما تم تزييف صورتنا عن العصور الوسطى أكثر حتى من صور المراحل الأخرى وذلك لكي تتناسب مع أهوائنا فهي أحياناً سوداء فاحمة وأحياناً وردية زاهية. أما القرن الثامن عشر فكان ولا شك قائماً بذاته، إذ كان ينظر للقرون الوسطى باعتبارها بربرية خالصة. فيما أناس تلك الأيام، بالنسبة إلى جيبون، كانوا «أسلافنا الأجلاف». لقد أدى رد الفعل على الثورة إلى إعجاب رومانسي باللامعقول انطلاقاً من تجربة أن العقل كان يقود إلى المقصلة. وقد رسخ هذا تمجيد «عصر الفروسية» المزعوم والذي انتشر بين الناطقين بالإنكليزية بواسطة السير وولتر سكوت. فالصبي أو الفتاة العادية ربما ما يزال يهيمن عليهما النظرة الرومانسية للعصور الوسطى. إنه يتصورها أو هي تتصورها المرحلة التي كان فيها الفرسان يلبسون الدروع ويحملون الرماح ويهتفون «عليهم» و«بمقدساتي» وكانوا على الدوام إما يغازلون النساء أو يخوضون الحروب، في حين كانت كل السيدات جميلات ومنكوبات، لكن بالتأكيد يأتي الفارس لينقذهن في نهاية المطاف. مع ذلك ثمة نظرة ثالثة مختلفة تماماً إلا أنها مثل الثانية معجبة بالعصور الوسطى. هذه هي النظرة الكهنوتية المتجذرة في كراهية الإصلاح، مع التأكيد هنا على الورع، الاستقامة، الفلسفة، السكولاستية وتوحيد المسيحية من قبل الكنيسة. إنها، كما هي النظرة الرومانسية، رد فعل

---

(1) كتبت سنة 1925.



على العقل، لكنه رد فعل أقل سذاجة، يغطي نفسه بأشكال من العقل، داعياً إلى نظام تفكير عظيم ساد ذات مرة العالم ومن الممكن أن يسوده ثانية.

هناك، في تلك النظرات كلها، عناصر من الحقيقة: فالعصور الوسطى كانت بدائية فجة، وناسها كانوا يحبون الفروسية كما كانوا ورعين لكن إذا كان بودنا أن نرى المرحلة بحق، فعلينا ألا نراها بالمقارنة مع مرحلتنا، سواء بحسناتها أو سيئاتها، بل علينا أن نحاول رؤيتها كما كانت بالنسبة لأولئك الذين عاشوها. وفوق كل شيء، علينا أن نتذكر أن معظم الناس، في كل مرحلة، هم من الناس العاديين المعنيين بخبزهم اليومي أكثر من القضايا الكبرى التي يهتم بها المؤرخون ويتناولونها. مثل هؤلاء الناس العاديين قدمت الآنسة إلين باورز صورة لهم في كتاب ممتع بعنوان «أناس العصور الوسطى» التي تمتد من زمن شارلمان إلى زمن هنري السابع. الشخص الوحيد البارز في استعراضها هو ماركو بولو. الخمسة الآخرون هم تقريباً مجهولون، تعيد بناء حياتهم بفضل الوثائق التي صدف أن بقيت. هنا، لا تظهر الفروسية، التي هي شأن أرستقراطي، في هذه الحوليات الديموقراطية، فيما الورع يظهر لدى الفلاحين والبحارة البريطانيين، إنما تظهر أدلة عليه أقل بكثير في الدوائر الكهنوتية، كما يظهر الكل أقل بربرية بكثير مما كان يرى القرن الثامن عشر. مع ذلك، هناك، لصالح النظرة «البربرية»، مقارنة مثيرة جداً يأتي عليها الكتاب، هذه المقارنة هي بين الفن الفينيسي قبل النهضة تماماً والفن الصيني في القرن الرابع عشر. صورتان يعاد إنتاجهما: الأولى فينيسية تصور لحظة رحيل ماركو بولو، والأخرى منظر طبيعي صيني من القرن الرابع عشر لتشاو - مينغ - فو. ثم تقول الآنسة باورز: «من



الواضح أن الصورة التي هي للرسام تشاو - مينغ - فو عمل متطور تطوراً عالياً فيما الأخرى نتاج حضارة طفولية ساذجة تقريباً. ولا أحد يقارن بين العملين لا يمكنه أن يوافق على ذلك الرأي». ثمة كتاب حديث آخر هو: «انحسار العصور الوسطى» بقلم البروفسور هويزينغا ليدن يقدم صورة مهمة على نحو خارق للعادة للقرنين الرابع عشر والخامس عشر في فرنسا وبلاد الفلاندرز. في هذا الكتاب تنال الفروسية حصتها الكبيرة من الاهتمام، ليس من وجهة النظر الرومانسية بل باعتبارها لعبة معقدة اخترعتها الطبقات العليا لكي تموه شقاء حياة الطبقة الدنيا الذي لا يحتمل. جزء جوهري من الفروسية هو مفهوم البلاط الغريب عن الحب، باعتباره شيئاً من السار أن تتركه دون تلبية. «في القرن الثاني عشر، حين كان شعراء بروفنسيا الجوالون يجعلون الرغبة غير الملباة، مركز المفهوم الشاعري للحب، فإن تحولاً هاماً في تاريخ الحضارة كان قد تم. فشعر البلاط يجعل الرغبة ذاتها هي الدافع الجوهري وبذلك يبدع مفهوماً للحب ذا أساس سلبي». ومرة ثانية: «إن وجود الطبقة العليا، التي تتجسد أفكارها الأخلاقية والفكرية في عبارة: أرسل إلى مستودع الأسلحة، يظل حقيقة استثنائية في التاريخ. إذ ما من مرحلة أخرى اندمج فيها المثل الأعلى للحضارة إلى تلك الدرجة مع الحب. وكما تمثل السكولاستية تماماً، فإن الجهد الكبير للروح القروسطية كان في توحيد الفكر الفلسفي كله ضمن مركز واحد، وهكذا، فإن نظرية الحب الرقيق في دائرة أقل رقياً، تميل لأن تضم كل ما يتعلق بالحياة النبيلة».

يمكن تفسير قدر كبير من تاريخ العصور الوسطى بأنه صراع بين تقاليد روما والتقاليد الألمانية، فمن جهة كانت هناك الكنيسة ومن جهة أخرى كانت هناك الدولة، من جهة علم اللاهوت ومن جهة



أخرى الفلسفة إضافة إلى الفروسية والشعر، من جهة القانون ومن جهة أخرى المتعة، العاطفة، وكل الدوافع الفوضوية لرجال صلبين عنيدين. على أن التراث الروماني ليس تراث الأيام العظيمة لروما وحسب، بل هو تراث قسطنطين وجوستنيان، لكن حتى وهو كذلك، كان يحتوي على شيء ما كانت تلك الأمم المضطربة بحاجة إليه، وبدونه، ما كانت الحضارة لتعود للظهور من العصور المظلمة. ولأن الناس كانوا شرسين، كان من الممكن ردعهم فقط بالقسوة المرعبة: لذا كان يستخدم الترهيب إلى أن يفقد تأثيره من خلال الألفة والعشرة. ذلك أنه بعد تصوير رقصة الموت، وهو موضوع أثير لدى الفن في أواخر العصور الوسطى، حيث هياكل عظمية ترقص مع أناس أحياء، يمضي الدكتور هويز ينغا ليخبرنا عن ساحة كنيسة الأبرياء في باريس، حيث كان معاصرو فيلون يتجولون من أجل المتعة، فيقول: «كانت الجماجم والعظام مكومة عالياً في بيوت الكنيسة على طول الأروقة التي تحيط بالأرض من ثلاث جهات، وتبدو هناك ظاهرة لعيون الآلاف، مقدمة للكل عظة المساواة... وتحت الأروقة، عرضت رقصة الموت صورها ومقاطعها الشعرية. ولا مكان كان مناسباً أكثر لشخص يشبه القرد يجسد الموت المكشر عن أسنانه، جاراً وراءه بابا وإمبراطوراً، راهباً وأحمق، كما كان للدون بيري، الذي رغب في أن يدفن هناك، تاريخ ثلاثة رجال أموات وثلاثة أحياء منقوش على بوابة الكنيسة: «بعد قرن من الزمن، تم إكمال هذا المعرض للرموز الجنائزية بتمثال كبير للموت، هو الآن في اللوفر، وهو الباقي الوحيد من كل ذلك المعرض. هكذا كان المكان الذي كان يرتاده الباريسيون في القرن الخامس عشر، باعتباره نوعاً من النظير الكئيب للقصر الملكي عام 1789. يوماً بعد يوم، كانت حشود الناس تمشي في الأروقة، ناظرة إلى التماثيل، قارئة الأشعار البسيطة التي تذكرهم



بالنهاية القريبة. ورغم أن حالات الدفن لم تكن تتوقف ونبش الجثث كان يستمر، فإن المكان كان ملتقى للناس ومضرباً للمواعيد. إذ افتتحت حوانيت أمام بيوت الكنيسة، فيما كانت المومسات يتجولن في الأروقة وكانت راهبة محبوسة في العتمة في أحد جوانب الكنيسة، ورهبان كانوا يجيئون ليعظوا، فيما المواكب كانت تمضي هناك. بل حتى موائد الطعام كانت تقام. إلى ذلك الحد كان الرهيب المرعب قد أصبح مألوفاً».

وكما يتوقع من حب كل ما هو فظيع ومتعلق بالموت، فإن القسوة كانت من أشد المتع تقبلاً لدى الجمهور، بل إن الناس كانوا يشترون لصوصاً فقط لكي يروهم يعذبون: إنه أمر كان يستمتع به الناس أكثر مما لو قام جسم مقدس جديد من جدثه. في سنة 1488، تعرض بعض قضاة بورجيه، المتهمين بالخيانة العظمى، للتعذيب المتكرر في ساحة السوق فقط من أجل بهجة الجمهور. ورغم أنهم كانوا يتوسلون لأن يُقتلوا، إلا أن هذه المنحة كانت ترفض، يقول الدكتور هويزينغا: «وذلك لأن الناس يمكن أن يبتهجوا مرة ثانية ويفرحوا لعذابهم». في النهاية، ربما هناك شيء ما يمكن قوله فيما يتعلق بوجهة نظر القرن الثامن عشر.

إن لدى الدكتور هويزينغا فصولاً مهمة عن الفن في أواخر العصور الوسطى. فتميز الرسم، لم يكن ثمة ما يضاهيه في النحت وفن العمارة اللذين أصبحا منمقين مزخرفين بسبب حب كل ما هو عظيم ورائع يترافق مع الغطرسة الإقطاعية. مثال على ذلك، حين استخدم دوق بورغندي سلوتر لكي يصنع له جلجلة معقدة في شامبمول، فإن أسلحة بورغندية وفلاندرية ظهرت على الصليب المتقاطع نفسه. لكن ما هو مدهش أكثر أن تمثال جرميا الذي شكل



جزءاً من المجموعة، كان له زوج من النظارات على أنفه. إن المؤلف يرسم صورة محزنة لفنان عظيم كان تحت سيطرة سيد فلسطيني ومن ثم يمضي ليهدمها بقوله «ربما سلوتر نفسه اعتبر نظارات جرميا اكتشافاً سعيداً جداً». أما الآنسة باور فإنها تذكر حقيقة مدهشة أيضاً: أنه في القرن الثالث عشر، قام ناشر إيطالي، متغلباً على تنيسون في العصر الفكتوري، بنشر نسخة من الخرافات الآرثرية حذف فيها كل إشارة إلى حب لانسلوت وجنيفر. إن التاريخ مليء بالأشياء الغريبة مثلاً، جزويتي ياباني استشهد في موسكو في القرن السادس عشر. وإنني لأود أن يقوم مؤرخ واسع المعرفة بكتابة كتاب بعنوان «حقائق أدهشتني». وفي كتاب كهذا، نظارات جرميا والناشر الإيطالي سيكون لهما مكان بالتأكيد».



الفصل الثامن

مصير توماس بين[1]

على الرغم من أن توماس بين برز في ثورتين وكاد يشنق في محاولته القيام بثورة ثالثة، إلا أنه في أيامنا هذه مهمل بشكل من الأشكال. لقد كان يبدو، لأجدادنا الأولين، نوعاً من إبليس أرضي، كافر انقلابي، متمرد على إلهه وملكه على السواء. لقد جلب على نفسه العداء المرير من ثلاثة رجال لم يكونوا موحدين بصورة عامة: بيت، روبسبير وواشنطن. من هؤلاء الثلاثة، سعى اثنان لموته، فيما امتنع الثالث بكل حرص وحذر عن اتخاذ إجراءات تهدف لإنقاذ حياته. واشنطن وبيت كانا يكرهانه لأنه كان ديموقراطياً، روبسبير، لأنه عارض إعدام الملك وحاكم تيرور. ومصيره هو الذي كان دائماً موضع تكريم من قبل المعارضة وكراهية من قبل الحكومات. فقد تكلم واشنطن، عندما كان ما يزال يقاتل الإنكليز، عن بين بأشد العبارات مدحاً وثناء، فيما الأمة الفرنسية نسبت له كل شرف ومكرمة إلى أن جاء اليعاقبة واستلموا السلطة. حتى في إنكلترا، كان أبرز رجال حزب الويغ أصدقاء له وكانوا يستخدمونه في كتابة البيانات. وككل الناس الآخرين، كان لتوماس بين عيوب وأخطاء، لكنه بسبب فضائله كان مكروهاً وقد تمت إزاحته بنجاح.

---

(1) كتبت سنة 1934.



تكمن أهمية بين في التاريخ بحقيقة مفادها أنه جعل وعظ الديموقراطية ديموقراطياً، ففي القرن الثامن عشر كان هناك ديموقراطيون بين الأرستقراطيين الفرنسيين والإنكليز وكذلك بين الفلاسفة، وكبار اللا امتثاليين. لكنهم جميعاً قدموا تخميناتهم السياسية بشكل مصمم لمخاطبة المتعلمين فقط. ورغم أن مذهبه لم يكن يحتوي شيئاً جديداً، كان بين مبتكراً في أسلوب كتابته الذي كان بسيطاً، مباشراً، بعيداً عن التكلف، وبذلك كان كل كادح ذكي يمكن أن يقدره كل التقدير. ذلك جعله خطراً وحين أضاف عدم التزامه بالدين للجرائم الأخرى، فإن المدافعين عن الامتيازات، اغتنموا الفرصة ليتهموه بالضلال.

السنوات الست والثلاثون الأولى من حياته لم تقدم أية أدلة على مواهبه التي ظهرت في أنشطته الأخيرة. لقد ولد في ثيتفورد سنة 1739 من والدين فقيرين من طائفة الكويكرز ثم تلقى تعليمه في مدرسة القواعد المحلية حتى سن الثالثة عشرة، حين أصبح صانع دعامات. لكن الحياة الهادئة لم تكن تعجبه. في سن السابعة عشرة حاول أن يلتحق كجندي في وحدة خاصة تدعى «الرهيبة»، والتي كان قائدها يدعى الموت. غير أن والديه أعاداه إلى المنزل وربما أنقذا حياته، نظراً لأن 175 من أصل 200 من تعداد تلك الوحدة قتلوا بعد ذلك بفترة وجيزة في المعركة، لكن. بعد فترة وجيزة ومع اندلاع حرب السنوات السبع، نجح في الإبحار ضمن وحدة خاصة أخرى، لكن دون أن نعرف شيئاً عن مغامراته القصيرة في البحر. سنة 1758، عمل كصانع دعامات في لندن وفي السنة التالية تزوج، لكن زوجته توفيت بعد بضعة أشهر. سنة 1763، أصبح محصل ضرائب، لكنه طرد بعد سنتين لادعائه بأنه



كان يقوم بتفتيشاته في الوقت الذي كان يقضيه، بالحقيقة وهو يدرس في البيت. وفي حالة من الفقر المدقع، أصبح يعمل مدرساً لقاء عشرة شلنات في الأسبوع، ثم حاول أن يلتحق بالنظام الكهنوتي الإنكليكاني، بعدئذ تم إنقاذه من ممارسات يائسة كهذه بإعادة تعيينه كمحصل ضرائب في ليويس، حيث تزوج امرأة من طائفة الكويكرز، ولأسباب نجهلها انفصل عنها رسمياً سنة 1774. في هذه السنة، فقد أيضاً وظيفته، ظاهرياً لأنه نظم طلباً، من محصلي الضرائب، لرواتب أعلى. ثم باع كل ما كان يملك، حتى يتمكن من دفع ديونه وترك بعض المؤونة لزوجته، فيما عاد هو إلى حالة الهلاك.

في لندن، حيث حاول أن يقدم التماس محصلي الضرائب إلى البرلمان، تعرف على بنيامين فرانكلين، الذي كان لديه فكرة حسنة عنه. النتيجة هي أنه في عام 1774، شهر تشرين الأول أبحر إلى أمريكا، مزوداً برسالة توصية من فرانكلين يصفه فيها بأنه «شاب موهوب وذو جدارة» وحالما وصل إلى فيلادفيا، بدأ يعرض مهارته ككاتب وأصبح مباشرة تقريباً، محرراً في جريدة.

في آذار 1775، ظهرت له أول مقالة عنيفة ضد العبودية وتجارة العبيد، وهي التي ظل دائب، رغم كل ما قد يقوله بعض أصدقائه الأمريكان، عدواً لها على الدوام، وبسبب تأثيره الكبير على ما يبدو، أدخل جفرسون في مسودة إعلان الاستقلال الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع والتي حذفت فيما بعد. سنة 1775، كانت العبودية ما تزال موجودة في بنسلفانيا لكنها ألغيت في تلك الولاية بمرسوم سنة 1780، يعتقد أن بين هو الذي كتب مقدمته.



لقد كان بين هو من بين الأوائل، إن لم يكن الأول تماماً، الـذي ناصر الحرية التامة للولايات المتحدة. في تشرين الأول، سـنة 1775، وحين كان أولئك الذين وقعوا فيما بعد إعلان الاستقلال، مـا يزالـون يأملون بتسوية ما مع الحكومة البريطانية، كتب بين:

«أنا لا أتـردد لحظـة واحـدة في الاعتقـاد بـأن الإلـه كلـي القـوة سيفصل أخيراً أمريكا عـن بريطانيـا. سـمّ اسـتقلالاً أو مـا شـئت، إذا كانت قضية الإله والإنسانية ستجعله يستمر وحين يباركنـا كلـي القـوة ويجعلنا ناساً مستقلين، نعتمد عليه فقط، حينـذاك يمكـن لـشكرنا أن يظهر أولاً على شكل تشريع قاري يضع حداً لاستيراد العبيد والاتجـار بهم ويخفف من المصاعب التي يلقاها من جيء بهم إلى هنا من قبـل، لكي يحصلوا مع الزمن على حريتهم».

إذن مــن أجــل الحريــة - الحريــة مــن الحكــم الملكــي، الارستقراطية، العبودية وكل أنواع الطغيان - التزم بين بقضية أمريكا.

لقد قضى، خلال أصعب سـنوات حـرب الاسـتقلال، أيامـه في الحملات وأماسيه يكتب البيانات التي تـستثير الهمـم وينـشرها تحـت عنوان «الرأي العام». لقد حققت تلك البيانات نجاحاً هائلاً وأسـهمت فعلياً في كسب الحرب. لقـد كتـب واشـنطن، إثـر حـرق البريطـانيين لمدينـة فولمـاوث في ولايـة مـين ونورفولـك في فرجنيـا، إلى أحـد أصدقائه ما يلي: (31 كانون الثاني 1776).

«بعض الحجج اللاهبة الأخرى، كتلك التي عرضت في فلماوث ونورفولك، إضافة إلى العقيدة السليمة والمحـاكم المنطقيـة المفحمـة والتي يتضمنها كراسي «الـرأي العـام»، لـن تتـرك الكـثيرين في حالـة ضياع بل ستجعلهم يبتـون بأولويـة الانفـصال». لقـد كـان العمـل في



القمة، لكنه الآن ذو أهمية تاريخية فقط، إلا أن هناك عبارات ما تزال حتى اليوم ذات مضمون. إذ أنه، بعد الإشارة إلى أن الخلاف ليس فقط مع الملك، بل أيضاً مع البرلمان، يقول بين: «ليس هناك مجموعة رجال أكثر غيرة على امتيازاتهم من مجلس العموم لأنهم يبيعون تلك الامتيازات». وكان من المستحيل في ذلك التاريخ على أحد أن ينكر عدالة هذه السخرية».

ثمة حجة بالغة القوة لصالح الجمهورية وتفنيد ظافر للنظرية القائلة بأن الحكم الملكي يمنع الحرب الأهلية. إنه يقول، بعد تقديم موجز عن التاريخ الإنكليزي «الحكم الملكي والوراثة أديا بالعالم إلى حالة من الدم والرماد. إنه شكل من الحكم الذي تحمل كلمة الإله الشهادة ضده والدم سوف يصاحبه». في كانون الأول سنة 1776 وفي اللحظة التي انعكست فيها حظوظ الحرب، نشر بين كراساً بعنوان «الأزمة»، يبدأ بما يلي:

«هذه هي الأوقات التي تجرب فيها أنفس الرجال، فجندي الصيف ووطني المظاهر، سوف ينكمشان في هذه الأزمة ويبتعدان عن خدمة بلادهما، لكن ذلك الذي يقف الآن ويقاتل هو الذي يستحق الحب والشكر من كل رجل وامرأة».

هذه المقالة قرئت على الجند، وقد كتب واشنطن لبين يقول: «ثمة إحساس حي بأهمية أعمالك». ما من كاتب آخر كان مقروءاً على نطاق واسع مثل بين في أمريكا، وكان باستطاعته أن يجمع مبالغ كبيرة من كتاباته، لكنه كان يرفض دائماً قبول أي مبلغ من المال لقاء ما يكتب. في نهاية حرب الاستقلال، كان بين يتمتع باحترام كبير وشامل في الولايات المتحدة، لكنه كان ما يزال فقيراً. مع ذلك فإن المجلس التشريعي في إحدى الولايات صوت لصالحه على مبلغ من المال،



فيما أعطاه آخر عقاراً، وبذلك توفرت له أسباب الراحة بقية حياته. ولربما كان يتوقع له أن يستقر في حالة المحترميّة هذه التي يتميز بها الثوريون الذين نجحوا لكنه حوّل اهتمامه من السياسة إلى الهندسة كما بيّن القدرة الاحتمالية للجسور الحديدية ذات العوارض الأطول على أنها صالحة أكثر مما كان يظن في السابق صالحة. الجسور الحديدية قادته إلى إنكلترا، حيث استقبل بكل ود من قبل بيرك، دوق بورتلاند وأعضاء آخرين مشهورين من حزب الويغ. لقد كان لديه نموذج كبير من جسوره الحديدية أقيم في بادنغتون وكان قد أطراه مهندسون بارزون، كما بدا من المحتمل أن يقضي سنواته الباقية كمخترع.

لكن فرنسا، مثلها مثل إنكلترا كانت مهتمة بالجسور الحديدية. سنة 1788 قام بزيارة إلى باريس كي يناقش الأمر مع لافاييت ولكي يقدم مخططاته إلى أكاديمية العلوم التي، بعد تأخير مبرر، أقرت الموافقة عليها. حين سقط الباستيل، قرر لافاييت أن يقدم مفتاح السجن إلى واشنطن وعهد إلى بين مهمة نقله عبر الأطلسي. لكن بين بقي في أوروبا مشغولاً بشؤون جسوره، فكتب رسالة طويلة إلى واشنطن يعلمه بها أنه سيجد أحداً ما ينوب منابه في «نقل تلك العلامة المبكرة عن هلاك الاستبداد، والثمرة الناضجة الأولى للمبادئ الأمريكية التي انتقلت إلى أوروبا». ثم يمضي إلى القول: «ليس لدي أدنى شك في النجاح النهائي والتام للثورة الفرنسية» وكذلك إلى القول: «لقد صنعت الجسر (قوساً واحداً) بعوارض طولها مائة وعشر أقدام وبارتفاع خمس أقدام من أرضية القوس».

لقد ظلت الجسور والثورة هكذا لحين من الزمن، متوازيتين تماماً في اهتماماته، لكن بشكل تدريجي تغلبت الثورة. وعلى أمل أن



يستثير حركة مماثلة في إنكلترا، كتب مقالته «حقوق الإنسان» التي تقوم عليها بصورة رئيسية شهرته كديموقراطي.

هذا العمل الذي اعتبر مخرباً بشكل جنوني، خلال الردة المضادة ـ لليعاقبة، سيدهش القارئ الحديث بسلاسته وحسه العام. لقد كان، بشكل رئيسي، رداً على بيرك ويتعامل بشيء لا بأس به من الطول مع أحداث فرنسا الجارية. الجزء الأول منه نشر سنة 1791، لذلك لم يكن ثمة حاجة للاعتذار من أجل الثورة وفيه القليل جداً من الكلام عن الحقوق الطبيعية، لكن فيه قدر كبير من الحس السليم حول الحكم في بريطانيا. إذ كان بيرك قد جادل في أن ثورة 1688 ألزمت البريطانيين إلى الأبد بالخضوع للحكام الذين عينهم مرسوم الحل. فيما كان بين يجادل بأنه من المستحيل إلزام الأحفاد بما اتفق عليه الأجداد، وأن الدساتير يجب أن تكون قابلة للتعديل من حين إلى حين.

فالحكم، كما يقول: يمكن فهمه كله تحت عناوين ثلاثة أولها الأسطورة ثانيها القوة، ثالثها الصالح العام للمجتمع والحقوق العامة للإنسان. الأول هو حكم رجال الدين، الثاني حكم الغزاة، أما الثالث فحكم العقل. الاثنان الأولان اندمجا فمفتاح القديس بطرس ومفتاح الخزينة أصبحا مقيمين الواحد مع الآخر، أما الجماهير المخدوعة المتعجبة فقد عبدت ذلك الاختراع. لكن ملاحظات عامة كهذه نادرة. يتألف العمل بالإجمال أولاً من التاريخ الفرنسي من 1789 إلى 1791، ثانياً: من مقارنة الدستور البريطاني بذلك الذي أقر في فرنسا سنة 1791، وبالطبع لصالح الأخير، لكن علينا أن نتذكر أن الحكم في فرنسا عام 1791 كان ما يزال ملكياً غير أن بين كان جمهورياً وهو لم يخفِ الحقيقة لكنه لم يؤكد عليها كثيراً في حقوقه الإنسانية.



خطاب بين، باستثناء بضع فقرات قصيرة، كان موجهاً للرأي العام، لقد ناقش ضد السياسة المالية «لبيت»، كما فعل لوبيت فيما بعد، على أسس كان لا بد من أن ترضي أي وزير مال بريطاني. لقد وصف الجمع ما بين رصيد هابط ضئيل وما بين الاستدانات الضخمة بأنها أشبه بإطلاق رجل ساقه من خشب للإمساك بأرنب - بقدر ما يجريان، بقدر ما يزداد البعد بينهما. إنه يتحدث عن ميدان بوتر الخاص بالمال الورقي - عبارة مماثلة تماماً لأسلوب كوبيت، والحقيقة أن كتاباته هذه هي التي حولت عداء كوبيت السابق إلى إعجاب به. أما اعتراضه على مبدأ الوراثة، وهو ما أرعب بيرك وبيت، فقد غدا منطلقاً عاماً لكل السياسيين، بما فيهم حتى موسوليني وهتلر، ولم يكن أسلوبه في أية حال عنيفاً: إنه واضح، قوي، ومباشر لكنه ليس بذيئاً تقريباً كأسلوب خصومه.

مع ذلك قرر بيت أن يدشن حكمه المرعب بمقاضاة بين ومنع «حقوق الإنسان». لقد كان، طبقاً لما تقوله ابنة أخيه السيدة هيستر ستانهوب، يقول عادة «إن توم بين على حق تماماً». لكن بعدئذ يمكن أن يضيف: «ما ينبغي أن أفعل؟ فكما هي الأمور، إن كنت سأشجع بين وأناصر آراءه فإن علينا أن نقوم بثورة دامية». رد بين على المقاضاة كان التحدي والخطب اللاهبة، لكن مجازر أيلول حدثت حينذاك وحزب التوري الإنكليزي رد بزيادة العنف والشراسة، فأقنعه الشاعر بليك الذي كان يتمتع بحكمة دنيوية أكثر من بين بأنه إذا ما بقي في بريطانيا، فإن نهايته ستكون المشنقة. وهكذا فر إلى فرنسا، فالتاً من الضباط الذين جاؤوا لاعتقاله بفارق بضع ساعات في لندن، وعشرين دقيقة في دوفر، حيث سمحت له السلطات أن يمر، إذ صدف وأن كان يحمل معه رسالة ودية حديثة من واشنطن.



وعلى الرغم من أن إنكلترا وفرنسا لم تكونا بعد في حالة حرب إلا أن دوفر وكاليه كانتا تمتان لعالمين مختلفين، وبين الذي كان قد انتخب كمواطن شرف فرنسي، كان قد أعيد إلى المؤتمر من قبل ثلاث دوائر انتخابية، إحداها دائرة كاليه التي رحبت به الآن «وفيما كان متاعه يبحر مع التحية كانت فصيلة مدفعية تطلق النار عليه والهتافات تعلو عالياً على طول الشاطئ، بينما ممثل كاليه يخطو على التراب الفرنسي والجنود يشقون له الطريق والضباط يعانقونه وعقدة شريط القبعة تقدم له - هكذا عبر السلسلة الفرنسية المعتادة، سيدات جميلات، رؤساء بلديات... إلخ».

حين وصل بين إلى باريس، تصرف بروح شعبية أكثر مما هي حكيمة، فقد كان يأمل - رغم المجازر- بثورة معتدلة منظمة كما حدث وساهم في جعلها كذلك في أمريكا. لقد أقام صداقة مع جيراندين، كما رفض أن يظن السوء بلافاييت (وهو في حالة خزي الآن)، كذلك استمر، كأمريكي، في التعبير عن الامتنان للويس السادس عشر لإسهامه في تحرير الولايات المتحدة. وبدءاً من معارضته لإعدام الملك، وحتى اللحظة الأخيرة كان بين يكن كل العداء لليعاقبة، فطرد أولاً من المؤتمر ثم سجن كأجنبي، وقد ظل في السجن طوال حكم روبسبير وعدة أشهر أخرى. المسؤولية تركزت جزئياً فقط على الفرنسيين، فالوزير المفوض الأمريكي، غوفرنرموريس، كان أيضاً موضع لوم، إذ كان فدرالياً وقد صف مع إنكلترا ضد فرنسا وأكثر من ذلك، كان يحمل الكثير من الحقد القديم، شخصياً، على بين، لكشفه قدراً كبيراً من فساد أحد أصدقائه في غضون حرب الاستقلال، فاتخذ الخط القائل بأن بين ليس أمريكياً وأنه لذلك، لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجله. أما واشنطن، الذي كان يفاوض إنكلترا على معاهدة جي فلم يكن آسفاً أن يرى بين في



وضع لا يستطيع هو نفسه أن ينوّر برأيه الحكومة الفرنسية كما هو الأمر بالنسبة للرأي الرجعي في أمريكا. لقد نجا بين من المقصلة بالمصادفة لكنه كاد يموت بسبب المرض. أخيراً استُبدل بموريس مبونرو (من أتباع «العقيدة») فحصل هذا مباشرة على إطلاق سراحه ثم أخذه إلى منزله الخاص ليعيده إلى العافية والصحة بعد ثمانية عشر شهراً من الرعاية والمعالجة.

لم يعلم بين كم كان الدور الذي لعبه موريس كبيراً في ما أصابه من بلاء، لكن أبداً لم يغفر لواشنطن، وقد سمع، بعد موته، أن تمثالاً سيقام للرجل العظيم فوجّه للنحات الأسطر التالية:

خذ من المقلع الحجر الأصلب والأبرد

فهو لا يحتاج صقلاً: إنه واشنطن

لكن إذا ما اشتغلت عليه، دع الضربة تكون قاسية

وعلى قلبه انقش: نكران الجميل

هذه الأبيات ظلت دون نشر لكن رسالة مريرة طويلة منه إلى واشنطن نشرت سنة 1796، كانت تنتهي كالتالي:

«وكما هو الأمر بالنسبة إليك، يا سيدي، خائن للصداقة الخاصة (لأنك هكذا كنت بالنسبة لي، وذلك يوم المحنة) ومنافق في الحياة العامة، فإن العالم سيتحير في أن يقرر ما إذا كنت مرتداً عن عقيدتك أم دجالاً، ما إذا كنت قد تخليت عن مبادئك الجيدة أم ما إذا كان لك أي مبادئ بالأصل».

هذه الكلمات تبدو بالنسبة لأولئك الذين يعرفون واشنطن، المثال والأسطورة كلمات فظيعة وقاسية، لكن 1796 كانت سنة التنافس الأول على الرئاسة بين جفرسون وآدمز، الذي ألقى فيه واشنطن بكل ثقله



لصالح الأخير، رغم إيمان هذا بالحكم الملكي والأرستقراطية، زد على ذلك أن واشنطن كان يقف إلى جانب إنكلترا ضد فرنسا ويفعل كل ما في استطاعته لمنع انتشار المبادئ الجمهورية والديموقراطية التي كان يدين لها بارتقائه. هذه الأسس العامة، إضافة إلى اكتئاب شخصي شديد جداً، تبين أن كلمات بين لم تكن بدون مبرر.

ولعل الأمور كانت ستغدو أصعب بالنسبة إلى واشنطن أن يترك بين يذوي في السجن لو أن ذلك الرجل المتهور لم يقض أيام حريته الأخيرة في إضفاء التعبير الأدبي على الآراء اللاهوتية التي كان هو وجفرسون يتشاركان فيها مع واشنطن وآدمز الذي كان مع ذلك حريصاً على تجنب كل العهود العامة لغير الاستقامة الدينية.

لقد خطط بين، متكهناً بأنه سيسجن، لأن يكتب «عصر العقل» وقد أنهى الجزء الأول منه قبل ست ساعات من اعتقاله. هذا الكتاب صدم معاصريه، بل صدم حتى الكثيرين ممن كانوا يوافقونه على سياسته. في هذه الأيام، وبمعزل عن بضع فقرات كتبت بمزاج سيء، هناك القليل جداً مما يمكن لمعظم رجال الدين الاعتراض عليه. ففي الفصل الأول يقول:

«أنا أؤمن بإله واحد، ولا شيء أكثر، وآمل بالسعادة بعد هذه الحياة. إنني أؤمن بالمساواة بين الناس، كما أؤمن أن الواجبات الدينية تتكون من تحقيق العدالة، الرحمة، المحبة، والسعي لجعل من حولنا من الناس سعداء».

تلك الكلمات ليست فارغة جوفاء، فمن اللحظة التي بدأت مساهمته الأولى في الشؤون العامة - احتجاجه ضد العبودية عام 1775 وحتى يوم وفاته، كان دائماً معارضاً لكل شكل من أشكال القسوة سواء مورست من قبل حزبه أو من قبل خصومه: وحكومة إنكلترا في



ذلك الوقت كانت حكومة أقلية قاسية، تستخدم البرلمان كوسيلة لتخفيض مستوى الحياة لدى الطبقات الأفقر. لقد ناصر بين الإصلاح السياسي باعتباره العلاج الوحيد لهذا الشيء البغيض واضطر لأن يهرب للنجاة بجلده. في فرنسا، ولمعارضته إراقة الدماء غير الضرورية، ألقي في السجن ونجا من الموت بصعوبة بالغة. في أمريكا، ولمعارضته العبودية وتمسكه بمبادئ إعلان الاستقلال تخلت عنه الحكومة في اللحظة التي كان فيها بأمس الحاجة لدعمها. ولو أن الدين الصحيح، كما أكد هو وكما يؤمن الكثيرون الآن، يتكون من «تحقيق العدالة، الرحمة، المحبة والسعي لجعل من حولنا من البشر سعداء» لما كان هناك خصم من خصومه يزعم أنه ينبغي اعتباره رجلاً متديناً.

يتألف القسم الأكبر من «عصر العقل» من نقد العهد القديم من وجهة نظر أخلاقية. فقليل جداً من الناس هذه الأيام ينظرون إلى مجازر النساء والأطفال والرجال المسجلة في أسفار موسى الخمسة وكتاب يوشع على أنها نماذج للصواب لكن في أيام بين، كان يعتبر نوعاً من عدم التقوى انتقاد الإسرائيليات في حين أن العهد القديم صادق عليها. ولقد رد الكثيرون من المتدينين الورعين عليه، الليبرالي الأشد من بين هؤلاء كان الأسقف لاندوف الذي مضى إلى حد الإقرار بأن أسفار موسى الخمسة لم يكتبها موسى وبعض الأناشيد لم تكن من تأليف داود. وبسبب هذه التنازلات، فقد استجر عداوة جورج الثالث وفقد كل حظ في أن ينتقل إلى أبرشية أغنى. بعض ردود الأسقف على بين كانت غريبة. مثال على ذلك، أن «عصر العقل» غامر في التشكيك في ما إذا كان الإله فعلاً هو الذي أمر بأن يذبح كل الرجال والنساء المتزوجات من المدنيين، في حين ينبغي الإبقاء على العذارى، فرد الأسقف مغتاظاً أنه لم يتم الإبقاء على العذارى لأهداف لا أخلاقية، كما قال بين ذو النوايا السيئة، بل



كإماء، وهو ما لا يمكن الاعتراض عليه أخلاقياً. المتـدينون في أيامنـا هذه ربما نسوا ما كانت تعني الاستقامة الدينية قبل مائة وأربعين سـنة، كما نـسوا بـشكل كامـل أكثـر، أن رجـالاً مثـل بـين كـانوا يواجهـون الاضطهاد، هم الذين خففوا من غلـواء العقيـدة، وهـو مـا ينتفـع بـه عـصرنا الآن. إذ حـتى الكـويكرز رفـضوا طلـب بـين بـأن يـدفن في مقبرتهم، رغم أن مزارعاً كويكرياً كان من القلة القليلة التي مـشت في جنازته حتى قبره.

بعد «عصر العقل» توقف عمل بين عـن أن يكـون هامـاً. فقـد ظل مريضاً جداً لوقت طويل، وحين أبل مـن مرضـه، وجـد أن لا أمل في فرنـسا في عهـد الإدارة والقنـصل الأول. لم يـسئ نـابليون معاملته لكنه بالطبع، لم يكن ذا نفع له إلا كوكيـل محتمـل للثـورة الديموقراطيـة في إنكلتـرا. لقـد أصـبح مريـضاً بـالحنين لأمريكـا، متذكراً نجاحه الـسابق وشعبيته في تلك الـبلاد، راغبـاً في مـساعدة الجفرسونيين ضـد الفدراليين، لكن الخـوف مـن أن يلقـى الإنكليـز القـبض عليـه، وبالتـالي يـشنقونه، أبقـاه في فرنـسا حـتى معاهـدة أميـان. أخـيراً وفي تـشرين الأول 1802، حـط بـين الرحـال في بلتيمور وفي الحال كتب إلى جفرسون (وقد صار رئيساً). «وصـلت إلى هنا من هارفر يوم السبت بعد رحلـة مـن سـتين يومـاً. إن لـدي عدة صناديق مـن النمـاذج، المجـلات...إلخ. وحالمـا أتمكـن مـن الحصول عليها مـن الـسفينة وأرحلـها إلى جـورج تـاون، سـأنطلق لتقديم احتراماتي لك.

مواطنك المخلص

توماس بين»



لم يكن لدى بين أي شك في أن أصدقاءه القدامى جميعاً باستثناء أولئك الذين صاروا اتحاديين، سيرحبون به. لكن كان ثمة صعوبة: فجفرسون كان قد كافح كفاحاً مريراً من أجل الرئاسة، وفي الحملة، كان السلاح الأمضى الذي استخدم ضده إنما هو اتهامه بالكفر. لقد ضخّم خصومه علاقته الحميمة ببين وتحدثوا عنهما كليهما على أنهما «توماسان». بعد عشرين سنة، كان جفرسون ما يزال متأثراً كثيراً بتعصب معاصريه إلى حد أنه رد على وزير وحدوي كان يرغب في نشر رسالة له بقوله: «لا، يا سيدي العزيز، ولا من أجل العالم كله. إنني في الحال سأعمل على جلب جماجم بيدلام الكسولة إلى الفهم العميق، مثلما تغرس العقل في جمجمة أثاناسي... لهذا، أبقني بعيداً عن النار وحزمة كالفن وضحيته سرفيتوس». من هنا، لم يكن مدهشاً أنه عندما هددهم مصير سرفيتوس بالخطر، فإن جفرسون وأتباعه السياسيين كانوا يكافحون وهم خجلون من صحبتهم الحميمة لبين. لقد عومل بأدب، ولم يكن لديه سبب كي يتذمر، لكن الصداقات المريحة القديمة كانت قد ولت.

في دوائر أخرى، سارت أموره على نحو أسوأ. فالدكتور روش من فيلادلفيا، وهو أحد أصدقائه الأمريكيين الأوائل، لم يجد أن له شأناً معه. إذ كتب: «مبادئه التي جهر بها في «عصر العقل» كانت مسيئة جداً لي إلى حد أنني لم أرغب في أن أجدد علاقتي به». وفي حيه الخاص كان منبوذاً. بل رفضوا ذات مره إعطاءه مقعداً في عربة النقل، وقبل ثلاث سنوات من وفاته لم يسمحوا له بأن يصوت، بزعم أنه أجنبي كما اتهم زوراً بأنه لا أخلاقي ومفرط في إشباع شهواته، ولقد قضى السنوات الأخيرة من حياته في حال بائسة من العزلة والفقر. سنة 1809 توفي.



وأثناء احتضاره، غزا رجلا دين غرفته محاولين أن يردوه إلى الدين، لكنه قال فقط «دعوني وشأني، صباح الخير» مع ذلك اخترع المتدينون قصة عن تخليه عن معتقداته وهو على فراش الموت، وهي القصة التي صدقها الكثيرون.

شهرته بعد موته كانت في إنكلترا أكبر مما هي في أمريكا، كما أن نشر أعماله كان غير قانوني، بالطبع، لكن ذلك تم المرة تلو المرة رغم أن الكثيرين من الناس ذهبوا إلى السجن عقاباً لهم على هذه الإساءة. آخر مقاضاة في هذا المجال كانت مقاضاة ريتشارد كارليل وزوجته سنة 1819. لقد حكم بالسجن ثلاث سنوات وغرامة ألف وخمسمائة جنيه، فيما حكمت هي بالسجن سنة واحدة وخمسمائة جنيه، في تلك السنة بالذات، عاد كوبيت برفات بين إلى إنكلترا وأسس شهرته الواسعة بوصفه أحد الأبطال في الصراع من أجل الديموقراطية في إنكلترا. مع ذلك، لم يقدم كوبيت لرفاته مكان - راحة دائماً. فالنصب الذي فكر به كوبيت: يكتب مونكور كونوي «لم تتم إقامته قط. لقد حدث الكثير من اللجب من قبل البرلمان والبلدية على حد سواء. كما سجن منادي - المدينة في بولتون تسعة أسابيع لإعلان وصوله. سنة 1824 وصل الرفات، بفضل كوبيت إلى يدي أمين صندوق (ويست). ولأن وزير الخزانة رفض أن يعتبره ذا قيمة وطنية، فقد بقي لدى عامل مياوم مسن حتى سنة 1833، حين وصل إلى يدي ب. تيلي. ساحة بيدفورد، لندن وهو تاجر مفروشات. سنة 1854، قال المحترم إينسلي (وهو وحدوي) لترولوف إن لديه «الجمجمة واليد اليمنى لتوماس بين» لكنه راغ من أسئلة لاحقة. والآن لم يبق أي أثر حتى للجمجمة واليد اليمنى.



إن تأثير بين على العالم كان مزدوجاً. فخلال الثورة الأمريكية ألهم الناس الحماسة والثقة، وبالتالي فعل الكثير للتمهيد للنصر.

في فرنسا كانت شعبيته عابرة وسطحية، لكنه في إنكلترا دشن المقاومة العنيدة لدى عامة الراديكاليين للطغيان الطويل الذي مارسه بيت وليفربول. كما أن آراءه حول الكتاب المقدس، رغم أنها صدمت معاصريه أكثر من عقيدته التوحيدية كانت من النوع الذي يمكن لرئيس أساقفة أن يعتنقها، لكن أتباعه الحقيقيين كانوا من الرجال الذين عملوا ضمن الحركة التي انبثقت منه - أولئك الذين سجنهم بيت وأولئك الذين عانوا من المراسم الستة، من نقابيين واشتراكيين. لقد قدم المثل الأعلى في الشجاعة، الإنسانية والإخلاص لهدفه لكل أولئك الأبطال من المضطهدين. وحين كان الأمر يتعلق بالقضايا العامة، كان يتبنى تعقله الشخصي. لقد قرر العالم، كما يفعل عادة في حالات كهذه، أن يعاقبه لافتقاره للأنانية، وحتى هذا اليوم، شهرته أقل مما كان ينبغي أن تكون لو أنه كان شخصاً أقل سخاء وعطاء. فبعض الحكمة الدنيوية مطلوبة حتى لضمان الثناء على الافتقار لها.



الفصل التاسع

«ناس لطفاء»[1]

في نيتي أن أكتب مقالة في مدح الناس اللطفاء لكن يمكن للقارئ أن يرغب أولاً في معرفة من هم الناس الذين أعتبرهم لطفاء. أن نتوصل إلى ماهيتهم الجوهرية ربما هو صعب قليلاً، لهذا سأبدأ بتعداد بعض النماذج التي تندرج تحت هذا العنوان. فالعمات والخالات العوانس لطيفات على الدوام، خاصة، بالطبع، حين يكن ثريات. القساوسة لطفاء، باستثناء تلك الحالات النادرة التي يهرب واحدهم فيها إلى جنوب أفريقيا مع فتاة من الجوقة، بعد الادعاء بارتكاب الانتحار. لكن يؤسفني أن أقول إن الفتيات هذه الأيام نادراً ما يكن لطيفات، في حين أن معظمهن، حين كنت شاباً، كن لطيفات تماماً، بمعنى أنهن كن يشاركن أمهاتهن آراءهن ليس فقط حول الموضوعات ذاتها، بل ما هو ملحوظ أكثر، حول الأفراد وحتى الشبان. إذ كن يقلن: «نعم ماما» و«لا ماما» في اللحظات المناسبة وكن يحببن آباءهن لأنه كان من واجبهن أن يفعلن ذلك كما يحببن أمهاتهن لأنهن يحافظن عليهن من أدنى ارتكاب للخطأ. وحين كن يخطبن من أجل الزواج، كن يقعن في الحب بشيء من الاعتدال المرتب، وإذا ما تزوجن يدركن أنه من واجبهن أن يحببن أزواجهن، لكنهن كن يُتحْن للنساء الأخريات أن يفهمن أنه واجب يؤدّينه بكثير

(1) كتبت سنة 1931.



من الصعوبة، كذلك كن يتصرفن مع حمواتهن وأحمائهن بشكل لطيف، في حين يجعلن واضحاً أن أي شخص أقل التزاماً بواجبه ما كان ليفعل ذلك. كما كن لا يتكلمن بضغينة عن النساء الأخريات، بل يزممن شفاههن بطريقة لا تسمح لأحد بأن يرى ما كان من الممكن أن يعلن لولا حبهن للخير والغير، ذلك الحب الملائكي. هذا النمط هو ما يدعى بالمرأة النبيلة والنقية. لكن هذا النمط وا أسفاه، قلما يوجد الآن إلا بين العجائز.

من دواعي الرحمة أن الباقيات على قيد الحياة لديهن سلطان عظيم: فهن يتحكمن بالتعليم، حيث يسعين، ليس بدون نجاح، لأن يحافظن على معايير الرياء الفكتوري، وهن يتحكمن بالتشريع فيما يدعى بـ «القضايا الأخلاقية». نتيجة لذلك أوجدن وعززن مهنة التهريب العظيمة. إنهن يضمن أن يعبر الشبان الذين يكتبون للصحف عن لطف أولئك العجائز أكثر من لطفهم هم، وبالتالي يوسعن نطاق أسلوب أولئك الشبان وتنوع تصورهم السيكولوجي. إنهن يحافظن على عدد لا يحصى من المسرات، في حين لولاهن لكانت قد انتهت سريعاً بالتخمة. مثال على ذلك، مسيرة الاستماع للكلمات البذيئة على المسرح، أو رؤية قدر من العري هناك أكبر قليلاً من المعتاد. فوق ذلك كله، هن يحافظن على متع الصيد حية باقية. ففي بلاد متجانسة السكان، كما هي الحال في منطقة إنكليزية، يُدان الناس الذين يصطادون الثعالب فهذا مكلف وأحياناً خطر، زد على ذلك أن الثعلب لا يمكن أن يشرح كم يكره أن يتعرض للصيد. في هذه المجالات كلها، صيد الكائنات البشرية رياضة أفضل، لكن لولا وجود الناس اللطفاء، فإنه سيكون من الصعب صيد الكائنات البشرية بضمير مرتاح. أما ذلك الذي يدينه الناس اللطفاء فهو الصيد



القانوني، إذ لدى صياحهم «تاليهو» لتحريض الكلاب، يتجمع الصيادون ويلاحقون الضحية إلى السجن أو الموت وهي رياضة جيدة خاصة عندما تكون الضحية امرأة، نظراً لأن ذلك يرضي غيرة النساء وسادية الرجال. في الوقت الحاضر، أنا أعرف امرأة أجنبية تعيش في إنكلترا في اتحاد سعيد، وإن يكن غير قانوني، مع رجل تحبه ويحبها. لسوء الحظ، آراؤها السياسية ليست محافظة بالقدر المرغوب، رغم أنها مجرد آراء، لا تفعل عملياً شيئاً من أجلها. لكن الناس اللطفاء استخدموا هذا المبرر لأن يضعوا سكوتلاند يارد في أثرها. ثم تطرد إلى بلادها الأصلية كي تموت جوعاً. فالأجنبي في إنكلترا، كما في أمريكا، ذو تأثير يحط من القدر أخلاقياً. وكلنا ندين بالشكر للشرطة للعناية التي يبذلونها لكي يروا أن الأجانب الفاضلين بصورة استثنائية فقط هم الذين يسمح لهم بالإقامة بيننا.

كذلك، ينبغي ألا نفترض أن كل الناس اللطفاء هم من النساء، رغم أنه الأعم، بالطبع، أن تكون النساء لطيفات أكثر من الرجال، إذ بمعزل عن القساوسة، والكهان هناك الكثير من الرجال اللطفاء الآخرين، مثال على ذلك، أولئك الذين جمعوا ثروات كبيرة والآن تقاعدوا من عملهم لينفقوا ثرواتهم على البر والإحسان. القضاة هم دائماً تقريباً رجال لطفاء أيضاً. مع ذلك، لا يمكن القول إن كل داعمي القانون والنظام هم رجال لطفاء. إذ أتذكر أنني سمعت، وأنا شاب، شيئاً قالته امرأة لطيفة، كحجة ضد عقوبة الموت وهي أن من الصعب أن يكون الجلاد رجلاً لطيفاً. شخصياً، أنا لم أتعرف على أي جلاد، لذلك، أنا غير قادر على وضع هذه الحجة على المحك وأحكم على صحتها. لكنني كنت أعرف سيدة قابلت جلاداً في قطار دون أن تعرف من هو، وحين عرضت عليه بطانية، لأن الطقس كان



بارداً قال لها: «يا سيدتي، لو تعرفين من أنا لما كنت ستفعلين ذلك». وهو ما يبين، على ما يبدو، أنه كان لطيفاً رغم كل شيء، مع ذلك، هذا يجب أن يكون استثنائياً. فالجلاد في رواية ديكينز «برنابي روج»، هو بالتأكيد ليس رجلاً لطيفاً، بل ربما يكون نموذجياً أكثر.

مع ذلك، أنا لا أظن أن علينا أن نوافق المرأة اللطيفة التي اقتبست قبل لحظات إدانتها لعقوبة الموت، فقط لأن الجلاد لا يمكن أن يكون لطيفاً. فأن تكون شخصاً لطيفاً، من الضروري أن تكون محمياً من التماس الفظ مع الواقع وأولئك الذين يقومون بالحماية لا يمكن أن نتوقع أن يشاركوا في اللطف الذي يحمونه. لنتصور مثلاً، تحطم سفينة تنقل عدداً من العمال الملونين. إذ سيتم أولاً إنقاذ مسافرات الدرجة الأولى، اللواتي يفترض أنهم جميعاً لطيفات، لكن لكي يتم هذا، لا بد أن يكون هناك رجال يمنعون الملونين من ركوب الزوارق حتى درجة الإغراق، ومن غير المحتمل أن يكون هؤلاء الرجال قادرين أن ينجحوا في ذلك بطرق لطيفة. أما النساء اللواتي يتم إنقاذهن فسوف يبدأن حالما يتم ذلك، بالشعور بالأسى على العمال الفقراء الذين غرقوا، لكن قلوبهن الرقيقة تصبح كذلك فقط من قبل الرجال الأجلاف الذين دافعوا عنهن.

بصورة عامة، يترك الناس اللطفاء إدارة العالم أمنياً لأجراء، لأنهم يشعرون أن عملاً كهذا ليس لشخص لطيف تماماً أن يمارسه، مع ذلك هناك جزء لا يمكن أن يتفاوضوا عليه، ألا وهو دائرة الاغتيال والفضيحة. يمكن وضع الناس ضمن تراتبية للطف بقدر سلاطة ألسنتهم. فإذا تكلم آ ضد ب وب تكلم ضد آ، فإنه بصورة عامة سيوافق المجتمع الذي يعيشان فيه أن واحداً منهما يقوم بواجب اجتماعي، فيما يحكم على الآخر بالحقد والضغينة. وعادة، يقوم



بالواجب الاجتماعي الشخص الألطف من الآخر. وهكذا، على سبيل المثال، آنسة رئيسية في مدرسة هي ألطف من آنسة مساعدة أخرى، لكن سيدة في هيئة إدارة المدرسة، تكون ألطف منهما كلتيهما، واللغو الموجه - جيداً يمكن بسهولة أن يجعل ضحيته تفقد خبز يومها، بل حتى عندما لا تتحقق هذه النتيجة النهائية، يمكن أن يحول الشخص المستهدف إلى شخص منبوذ. لهذا، يعد ذلك اللغو قوة خير عظيمة، وعلينا أن نكون شاكرين ممتنين أن الناس اللطفاء هم الذين يستخدمونه.

الميزة الرئيسية للناس اللطفاء هي ما يمارسونه مشكورين من أعمال هدفها تحسين الواقع، لقد أبدع الإله العالم، لكن الناس اللطفاء يشعرون أنهم سيجعلون العالم على نحو أفضل، فهناك الكثير من النواقص في ما أبدع الإله، على الرغم من أنه نوع من الكفر أن نرغب في أن يكون العالم بصورة أخرى، كما لا يستحسن بأي شكل وليس من اللطف أن نذكر تلك النواقص. إن المتدينين يعتقدون أنه لو لم يأكل أبونا آدم وأمنا حواء التفاحة لكان العرق البشري سيسد النقص بنمط بري، من حياة البلادة والخمول، كما يدعوه جيبون. الخطة الإلهية، في هذا المجال، غامضة بالتأكيد. ومن المستحسن كثيراً أن ننظر إليها، كما يفعل المتدينون آنفو الذكر، من منظار معاقبة الإثم، لكن مشكلة هذه النظرة أنها على الرغم من أنها قد تكون عقاباً بالنسبة إلى الناس اللطفاء، فإن الآخرين، للأسف، يجدونها سارة تماماً. لذلك، تبدو كما لو أن العقوبة وقعت في الجهة الخطأ.

إن أحد الأهداف الرئيسية للناس اللطفاء هو أن يصلحوا هذا الظلم غير المقصود ولا شك، إنهم يسعون لكي يضمنوا أن يظل النموذج الذي تم التوصل إليه لحياة البلادة والخمول قيد الممارسة،



سواء بشكل ماكر أو لا مبالٍ. إن أولئك الذين يمارسون بشكل ماكر سيكونون، حين يُكتشفونَ، حكام الناس اللطفاء، وذلك بسبب الدمار الذي يمكن أن يلحق بهم نتيجة الفضيحة. إنهم يسعون ليضمنوا أيضاً أن يعرف عنهم أقل ما يمكن حول الموضوع بطريقة لائقة. إنهم يحاولون أن يجعلوا الرقابة تمنع الكتب والتمثيليات التي تقدم المسألة بطريقة أخرى غير أن تكون مناسبة للضحك الساخر من الوساخة. وفي هذا هم ينجحون مهما يكن القدر الذي يتحكمون فيه بالقوانين والشرطة ضئيلاً. من غير المعروف، لماذا صنع الإله ابن آدم على النحو الذي صنعه به، نظراً لأن على المرء أن يفترض أنه كان بإمكان الإله كلي القوة أن يصنعه بطريقة لا تصدم الناس اللطفاء. مع ذلك، ربما كان هناك سبب جيد. فهناك في إنكلترا، منذ نهوض صناعة النسيج في لانكشاير، تحالف وثيق بين البعثات الدينية وتجارة القطن، لأن تلك البعثات تعلم المتوحشين أن يستروا الجسد البشري وبالتالي أن يزيدوا الطلب على القطن وبضائعه. ولو أنه لم يكن هناك شيء معيب فيما يتعلق بالجسد البشري، لكانت تجارة القطن قد فقدت مصدر المنفعة هذا. يبين هذا المثل أننا لسنا بحاجة لأن نخشى أبداً أن يخفض انتشار الفضيلة من منافعنا.

وأياً كان مخترع عبارة «الحقيقة العارية»، فإنه كان يدرك الصلة المهمة بين الكلمتين. فالعري يصدم كل الناس ذوي الأذهان - المتصلبة، كذلك هي الحقيقة. والجزء الذي يعنيك لا يهم إلا قليلاً، فأنت ستجد سريعاً أن الحقيقة، مثلها مثل الناس اللطفاء، لا تدخل في نطاق وعيهم، وذات مرة قادني سوء الحظ لأن أكون حاضراً في محكمة لأستمع لقضية كنت أعرف جيداً تفاصيلها، ولقد صدمت بأنه لا يسمح لأدنى حقيقة بالدخول إلى ما وراء تلك البوابات المهيبة.



فالحقيقة التي تدخل قاعة محكمة ليست الحقيقة العارية بل الحقيقة بلباس المحكمة، وقد أخفيت كل ما فيها من عورات. أنا لا أقول إن هذا ينطبق على محاكاة الجرائم المفضوحة، كالقتل أو السرقة، بل ينطبق على كل قضية يمكن أن يكون التحيز عنصراً من عناصرها، كالمحاكمات السياسية أو المحاكمات الخاصة بالبذاءة. إنني أعتقد أن إنكلترا، في هذا المجال، أسوأ من أمريكا، لأن إنكلترا قد أوصلت إلى الكمال التحكم غير المرئي تقريباً ونصف اللاواعي في كل شيء غير سار من خلال مراعاة الحشمة. فإذا كنت ترغب أن تذكر في قاعة محكمة أي حقيقة فجة وغير قابلة للتمثل، ستجد أنه من المناقض لقوانين الشهادة أن تفعل ذلك، وأنه ليس القاضي ومستشاروه فقط، بل مستشاروك أنت أيضاً سيمنعونك من قول تلك الحقيقة.

النوع ذاته من اللاحقيقة يسود السياسة، وذلك بفضل مشاعر الناس اللطفاء. فأن تحاول أن تقنع أي شخص لطيف أن سياسياً من سياسيي حزبه هو كائن فانٍ عادي شأنه شأن أبناء الجنس البشري كلهم، فإنه سيفنّد، بكل سخط قولك. نتيجة لذلك، من الضروري أن يظهر السياسيون وكأنهم معصومون. وفي معظم الأوقات يجتمع السياسيون من كل الأحزاب سراً لمنع أي شيء مدمر للمهنة من أن يعرفه الناس، لأن الاختلاف الحزبي يعمل على انقسام السياسيين أقل مما تعمل هوية المهنة لتوحيدهم. بهذه الطريقة، يكون الناس اللطفاء قادرين على الاحتفاظ بصورتهم المتخيلة عن رجال الأمة العظام، كما يدفع تلاميذ المدرسة لأن يعتقدوا أن ذلك البروز لا يتم إلا بواسطة الفضيلة العليا. صحيح أن هناك أوقاتاً استثنائية تصبح السياسة فيها مريرة فعلاً، لكن في كل الأوقات، هناك سياسيون لا يُعتبرون محترمين كفاية لكي ينتسبوا إلى نقابة العمال غير الرسمية.



مثال على ذلك، بارنل كان قد اتهم أولاً اتهاماً فاشلاً بالتعاون مع القتلة ومن ثم تم الحكم عليه بنجاح بقضية الإساءة للأخلاق وعلى نحو لم يكن أحد من متهميه، بالطبع يحلم بأنه ارتكبه. في أيامنا هذه، الشيوعيون في أوروبا والرديكاليون المتطرفون ومحرضو العمال في أمريكا هم خارج الحظيرة. إذ ليس هناك هيئة كبيرة من الناس اللطفاء تعجب بهم وإذا ما أساؤوا للقوانين الدستورية عليهم أن يتوقعوا معاملة لا رحمة فيها، بهذه الطريقة تصبح القناعات الأخلاقية الثابتة للناس اللطفاء مرتبطة بالدفاع عن الملكية لتثبت بذلك مرة أخرى جدارتها التي لا تقدر بثمن.

يشك الناس اللطفاء كل الشك بالمسرة أينما يرونها.

فهم يعلمون أن من تزداد حكمته يزداد حزنه ويستدلون على ذلك بأن من يزداد حزنه تزداد حكمته. لذلك يشعرون أنهم في نشرهم للحزن، ينشرون الحكمة، ونظراً لأن الحكمة أثمن بكثير من الياقوت، فإن لديهم كل المبررات لأن يشعروا أنهم يقومون بتقديم المنفعة في فعلهم ذلك. فهم مثلاً يقيمون ملعباً عاماً للأطفال لكي يقنعوا أنفسهم بأنهم محبون للخير. ومن ثم يفرضون تنظيمات كثيرة جداً على استخدامه، بحيث لا يمكن للطفل أن يكون سعيداً فيه بقدر ما يكون في الشارع. وهم يبذلون جهدهم لمنع فتح الملاعب، المشاريع...إلخ أيام الأحاد لأنها الأيام التي يمكن أن يستمتع بها الناس أما الفتيات في مكان عملهن فيمنعن، ما أمكن، من التكلم مع الشباب، لكن ألطف الناس الذين عرفتهم كانوا يحملون ذلك الموقف إلى قلب العائلة كما يجعلون أطفالهم يلعبون ألعاباً فيها تعليم فقط. لكن هذه الدرجة من اللطف، ويؤسفني أن أقول ذلك، باتت أقل انتشاراً مما كانت. ففي أيامنا القديمة كان الأطفال يتعلمون أن:



ضربة واحدة من قضبه الإلهي

يمكن أن ترسل سريعاً الآثمين الفتيان إلى الجحيم

وكان من المفهوم أن هذا يحتمل أن يحدث إذا أصبح الأطفال مرحين إلى حد صاخب أو انغمسوا في أي نشاط لا يحسبه القساوسة مناسباً لهم. إن التعليم القائم على وجهة النظر هذه يقدمه كتاب «أسرة الطفل الحسن» وهو عمل لا يقدر بثمن عن كيفية إنتاج الناس اللطفاء. مع ذلك، أنا أعرف في الوقت الحاضر القليل من الوالدين الذين يعيشون وفق هذا المعيار الرفيع. لقد أصبح شائعاً إلى حد محزن أن نرغب في أن يستمتع الأطفال بأنفسهم، وإنه ليُخشى أن أولئك الذين يربون على هذه المبادئ المتسمة بالانحلال، لن يبدوا الخوف الكافي من المسرات حين يكبرون.

إن أيام الناس اللطفاء؛ وأخشى ذلك، قد انقضت تقريباً. فهناك شيئان يقضيان عليها. الأول هو الاعتقاد بأنه لا ضرر في أن تكون سعيداً، شريطة أن لا يصاب أحد آخر بسوء نتيجة لذلك. الثاني هو كره الخداع، وهو كره فيه من الجمالية بقدر ما فيه من الأخلاق تماماً. هذان التمردان كلاهما حصلا بتشجيع من الحرب، حين كان الناس اللطفاء في كل البلدان آمنين مسيطرين، وباسم الأخلاق الرفيعة كانوا يحضون الشبان على أن يذبح بعضهم بعضاً لكن حين انتهى ذلك كله، بدأ الناجون من الحرب يتساءلون فيما إذا كان الكذب والبؤس اللذان جاءا بوحي الكراهية يشكلان الفضيلة العليا. وأخشى أنه قد يستغرق بعض الوقت قبل أن يتمكن أحد مرة ثانية من قبول هذه العقيدة الأساسية لكل أخلاق رفيعة حقاً.



إن جوهر الناس اللطفاء هو أنهم يكرهون الحياة كما تتجلى في النزوع إلى التعاون، في فرح الأطفال وفوق كل شيء في الجنس، مع أن التفكير به هو الذي يشكل هاجساً لهم. إن الناس اللطفاء، بكلمة أخرى، هم أولئك أصحاب العقول النتنة.



الفصل العاشر

الجيل الجديد

هذه القطعة هي مقدمة رسل، لكتاب «الجيل الجديد» وهو الكتاب الذي يحتوي على إسهامات عدد من علماء النفس البارزين ودارسي العلوم الاجتماعية. فيما يتعلق بملاحظة رسل بأنه في روسيا وحدها «الدولة ليست في قبضة الأهواء الدينية والأخلاقية»، يجب التأكيد أن هذه كتبت سنة 1930، لكن في السنوات الأخيرة من حكم الستالين، كل المحاولات لوضع مجموعة قوانين عقلانية تم التخلي عنها وأصبح التشريع في هذا المجال ليس أقل قمعاً وتطهرية مما هو في البلدان الغربية وقد تنبأ رسل بشيء من تطور كهذا منذ أوائل العشرينات.

في الصفحات التالية، ثمة عدة فروع من المعرفة التي تؤثر في سعادة الأطفال وعلاقتهم بوالديهم، يتناولها مساهمون تخصصوا في المجالات المتعددة المعنية. وكمقدمة لهذه الدراسات، فإنني أقترح أن نتأمل جيداً الطريقة التي حولت بها المعرفة الجديدة، وما يزال من المحتمل أكثر أن تحول العلاقات البيولوجية التقليدية، إنني أفكر ليس فقط ولا حتى بشكل رئيسي بآثار المعرفة المتعمدة والمقصودة، بل أيضاً وبصورة خاصة أكثر، بالمعرفة كقوة طبيعية تؤدي إلى نتائج غير مقصودة من أنواع غير متوقعة وأشد غرابة. إنني على ثقة أن جيمس واط لم يكن يرغب في تأسيس عائلة تقوم على أساس النظام الأمومي، لكنه، بجعله ممكناً بالنسبة للرجال أن يناموا في أماكن بعيدة عن أماكن عملهم، فقد أوجد هذا الأثر لدى قسم كبير من سكاننا في المدن. إن مكانة الأب في الأسرة الحضرية الحديثة ضئيلة



جداً - خاصة إن كان يلعب الغولف، وهو ما يفعله عادة. إذ يغدو من الصعب عليه قليلاً أن يرى ما يتم شراؤه حين يدفع لأولاده، ولولا العرف والتقليد لكان من الممكن أن يشك فيما إذا كان يعتبر الأولاد صفقة جيدة أم لا. لقد قدمت الأسرة ذات النظام الأبوي في عزها للرجل فوائد كبيرة، إذ وفرت له أبناء يمكن أن يعيلوه في شيخوخته ويدافعوا عنه ضد أعدائه الكثر. الآن، وفي كل الطبقات التي يعيش فيها الرجال على استثمارات أو ما يوفرونه من مكاسبهم، ليس للابن أية فائدة مالية للأبوين مهما طال بهما العمر.

إن المعرفة الجديدة هي السبب في القفزات الاقتصادية والسيكولوجية التي تجعل عصرنا صعباً ومثيراً للاهتمام في الآن نفسه. لقد كان الإنسان أيام زمان يخضع للطبيعة، الطبيعة الجامدة كما هو الأمر فيما يتعلق بالمناخ وخصب الغلال، وللطبيعة البشرية، في ما يتعلق بالدوافع العمياء التي كانت تقوده للإنجاب والقتال. أما الإحساس الناجم عن العجز فكان يُستغل فمن قبل الدين من أجل تحويل الخوف إلى واجب والانعزال إلى فضيلة. بيد أن الإنسان الحديث، كما هو موجود الآن في عينات قليلة فقط، فلديه نظرة مختلفة، إذ أن العالم المادي ليس بالنسبة إليه معطى، عليه أن يقبله شاكراً حامداً ربه، إنه الآن مادة خام تخضع لتدابيره العلمية. مثال على ذلك، الصحراء هي المكان الذي يجب نقل المياه إليه، مستنقع الملاريا هو المكان الذي ينبغي تجفيف مياهه. وكلاهما من غير المسموح له أن يؤكد عداوته للإنسان، وهكذا في صراعاتنا ضد الطبيعة المادية من حولنا لم نعد بحاجة للإله كي يساعدنا ضد الشيطان. الأمر الأقل تقديراً ربما حتى الآن، هو أن تغيراً مشابهاً من حيث الجوهر قد بدأ يجري فيما يتعلق بالطبيعة البشرية. لقد بات



واضحاً الآن، وعلى الرغم من أن الفرد قد يجد صعوبة في تغيير شخصيته عامداً، أن عالم النفس، إذا سمح له بالتعامل الحر مع الأطفال، يمكنه بالطرق العلمية أن يتدبر طبيعتهم البشرية بالحرية ذاتها التي يتدبر بها أهل كاليفورنيا الصحراء. فلم يعد الشيطان هو الذي يقترف الإثم، بل هي الغدد السيئة والتكيف غير الحكيم.

عند هذه النقطة، ربما يتوقع القارئ تعريفاً للاثم. على أي حال، ليس في هذا أية صعوبة: فالإثم هو ما يبغضه أولئك الذين يشرفون على التعليم.

لكن يجب الاعتراف بأن هذا الوضع يلقي على كاهل السلطة الدنيوية مسؤولية جديدة وخطيرة. فحتى الآن بقي الجنس البشري حياً، لأنه، مهما كانت أهدافه حمقاء، لم يكن يمتلك المعرفة المطلوبة لتحقيقها. الآن وقد تم اكتساب تلك المعرفة، فإن قيداً أكبر من الحكمة. فيما يتعلق بغايات الحياة وأهدافها، بات مطلوباً وملزماً أكثر من ذي قبل. لكن أين توجد مثل هذه الحكمة في عصرنا المتحير؟

إن المقصود من الأفكار العامة الآنفة الذكر هو القول فقط بأن مؤسساتنا كلها وحتى تلك ذات الارتباط الأشد حميمية بما اعتدنا أن ندعوه غريزة، مضطرة في المستقبل القريب لأن تصبح ضمن حدود الوعي والتعمد أكثر مما كانت حتى الآن وأن هذا يجب أن ينطبق بصورة خاصة على إنجاب الأطفال وتربيتهم. قد تكون الطريقة الجديدة أفضل من القديمة، ومن السهولة أن تكون أسوأ أيضاً. فالمعرفة الجديدة لأيامنا هذه طعنت بفظاظة كبيرة آلية السلوك التقليدي بحيث لا يمكن للنماذج القديمة أن تبقى، فيما نماذج جديدة للخير أو الشر باتت إلزامية.



لقد جاءت أسرة اليوم من الماضي غير المتخصص عندما كان الإنسان يصنع حذاءه بيده ويخبز خبزه بيده، غير أن الأنشطة الذكورية تجاوزت هذه المرحلة الآن، بينما يعتقد الناس الفضلاء أنه يجب أن يكون هناك تغيّر مرافق في أنشطة النساء. فالتعامل مع الأطفال نشاط متخصص يتطلب معرفة متخصصة وبيئة مناسبة. وتربية الأطفال في المنزل مشابهة لدولاب الغزل وهي أيضاً غير اقتصادية. ومع نمو المعرفة فإن المزيد من دوائر تنشئة الطفل يجب أن تخرج من المنزل، كذلك لم يعد مألوفاً أن تلد الأم طفلها داخل المنزل. وحين يمرض لم يعد يعالج بالأساليب التقليدية البسيطة التي قضت على معظم أطفال أسلافه. كذلك لم يعد يتعلم الصلوات على ركبة أمه بل في مدرسة الأحد. والأسنان لم تعد تقلع كما كان الأمر عندما كنت أنا فتياً، بربط خيط بالسن من جهة وبمقبض الباب من جهة ثم إغلاق الباب بقوة. إن للمعرفة الطبية دورها في حياة الطفل، كما لمعرفة الشؤون الصحية دور آخر، فيما علم نفس الطفل يتطلب دوراً ثالثاً. في النهاية، تتخلى المرأة المتحيرة عن ذلك كله باعتباره عملاً سيئاً، وبتهديد من عقدة أوديب، تبدأ الشعور بأن كل عاطفتها الطبيعية فيها أثر من إثم.

إن أحد الأسباب الرئيسية للتغير هو تناقص الولادات والوفيات. فكلتاهما لحسن الحظ تناقصتا معاً. ولو أن إحداهما تضاءلت دون الأخرى، فإن النتيجة ستكون كارثية. ذلك أن حكومات العالم، إضافة إلى الكنائس التي يعتمد تأثيرها على البؤس والعجز البشريين، بذلت كل ما في وسعها للتوصل إلى هذه الكارثة، نظراً لأنها حاولت أن تمنع أي تناقص في معدل الولادات، هذا المتلازم مع التناقص في معدل الوفيات. لكن في هذا المجال، ولحسن حظ الجنس البشري، أثبتت أنانية الفرد أنها أقوى من الحماقة الجماعية.



لقد أعطى حجم الأسرة الحديثة الصغير للوالدين إحساساً جديداً بقيمة الطفل. فالوالدان اللذان لديهما طفلان فقط لا يكرهان كأن يموت أحدهما، في حين أنه في عائلة قديمة من عشرة أو خمسة عشر طفلاً، يمكن التضحية بنصفهم نتيجة الإهمال دون أن يرف للوالدين جفن. كما تعتبر العناية العلمية الحديثة بالأطفال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصغر حجم الأسرة الحديثة.

في الوقت ذاته، فإن هذا التغير جعل الأسرة بيئة سيكلوجية أقل ملاءمة للأطفال وشغلاً للنساء غير شاغل. إن امتلاك خمسة عشر طفلاً معظمهم كانوا يموتون أمر غير سار في الحياة ولا شك، لكنه على أية حال لم يكن يترك إلا القليل من الفراغ بالنسبة لتحقيق الذات. من جهة أخرى أن يكون لديك طفلان أو ثلاثة، لا يجعلك تشعر بأنه عمل كافٍ في الحياة. لكن طالما يتم الاحتفاظ بمنزل قديم - الطراز، فإن ذلك يعارض جدياً أي أسلوب آخر للحياة. وهكذا، فإن الناس الذين لديهم أطفال أقل يشعرون بعبء أكبر مما يشعر به الناس تجاه الأطفال.

في هذه الأيام، وحين بات معظم الناس يعيشون في المدن، وفي جو من الزحام، نتيجة الإيجارات العالية، فإن المنزل، كقاعدة، بات بيئة غير صحية جسدياً للطفل، إن الإنسان الذي يزرع ثلاث غرسات في حديقة المنزل يجب أن يوفر لها التربة الصالحة، الإنارة الصحية، الهواء والفضاء المناسب ثم الجيرة المناسبة. إنه لا يحاول أن يربي الأشجار في أقبية منفصلة. وذلك ما ينبغي فعله بالنسبة للأطفال طالما هم يعيشون في منزل حضري معاصر. إذ أن الأطفال، شأنهم شأن الغراس، يتطلبون التربة والهواء والنور وجيراناً من نوعهم، من هنا ينبغي على الأطفال أن ينشؤوا في الريف، حيث يمكن أن تتوفر لهم الحرية دون إزعاج. ذلك أن الجو السيكولوجي



لشقة صغيرة في المدينة جو سيء بقدر ما هو سيء جسدياً. لنتأمل هنا مسألة الأنف، فالناس الناضجون المشغولون لا يمكن أن نتوقع منهم أن يتحملوا صخباً مستمراً في كل ما حولهم، لكن أن نقول للطفل لا تخضب ولا تثر ضجة إنما هو شكل من أشكال القسوة قد ينتج لديه نوعاً من السخط يؤدي، إلى عيوب خلقية خطيرة. الأمر ذاته ينطبق إلى حد كبير على ضرورة عدم تحطيم الأشياء. فعندما يتسلق صبي رفوف المطبخ ويكسر كل الأواني الصينية، نادراً ما يكون والداه مسرورين. مع ذلك، فإن نشاطه هو من النوع الذي يعتبر أساسياً لنموه الجسدي. وفي بيئة معدة خصيصاً للأطفال، لن يكون هناك حاجة لكبح أو منع دوافع طبيعية وصحية كهذه.

إن التغيرات السيكولوجية في نظرة الوالدين هي حتماً نتاج التغيرات العلمية والاقتصادية التي أثرت في الأسرة. فمع تنامي الإحساس بالأمان، تنامت، ولا بد النزعة الفردانية وازدادت. إذ أن ما كان يحد النزعة الفردانية في الماضي إنما هو الخوف والحاجة للتعاون المتبادل. ذلك أن مستوطنة من المقيمين يُحيط بها الهنود الحمر يكون فيها، بالضرورة، إحساس قوي بالجماعة، نظراً لأنه إن لم يكن موجوداً، فإنهم قد يمسحون عن وجه الأرض.

في الوقت الحاضر، الأمن توفره الدولة، لا التعاون الطوعي، بحيث يتحمل الإنسان أن يكون فردياً في ذلك الجزء من حياته الذي يتحكم به فردياً. هذا ينطبق بصورة خاصة على العلاقات الأسرية، فدور الرجل في رعاية الأطفال ربما لا يتعدى إلا قليلاً الجانب المالي، والتزاماته المالية يلزمها بها القانون وينفذها إن لزم الأمر، بحيث لا يتوقف الأمر كثيراً على إحساسه الشخصي بالواجب، والمرأة، إذا كانت ذكية وقوية، يحتمل أن تشعر أن الواجبات الأمومية



المقتضبة المتبقية لها، غير كافية كعمل في الحياة، طالما أن معظمها يمكن تأديته من قبل خبراء وبطريقة علمية أكثر. هذا الشعور قد يعمل على نطاق أوسع بكثير، لكن الشعور الباقي لدى الرجال، هو أنهم يحبون أن تكون زوجاتهم معتمدات مالياً عليهم. مع ذلك، هذه كلها نوع من المشاعر المتبقية من عصر أقدم، ولقد ضعفت هذه المشاعر ومن المحتمل أن تختفي وتزول خلال وقت ليس بالطويل.

هذه التطورات كلها أضعفت الأسباب التي كانت تقود الناس لتجنب الطلاق. لكن مع انتشار الطلاق أكثر وتيسره أكثر، تضعف الأسرة أكثر أيضاً، نظراً لأن ذلك، بالنتيجة، يؤدي عادة إلى طفل له أحد الوالدين فقط.

بسبب هذا كله ولأسباب أخرى قدمها د. واطسون في مساهمته، يبدو حتمياً، سواء كان ذلك لخيرها أو شرها، أن الأسرة، كوحدة، ستتلاشى أكثر وأكثر في المستقبل دون أن تترك للجماعة السكانية أن تتدخل بسلطتها بين الفرد والدولة. هذا لا ينطبق كثيراً على الأثرياء الذين يمكنهم أن يستمروا في استخدام المربيات، المدارس الخاصة، الأطباء الخصوصيين وكل الآليات المكلفة للعمل الخاص. لكن بالنسبة إلى ذوي الدخل المحدود، فإن كلفة فردانية كهذه باهظة. وفيما يتعلق بأطفالهم، فأمر حتمي أن أية وظيفة لا يؤديها الوالدان بعد، إنما تؤديها الدولة. لذلك، وبما يتعلق بالغالبية العظمى من الناس، فإن الخيار يقع، ليس بين رعاية الوالدين ورعاية الخبراء الذين ينتقيهم الوالدان، بل بين الوالدين والدولة.

هذا المنظور ينسحب على كل من يفهمون الموقف العلمي الحديث تجاه الأطفال على أنه مسؤولية الدعاية الجدية. إن الدولة في الوقت الحاضر، باستثناء روسيا هي في قبضة الأهواء الدينية



والأخلاقية التي تجعلها عاجزة كلياً عن التعامل مع الأطفال بأسلوب علمي. هنا، بودي أن أوصي القراء بأن يتأملوا جيداً، مثلاً، إسهامات هافلوك إليس، وفيليس بلانشارد في الصفحات التالية. وعلى كل قارئ صادق أن يدرك أنه طالما لا يمكن للسياسيين أن يتجاوزوا علم اللاهوت والأخلاق التقليديين، فإن الطرق المدعو لها في هذه الإسهامات ينبغي ألا تستخدم في أي مؤسسة تسيطر عليها الدولة. مثال على ذلك، ولاية نيويورك ما تزال تعتقد رسمياً أن ممارسة العادة السرية تسبب الجنون، ومن الواضح أنه ما من سياسي يستطيع أن يعارض هذا الرأي دون أن يلحق الأذى بحياته كسياسي. لذلك، لا يمكن لأحد أن يأمل بأن تعالج ممارسة العادة السرية معالجة علمية في أية مؤسسة للدولة غير مصح للمجانين أو دار للمتخلفين - عقلياً. هذه المؤسسات هي الوحيدة المسموح لها بتبني الطرق المناسبة، لأن المجانين والمعتوهين لا يعتبرون مسؤولين أخلاقياً. مثل هذه الحالة نوع من العبث. إذ قد يكون هناك قانون يقضي بأن السيارات الرخيصة فقط يمكن إصلاحها، في حين أن السيارات الغالية يجب أن تجلد أو تخضع للموعظة من قبل رجال الدين. والذين يتصورون توسعاً كبيراً لمؤسسات الدولة الخاصة بالأطفال في المستقبل، إنما هم عموماً يتصورون أنفسهم أو أصدقاءهم على رأس مؤسسات كهذه. هذا بالطبع، وهم أحمق إذ طالما أن رواتب معتبرة ستلحق بإدارة أية مؤسسة مهمة من هذا النوع، يغدو من الواضح، أن الإشراف والإدارة سيكونان عادة من نصيب العمة، أو الخالة العانس لسياسي بارز ما. وطبقاً لإلهامها النبيل، سيتعلم الأطفال أن يؤدوا صلواتهم وأن يبجلوا الصليب والعلم وأن يشعروا بعذاب الضمير، عندما يمارسون العادة السرية، وبالرعب الشديد عندما يسمعون أطفالاً آخرين يذكرون كيف يتم إنجاب الأطفال. ذلك أنه بوجود مؤسسات متكيفة اقتصادياً مع



عصر الآلة، فإن عبودية ذهنية كهذه يمكن أن تطول لعصور لا عد لها ولا حصر، وينبغي أن يكون هناك المزيد من العلماء المرتدين الذين يرغبون في أن يساعدوا في إغلاق أذهان الفتيان في وجه مقاربات العقل والمنطق بل يمكن البرهنة على أنه من الممكن القضاء على ممارسة تحديد النسل، وهي الحالة التي يصبح من الضروري، حسب رأي الطب الحديث، أن نزيد إلى حد كبير من وتيرة الحروب وشراستها لكي نتعامل مع فائض السكان الناتج عنها.

لأسباب كهذه من اللازم، إذا كان يتعين على الدولة أن تكتسب قوى ضخمة كهذه، أن تصبح مستنيرة. وهي لن تفعل ذلك من تلقاء ذاتها، بل ستفعله فقط حين تكف غالبية السكان عن الإصرار على الاحتفاظ بالأساطير القديمة. إن معظم الناس المستنيرين الذين يعيشون في عالم غير واقعي، يصبحون أصدقاءهم ويتصورون أن بعض الأشخاص الاستثنائيين فقط هم غير مستنيرين هذه الأيام. غير أن شيئاً من الخبرة في السياسة الدنيوية، والكثير منها في إدارة شؤون القانون المتعلقة بما يدعى بالقضايا الأخلاقية، سيكون ذا فائدة كبيرة لكل من لديه آراء عقلانية سواء ما يخص تنشئة الطفل أو أي موضوع آخر. إنني مقتنع بأن دعاية عامة واسعة الانتشار للعقلانية أهم بكثير مما يظن معظم العقلانيين خارج روسيا.

وعلى فرض أنه تم تحطم الأسرة وتأسيس مؤسسات دولة ذات سلوك عقلاني خاصة بالأطفال، سيكون من المحتمل أن يجد الناس أن من الضروري التقدم خطوة أخرى على طريق استبدال التنظيم الخاص بالغريزة. فالنساء المعتادات على ضبط النسل واللواتي لا يسمح لهن بالاحتفاظ بأطفالهن سيجدن القليل من الدوافع لتحمل مشقة الحمل وآلام الإنجاب. نتيجة لذلك ولكي يتم الحفاظ على



مستوى السكان كما هو، من المحتمل أن يصبح من الضروري جعل حمل الأطفال مهنة ذات مردود جيد، على ألا يتم ذلك، بالطبع، من قبل كل النساء أو حتى الأغلبية، بل فقط من قبل نسبة معينة منهن يخضعن لاختبارات فيما يتعلق بملاءمتهن من وجهة نظر إنجاب - النسل، أما ما يجب أن يفرض من اختبارات على الآباء وما هي النسبة التي يجب أن يشكلوها من السكان الذكور، فهي مسائل من السابق لأوانه الآن الدعوة للبت بها. لكن ضمان عدد كافٍ من المواليد مسألة يحتمل أن تصبح ملحة في وقت قريب، طالما أن معدل نقص الولادات ما يزال مستمراً ولا بد أن يؤدي في وقت قريب إلى تناقص في عدد السكان أو في معدل السكان القادرين جسدياً. ذلك أنه إذا كان الطب سينجح في إبقاء معظم الناس أحياء حتى سن المائة، فإن هذا المكسب بالنسبة للمجتمع سيكون موضع إشكال.

أما مكسب العرق البشري المتوقع من علم نفس عقلاني في التعامل مع الأطفال فهو غير محدود تقريباً. والمجال الأهم بالطبع هو مجال الجنس. فالأطفال يتعلمون أشياء خرافية حول أعضاء معينة من الجسد، حول بعض الكلمات والأفكار، وحول أنواع معينة من اللعب الذي تدفعهم الطبيعة إليه. والنتيجة هي أنهم عندما يبلغون يصبحون جامدين وفظيعين في كل ما يتعلق بمسائل الحب. إن معظم الناس في أنحاء العالم الناطق - بالإنكليزية يُعدّون، وهم ما يزالون في الحضانة، لأن يصبحوا غير قادرين على الزواج المرضي. إذ ليس هناك من فعالية بلوغ إلا ويمنع الأطفال من إعداد أنفسهم لها بواسطة اللعب أو فيما يتعلق بشكل ما يتوقع أن يحدث انتقال مفاجئ من التحريم المطلق إلى الكفاءة التامة.



إن الإحساس بالذنب الذي يهيمن على كثير من الأطفال واليافعين وغالباً ما يستمر إلى فترة متأخرة من حياتهم، إنما هو مصدر بؤس وتشوه لا يخدم غرضاً مفيداً من أي نوع كان. وهو ينتج بصورة كاملة تقريباً عن التعليم الأخلاقي التقليدي في نطاق الجنس. فالشعور بأن الجنس شيء رديء يجعل الحب السعيد مستحيلاً، جاعلاً الرجال يحتقرون النساء اللواتي لهم علاقة بهن وغالباً ما يصير لديهم دوافع لممارسة العنف والقسوة عليهن. زد على ذلك، أن انعدام الهدف الذي يفرض على الدافع الجنسي حين يكون ممنوعاً، ويؤدي به لأن يتخذ شكل الصداقة العاطفية أو الغيرة الدينية أو ما شابه، إنما يسبب الافتقار للإخلاص الفكري الذي هو ضار جداً للفكر وللإحساس بالواقع. فالقسوة، البلادة، وعدم القدرة على إقامة علاقات شخصية متناغمة، إضافة إلى عيوب أخرى كثيرة، إنما ترجع في معظم الحالات إلى التعليم الأخلاقي الذي يمارس على الإنسان أثناء طفولته. هنا لنقل بكل بساطة وصراحة: ليس هناك شيء سيء في الجنس، والموقف التقليدي في هذه المسألة فظيع. وإنني لأعتقد أنه ما من شر آخر في مجتمعنا هو بقوة هذا المصدر للبؤس البشري، نظراً لأنه لا يسبب فقط، وبشكل مباشر، سلسلة طويلة أخرى من الشرور، بل يمنع عاطفة الود واللطف البشرية التي يمكن أن تقود الناس لأن يعالجوا شرورهم الأخرى القابلة للعلاج، سواء منها الاجتماعية أو السياسية أو العرقية التي تعاني بسببها البشرية.

لهذه الأسباب، فإننا بأمس الحاجة للكتب التي تنشر المعرفة والموقف العقلاني حول موضوع سيكولوجية الطفل. هناك، في أيامنا هذه نوع من السباق بين السلطة المتزايدة للدولة والسلطة المتناقصة للخرافة. وعلى ما يبدو، فإن تزايد سلطة الدولة أمر لا مناص منه كما



نرى فيما يتعلق بالأطفال. لكن إذا ما زادت هذه السلطة وتجاوزت حداً معيناً، فيما كانت الأساطير ما تزال تسيطر على الأغلبية، فإن الأقلية غير الأسطورية سوف تعصرها الدعاية الموجهة من قبل الدولة ولسوف يصبح من المستحيل منع المزيد من الاحتجاجات في كل بلد ديموقراطي. لقد أصبح مجتمعنا شديد الترابط، إلى درجة أن الإصلاح في أي اتجاه يجب أن يرتبط بالإصلاح في كل اتجاه آخر ولا يمكن معالجة أي مسألة بمعزل عن المسائل الأخرى، لكنني أظن أن عصرنا يميل للطف تجاه الأطفال أكثر من أي عصر كان. وإذا تم التوصل لأن نفهم أن التعليم الأخلاقي التقليدي هو سبب المعاناة لدى الشباب، فإننا يمكن أن نأمل بأن يطلب الناس استبداله بشيء ما أكثر علمانية وأكثر لطفاً في الآن نفسه.



الفصل الحادي عشر

أخلاقنا الجنسية[1]

ما يزال الكثيرون؛ وربما الأكثرية، ينظرون إلى الجنس أكثر من أي عنصر آخر في الحياة البشرية، بطريقة لا عقلانية. فالقتل، الوباء، الجنون، الذهب والأحجار الكريمة - أي كل الأشياء التي هي بالحقيقة، موضوعات لآمال عاطفية أو مخاوف - كان ينظر إليها في الماضي، من خلال ضباب السحر أو الأساطير، لكن شمس العقل بددت اليوم ذلك الضباب، ما عدا هنا أو هنالك. غير أن أكثف ضباب بقي هو في مجال الجنس، وهو أمر، ربما، طبيعي، نظراً لأن الجنس يتعلق بالجزء الأشد عاطفية في حياة معظم الناس، مع ذلك، بات واضحاً أن الظروف في العالم الحديث تعمل لإحداث تغيير في الموقف العام تجاه الجنس. أما ما هو التغيير أو التغييرات التي ستنتج عن هذا، فما من أحد يمكن أن يتكلم عنها بأي نوع من اليقين. لكن من الممكن أن نلاحظ بعض القوى التي تعمل الآن وأن نناقش ما يحتمل أن تكون نتائجها على بنية المجتمع.

حتى الآن، وبما يتعلق بالطبيعة البشرية، لا يمكن القول إن من المستحيل التوصل إلى مجتمع، العلاقات الجنسية فيه خارج الزواج ضئيلة جداً. ومع ذلك، الشروط الضرورية لهذه النتيجة تبدو وكأن الحياة الحديثة قد جعلتها صعبة المنال تقريباً. إذن، دعونا ننظر ما هي.

---

(1) نشرت لأول مرة سنة 1936.



إن التأثير الأعظم لتفعيل الزواج الأحادي، هو الثبات في منطقة لا تحوي إلا قلة من السكان، وإذا ما كانت الفرصة نادرة لأن يغادر المرء منزله، أو يرى أي امرأة غير زوجته، فإن من السهل عليه أن يكون مخلصاً، لكن إذا ما كان يسافر بدونها أو يعيش في مجتمع مدني مزدحم بالناس، فإن المسألة تصبح بالنسبة والتناسب أصعب بكثير، المساعدة الكبرى الثانية لأحادية الزواج تأتي من الأسطورة: فأولئك الذين يؤمنون إيماناً خالصاً أن «الإثم» يؤدي إلى العقاب الأبدي، يمكن أن نتوقع منهم أن يتجنبوه، وإلى حد ما هم يفعلون ذلك، لكن ليس إلى المدى الكبير الذي يمكن توقعه. المساعدة الثالثة للفضيلة تأتي من الرأي العام، حيث أن ما يفعله المرء، كما في المجتمعات الزراعية، يعرفه الجيران جميعاً، وبالتالي، تكون لديه دوافع شديدة لتجنب ما تدينه التقاليد، أياً كان. لكن أسباب السلوك القويم هذه كلها الآن أقل قوة بكثير مما كانت عادة، فقلة من الناس تعيش في عزلة، والاعتقاد بأن هناك ناراً وجحيماً قد ولى وانقضى. وفي المدن الكبيرة لا أحد يعلم ما يفعل جاره، لهذا، ليس بالمدهش أن يكون كل من الرجل والمرأة أقل أحادية في العلاقات الجنسية مما كان قبل ظهور الصناعة الحديثة.

يمكن القول، بالطبع، إنه وعلى الرغم من أن عدداً متزايداً من الناس يفشلون في تطبيق القانون الأخلاقي، فإنه ما من سبب هناك لتغيير معاييرنا. قد يقال لنا أحياناً إن الذين يأثمون يجب أن يدركوا أنهم يأثمون والقوانين الأخلاقية ليست هي الأسوأ لصعوبة العيش وفقاً لها وتطبيقها. لكنني سأرد بأنه، سواء أكانت القوانين صالحة أم غير صالحة، يظل السؤال هو التالي: هل ترتقي بالسعادة الإنسانية أم لا؟ إن كثيراً من البالغين ما يزالون يؤمنون، من صميم قلوبهم، بما



تعلموه في طفولتهم ويشعرون بالسوء عندما لا تتطابق حياتهم مع مبادئ مدرسة الأحد وقوانينها. إن الأذى الحاصل لا يتجسد فقط في إحداث انفصام بين الشخصية العاقلة الواعية والشخصية الطفولية اللاواعية، بل يكمن أيضاً في حقيقة أن الأجزاء الصالحة من الأخلاق التقليدية تصبح مجردة من القيمة جنباً إلى جنب مع الأجزاء غير الصالحة ويحدث أن يفكر الناس أنه إذا كان هناك عذر للزنى، فينبغي أن يكون هناك عذر للكسل، للغدر والقسوة. هذا الخطر غير قابل للانفصال عن المنظومة التي تعلم الأطفال، بالجملة، عدداً من المعتقدات التي هم واثقون تقريباً من أنهم سينبذونها عندما ينضجون، ومع سيرورة التمرد الاجتماعي والاقتصادي، يحتمل أن يتخلوا عن الجيد منها جنباً إلى جنب مع السيئ.

إن صعوبة التوصل إلى أخلاق جنسية يمكن العمل بها، إنما منشأها الصراع بين دافع الغيرة ودافع تعدد الزوجات. إذ لا شك أن الغيرة، رغم أنها في جزء منها غريزية، هي إلى حد كبير جداً تقليدية، ففي المجتمعات التي يعتبر فيها الرجال موضوعاً مناسباً للسخرية، إن خانته زوجته، سيكون غيوراً إزاء كل ما يتعلق بها، حتى ولو لم يعد يحمل أي عاطفة تجاهها. بذلك تكون الغيرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحس التملك لذلك تغدو أضأل بكثير حيث يكون هذا الحس مفقوداً. لكن إذا لم يكن الإخلاص جزءاً مما هو متوقع تقليدياً، فإن الغيرة تتضاءل إلى حد كبير، مع ذلك، وعلى الرغم من أن هناك احتمالاً في تخفيف الغيرة أكثر مما يظن الكثير من الناس، فإن هناك حدوداً محددة جداً، طالما أن للآباء حقوقاً وعليهم واجبات، وطالما كانت هذه هي الحال، فمن المحتم أن يرغب الرجال في تأكيد من نوع ما، بأنهم هم آباء أطفال زوجاتهم. وإذا كان



على النساء أن يعشن حريتهن الجنسية، فعلى الآباء أن يختفوا وأن لا تتوقع الزوجات بعد ذلك أي دعم من أزواجهن. هذا يمكن أن يتحقق مع الزمن، لكنه سيكون تغيراً اجتماعياً عميقاً، ونتائجه سواء أكانت جيدة أم سيئة ستكون غير قابلة للحساب.

في أثناء ذلك، وإذا كان على الزواج والوالدية أن يبقيا كمؤسسة اجتماعية، يكون من الضروري إجراء تسوية ما بين الاتصال الجنسي خارج الزواج والزواج الأحادي طويل المدى. لكن أن نقرر أية تسوية هي الأفضل في لحظة معينة أمر ليس باليسير، كما أن القرار قد يختلف من زمن إلى زمن، طبقاً لعادات السكان وإمكانية الاعتماد على طرق تحديد النسل. مع ذلك يمكن أن نقول أشياء ما بنوع من التحديد.

في المقام الأول، من غير المرغوب به، فيزيولوجياً وتربوياً، أن تلد النساء أطفالاً قبل سن العشرين، لذلك، يجب أن تتشكل أخلاقنا بحيث تجعل هذه الواقعة نادرة الحدوث.

في المقام الثاني، من غير المحتمل أن يكون شخص ما بغير تجربة جنسية سابقة، سواء أكان ذكراً أم أنثى، قادراً على التمييز بين الجاذبية الجسدية المحض وذلك النوع من التجانس الضروري لجعل الزواج ناجحاً. زد على ذلك أن الأسباب الاقتصادية تجبر الرجال، كقاعدة، على تأجيل الزواج، ومن غير المحتمل أن يبقوا بعيدين عن الجنس متبتلين ما بين سن العشرين والثلاثين، كما أنه ليس مرغوباً فيزيولجياً أن يفعلوا ذلك. لكن من الأفضل بكثير، إذا ما أقاموا علاقات جنسية مؤقتة، أن لا تكون هذه العلاقات مع محترفات، بل مع فتيات من طبقتهم، يكون دافعهن العاطفة وليس المال. لهذين السببين كليهما، يجب أن تتوفر للشبان العازبين حرية بالقدر الذي تكون فيه ملغاة بالنسبة إلى الأطفال.



في المقام الثالث، يجب أن يصبح الطلاق متاحاً دون لوم من أية جهة. وينبغي عدم النظر إليه بأي شكل على أنه معيب مخزٍ. فالزواج الذي لا أطفال فيه يمكن إنهاؤه بناء على رغبة أحد الطرفين، وأي زواج يجب أن ينتهي بتوافق الطرفين - مع مهلة زمنية ضرورية في كلتا الحالتين بالطبع، كما ينبغي أن يكون الطلاق متاحاً في حال وجود أسباب أخرى - الجنون - الهجران، القسوة وما شابه، لكن التوافق المتبادل يجب أن يكون الأساس الأهم. في المقام الرابع، يجب فعل كل ما هو ممكن لتحرير العلاقات الجنسية من العامل الاقتصادي المفسد، فالزوجات، في الوقت الحاضر، تماماً مثل كثير من المومسات، يعشن من بيع فتنتهن الجنسية وحتى في العلاقات الحرة المؤقتة، يتوقع من الرجل عادة أن يتحمل مصاريف الارتباط كلها. والنتيجة أنه يحدث نوع من الشبك الفظيع بين المال والجنس وأن دوافع النساء لا تخلو إلا نادراً من عنصر الارتزاق، فيما على الجنس، حتى لو باركته الكنيسة، أن لا يكون حرفة. صحيح أنه يجب أن يدفع للمرأة مقابل تدبيرها المنزل أو الطبخ أو العناية بالأطفال، لكن ليس فقط لإقامة علاقة جنسية مع الرجل. كما لا ينبغي على المرأة التي أحبت رجلاً أو أحبها رجل أن تعيش أبداً على نفقته إذا ما كف واحدهما عن حب الآخر. إن على المرأة أن تعمل، كالرجل، من أجل معيشتها، فزوجة متبطلة لا تعمل ليست أجدر بالاحترام عملياً من رجل يعيش على حساب مومس.

2

ثمة دافعان بدائيان جداً ساهما، لكن بدرجات مختلفة، في نشوء مجموعة القوانين المقبولة حالياً للسلوك الجنسي أحدهما هو الحياء والثاني، كما ذكرنا من قبل هو الغيرة. فالحياء بشكل ما، وإلى درجة ما، عام وشامل تقريباً لدى الجنس البشري، ويشكل محرّماً يجب تحطيمه فقط طبقاً لأشكال واحتفالات معينة أو على الأقل بما



يتوافق مع آداب سلوك معترف به. فليس كل شيء، يمكن رؤيته، ولا كل الحقائق يمكن ذكرها وهذا ليس، كما يظن بعض المعاصرين، من اختراع العصر الفكتوري، بل على العكس، لقد وجد الأنتروبولوجيون أشكالاً أكثر تعقيداً من الاحتشام المتطرف لدى البدائيين المتوحشين. ذلك أن مفهوم البذاءة يضرب جذوره عميقاً في الطبيعة البشرية. إننا قد نقف ضده انطلاقاً من حب التمرد، أو من الإخلاص للروح العلمية أو من الرغبة في أن نشعر أننا شريرون، كما هو الأمر لدى بايرون، لكننا لا نستطيع بسبب ذلك محوه من بين دوافعنا الطبيعية. تقرر الأعراف والتقاليد، ولا شك في مجتمع ما بالضبط ما هو محتشم لائق وما هو غير ذلك، لكن وجود أعراف وتقاليد، من نوع ما هو دليل حاسم على مصدر لهذه الأعراف، ليس هو بالتقليدي فقط. ففي كل مجتمع بشري تقريباً، تعتبر الإباحية والفضائحية الجنسية نوعاً من الإساءة. ما عدا حين تشكل، كما يحدث أحياناً وبشكل ليس متواتر، جزءاً من احتفال ديني.

أما نزعة الزهد - التي قد تكون أو لا تكون ذات صلة سيكولوجية بالحياء - فهي دافع ينشأ، على ما يبدو، فقط حيث يتم التوصل إلى مستوى معين من الحضارة، لكن يمكن حينئذ أن يصبح متمكناً قوياً، صحيح أنه غير موجود في الكتب الأولى للعهد القديم لكنه يظهر في الكتب المتأخرة كالعهد الجديد والأبوكريبا[1]. كذلك كان هناك القليل منه بين الإغريق في الأيام الأولى، لكنه ازداد شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن في الهند. نشأ في وقت مبكر جداً واكتسب قوة عظيمة. هنا لن أحاول أن أقدم تحليلاً سيكولوجياً لمنشأه غير أنني

(1) أسفار تلحق بالعهد القديم يشك بصحتها ولا يعترف البروتستانت بها (المنجد).



لا أستطيع الشك في أنه شعور عفوي موجود إلى حد ما، لدى الكائنات البشرية المتحضرة كلها. شكله الأخف هو النفور من تصور امرئ محترم - وعلى الأخص من هو ذو قدسية دينية - منغمساً في ممارسة الجنس، الأمر الذي يشعر الناس بأنه لا يتجانس مع الدرجة العليا من الكرامة. إن الرغبة في تحرير الروح من عبودية الجسد أوحت بكثير من أديان العالم الكبرى وهي ما تزال مكينة لدى المفكرين المعاصرين.

لكنني أعتقد أن الغيرة هي العامل الأشد، بمفرده، في نشوء الأخلاق الجنسية، فالغيرة، غريزياً، تثير الغضب والغضب يصبح، إذا ما أضفيت عليه التبريرات، رفضاً أخلاقياً. ولا بد أن الدافع الغريزي الخالص قد تم تعزيزه في مرحلة مبكرة من تطور الحضارة نتيجة رغبة الذكور في التأكد من أبوتهم لأولادهم، إذ بدون ضمان في هذا المجال، تصبح الأسرة الأبوية مستحيلة، كما تصبح الأبوة، مع كل مضامينها الاقتصادية، غير ممكنة أيضاً كأساس للمؤسسة الاجتماعية. طبقاً لذلك، يغدو من الرداءة أن تكون لك علاقة مع زوجة رجل آخر، لكن لا يستحق حتى توبيخاً لطيفاً أن يكون لك علاقة مع امرأة عازبة. ثمة أسباب عملية ممتازة لإدانة الزاني. طالما أنه يسبب التشوش والارتباك ومن المحتمل جداً إراقة الدماء. وما حصار طروادة إلا مثل مهم على ردات الفعل التي يمكن أن تنجم عن عدم احترام حقوق الزوج، لكن شيئاً من ذلك النوع، رغم أنه بمقياس أقل، كان يتوقع حدوثه حتى عندما تكون الأطراف المعنية أقل مكانة ورفعة. ففي تلك الأيام، لم يكن هناك، بالطبع، حقوق متطابقة للزوجات، كما أن الزوج لم يكن ملزماً بأي واجب تجاه زوجته، رغم أنه كان عليه أن يحترم ملكية الأزواج الآخرين.



لقد كانت المنظومة القديمة للأسرة الأبوية، بأخلاقها المبنية على المشاعر التي سبق وألقينا عليها نظرة، ناجحة بمعنى من المعاني: رجال مهيمنون يتمتعون بقدر كبير من الحرية، ونساء يعانين وهن في حالة خضوع تام إلى حد أن شقاءهن كان يبدو غير مهم. إن مطالبة النساء بالمساواة مع الرجال هي التي جعلت من الضروري إقامة منظومة جديدة في عالم اليوم، والمساواة يمكن ضمانها بطريقتين: إما بفرض أحادية العلاقة الجنسية على الرجل، كما كانت مفروضة في الماضي على المرأة، أو بالسماح للنساء، بالتساوي مع الرجال، ببعض التحلل من القوانين التقليدية، أولى هاتين الطريقتين يفضلها معظم رائدات حقوق المرأة وهي ما تزال المفضلة لدى الكنيسة، لكن للثانية الكثير من المناصرات عملياً، رغم أن معظمهن يشككن فيما يتعلق بإمكانية التبرير النظري لسلوكهن.

وأولئك الذين يدركون أن المطلوب هو أخلاق جديدة ما، يجدون من الصعب بمكان أن يعرفوا ما هي مفاهيم هذه الأخلاق. ثمة مصدر آخر للتجديد ألا وهو تأثير النظرة العلمية في إضعاف تحريم المعرفة الجنسية. لقد بات من المهفوم أن شروراً مختلفة - كالمرض التناسلي مثلاً - لا يمكن مكافحتها بفعالية ما لم يتم التكلم عنها بصورة صريحة أكثر مما كان مسموحاً به سابقاً، كما تبين أيضاً أن التكتم والجهل يحتمل أن يكون لهما آثار ضارة جداً على نفسية الفرد. إذ أن كلاً من علم الاجتماع وعلم النفس التحليلي قادا الدارسين الجديين، إلى إدانة سياسة الصمت فيما يتعلق بالمسائل الجنسية، فيما كثير من المربين العمليين تبنوا، نتيجة تجربتهم مع الأطفال، الموقف ذاته. زد على ذلك أن أولئك الذين لديهم نظرة علمية للسلوك البشري، يجدون من المستحيل إطلاق كلمة «إثم» على أي عمل. فهم



يدركون أن كل ما نفعله إنما يعود بأسبابه إلى الوراثة أو التربية أو البيئة، وإننا بالسيطرة على هذه الأسباب، وليس بالشجب والإدانة، يمكن أن نمنع ذلك السلوك الضار.

لذلك، وفي بحثنا عن أخلاق جديدة للسلوك الجنسي، ينبغي ألا تتحكم بنا، نحن أنفسنا، العواطف اللاعقلانية القديمة التي أدت إلى نشوء الأخلاق القديمة، رغم أن علينا أن ندرك أنها ربما، بالمصادفة، أفضت إلى بعض المبادئ السليمة وأنها، رغم بقائها، وإن بشكل أوهى، ما تزال بين معطيات مشكلتنا. ما علينا أن نفعله موضوعياً هو أن نسأل أنفسنا ما هي القواعد الأخلاقية التي يحتمل أن تعزز السعادة البشرية، متذكرين دائماً أن من غير المحتمل، أياً كانت تلك القواعد، أن تكون موضوع تطبيق عالمياً. أي بعبارة أخرى، علينا أن نأخذ بالاعتبار التأثير الذي سيكون لها بالواقع، وليس ذلك الذي سيكون لها إذا كانت فعالة بشكل كامل.

3

لنلق نظرة الآن على مسألة المعرفة المتعلقة بالموضوعات الجنسية التي تبرز في العمر الأبكر وتكون الأقل صعوبة وإثارة للريبة من المشاكل المختلفة التي نحن معنيون بها. إذ ليس ثمة سبب وجيه، من أي نوع كان، لإخفاء الحقائق عندما نتكلم مع الأطفال. بل ينبغي إجابتهم على أسئلتهم كما ينبغي إشباع حب الاستطلاع لديهم بالطريقة ذاتها، حين يتعلق الأمر بالجنس تماماً، كما يتعلق بعادات صيد الأسماك أو أي موضوع آخر يهمهم. هنا، ينبغي ألا يكون أي مجال للعاطفة، لأن الأطفال الصغار لا يشعرون كما يشعر البالغون ولا يرون مناسبة للكلام من فوق - الأسطح، كذلك لا مبرر لإيصال الحقائق المهمة في الحياة بطرق ملتوية. إن الطفل الذي يقال له ما



يريد أن يعرف والذي يسمح له بأن يرى والديه عاريين، لن يكون لديه تلهف ولا أي هاجس من نوع جنسي. بينما الصبيان الذين يتربون في جهل رسمي يفكرون ويتكلمون عن الجنس أكثر بكثير من الصبيان الذين سمعوا معالجة هذا الموضوع على مستوى معين من قبل أي شخص آخر. إن الجهل الرسمي والمعرفة العملية يعلمانهم أن يكونوا مخادعين ومرائين مع الأكبر منهم سناً. من جهة أخرى، فإن الجهل الحقيقي، عندما يتحقق، يحتمل أن يكون سبباً للصدمة والقلق وجعل التكيف مع الحياة الحقيقية أكثر صعوبة. كل جهل يسبب الندم فيما بعد، لكن الجهل في مسألة مهمة كالجنس هو خطر كبير.

حين أقول: ينبغي التحدث مع الأطفال حول الجنس، أنا لا أعني أنه يجب فقط أن تقال لهم الحقائق السيكولوجية العادية، بل يجب أن يقال لهم أي شيء يرغبون بمعرفته ويجب ألا تكون هناك محاولة لتقديم البالغين على أنهم أكثر فضيلة مما هم، أو أن الجنس يحدث فقط في الزواج، فليس هناك عذر لخداع الأطفال. إذ عندما يكتشفون، كما يحدث ولا بد في الأسر التقليدية، أن آباءهم كذبوا عليهم، فإنهم سيفقدون الثقة بهم ويشعرون أن لديهم المبررات لكي يكذبوا عليهم. ثمة حقائق ينبغي ألا أقحمها على الطفل لكنني سأخبره أي شيء بسرعة أكبر من أن أقول له ما ليس صحيحاً. فالفضيلة التي تبنى على تزييف الحقائق هي فضيلة زائفة. وكلامي هنا ليس نظرياً فقط بل من الخبرة العملية. لهذا، أنا على قناعة تامة أن الصراحة الكاملة حول مسائل الجنس هي الطريقة الأفضل لمنع الأطفال من التفكير بها بصورة مفرطة أو وسخة، أو غير صحية، وهي أيضاً التمهيد الذي لا بد منه تقريباً لأخلاق جنسية مستنيرة.



ليس من السهل البتة، في ما يتعلق بالسلوك الجنسي لدى البالغ، أن نصل إلى تسوية عقلانية بين الاعتبارات المتناقضة التي لكل منها صحتها. إن الصعوبة الأساسية، بالطبع، هي الصراع بين الدافع المسبب للغيرة والدافع المسبب للتنويع الجنسي. صحيح أنه ما من دافع بينهما شامل، فهناك (وإن يكونوا قلة) من لا يغارون أبداً، وهناك (بين الرجال وكذلك النساء) من لا تنحرف عواطفه بعيداً عن الشخص المختار. ولو أن أياً من هذين النمطين كان عاماً شاملاً، لكان من السهل وضع قانون يرضي الجميع. لكن لا بد من الاعتراف بأن أياً من النمطين يمكن أن يصبح أكثر شيوعاً بأعراف وتقاليد مصممة لتلك الغاية.

ثمة الكثير من الأسس يظل علينا تغطيتها بأخلاق جنسية كاملة، لكنني لا أظن أننا يمكن أن نقول أي شيء إيجابي جداً إلى أن يتوفر لنا مزيد من الخبرة، سواء فيما يتعلق بآثار الأنظمة المختلفة أو التغيرات الناجمة عن التربية العقلانية في مسائل الجنس. إذ من الواضح أن الزواج، كمؤسسة، يهم الدولة فقط بسبب الأطفال ويجب النظر إليه على أنه مسألة خاصة تماماً، إذا كان بلا أطفال. ومن الواضح أيضاً أنه حتى عندما يكون هناك أطفال، فإن الدولة تكون مهتمة فقط بواجبات الآباء التي هي مالية أساساً. وحيث الطلاق سهل، كما في اسكندينافيا مثلاً، فإن الأطفال يذهبون عادة مع الأم، وبذلك تميل الأسرة الأبوية للاختفاء. وإذا كانت الدولة، كما يحدث بصورة متزايدة، حيث يتعلق الأمر بذوي الدخل المحدود، تتعهد بالواجبات الملقاة حتى اليوم على عاتق الآباء، فسيكف الزواج عن أن يكون له مبرر للوجود، ومن المحتمل ألا يعود مألوفاً إلا بين الأغنياء والمتدينين.



في أثناء ذلك، سيكون من المستحسن لو كان باستطاعة الرجال والنساء أن يتذكروا في العلاقات الجنسية، في الزواج وفي الطلاق أن يمارسوا الفضائل العادية من تسامح لطف، صدق وعدالة. فالناس الذين هم، بالمعايير التقليدية، أقوياء جنسياً، غالباً جداً ما يعتبرون أنفسهم، نتيجة لذلك، متحللين من واجب التصرف كبشر محتشمين، ومعظم منظري الأخلاق يسكنهم هاجس الجنس إلى حد أنهم لا يؤكدون إلا قليلاً جداً على أنواع أخرى من السلوك المدانه أخلاقياً والمفيدة أكثر على الصعيد الاجتماعي.



الفصل الثاني عشر

الحرية والكليات

هذه المقالة نشرت بالأصل في أيار 1940 بعد فترة وجيزة جداً من قرار القاضي ماك غيهان بأن رسل «غير ملائم لأن يكون أستاذ في كلية المدينة، نيويورك».

1

قبل مناقشة الوضع الراهن للحرية الأكاديمية يمكننا أيضاً أن نتأمل ماذا نعني بالمصطلح. إن جوهر الحرية الأكاديمية هو أنه ينبغي اختيار المدرسين لخبرتهم في الموضوع الذي سيدرسونه وأن القضاة الذين يجب أن يحكموا على هذه الخبرة يجب أن يكونوا خبراء آخرين. فإذا كان المرء يتقن الرياضيات جيداً أو الفيزياء أو الكيمياء يمكن الحكم عليه فقط من قبل رياضيين آخرين أو فيزيائيين أو كيميائيين، ومن قبلهم فقط، على أن يكون الحكم بدرجة جيدة من الإجماع.

بيد أن خصوم الحرية الأكاديمية يعتقدون أن هناك شروطاً أخرى غير براعة المرء في اختصاصه، يجب أن تؤخذ بالحسبان. فعليه، كما يفكرون، ألا يعبر عن أي رأي يناقض آراء أصحاب السلطة. وهذه قضية شائكة. إنها القضية التي بنت الدول التوتاليتارية موقفها عليها وتمسكت به بقوة. فروسيا لم تتمتع بالحرية الأكاديمية قط إلا خلال حكم كيرنسكي القصير، لكنني أظن أن هناك منها الآن ما هو أقل حتى مما كان أيام القياصرة. أما ألمانيا، قبل الحرب، ورغم أنها كانت تفتقر لأشكال كثيرة من الحرية، فقد كانت تعترف تماماً بمبدأ



الحرية في التعليم الجامعي. الآن كل هذا تغير، والنتيجة أن أكثر الناس علماً في ألمانيا، مع استثناءات قليلة، هم في المنفى. في إيطاليا، ورغم أن الوضع ألطف قليلاً، ثمة هيمنة طاغية مماثلة على الجامعات. ومن المعروف عموماً، في الديموقراطيات الغربية، أن هذه الحلة تدعو للرثاء. لكن لا يمكننا أن ننكر أن هناك نزعات يمكن أن تفضي إلى شرور مماثلة بشكل ما.

الخطر هو من النوع الذي لا تكفي الديموقراطية بذاتها لتجنبه. فالديموقراطية التي تمارس فيها الأكثرية سلطاتها بلا حدود يمكن أن تكون استبدادية مثل أي حكم استبدادي. إن تحمل الأقليات والتسامح تجاهها جزء أساسي من الديموقراطية الحكيمة، لكنه الجزء الذي لا يتذكره أحد غالباً بصورة كافية.

هذه الاعتبارات العامة، فيما يتعلق بأساتذة الجامعة، تتعزز ببعض الأشياء التي تنطبق خصيصاً على حالتهم إذ يفترض أن يكون مدرسو الجامعة ذوي معرفة خاصة وتدريب خاص بحيث يكونون ملائمين لأن يقاربوا مسائل جدلية بأسلوب يحتمل على نحو خاص أن يلقي الضوء عليها. أما أن نحكم بأن عليهم أن يصمتوا حيال المسائل الجدلية موضع الخلاف، فذلك يعني أن نحرم المجتمع من الفائدة التي يمكن أن يستمدها من نزاهتهم وتجردهم. قبل العديد من القرون، أدركت الإمبراطورية الصينية الحاجة للنقد المجاز، لذلك أسست معهداً للنقاد، يتألف من رجال ذوي شهرة بعلمهم وحكمتهم ثم منحتهم الحق في أن يكتشفوا عيوب الإمبراطور وحكومته. لسوء الحظ، ومثل كل شيء آخر في الصين التقليدية، فقد أضفيت الصبغة التقليدية على هذه المؤسسة. إذ بات يسمح لهؤلاء المراقبين النقاد بأن ينقدوا أشياء معينة فقط، ولاسيما السلطة المفرطة للخصيان، لكن إذا



ما شطوا بعيداً عن الميادين غير التقليدية للنقد، فإن الإمبراطور كان مؤهلاً لأن ينسى حصانتهم. الأمر ذاته وإلى حد كبير يحدث بيننا اليوم إذ يسمح بميدان واسع للنقد، لكن حيث يشعرون أن هنالك خطراً فعلاً، فإن شكلاً من أشكال العقاب يحتمل أن يحل بصاحبه.

تتعرض الحرية الأكاديمية في هذه البلاد للتهديد من مصدرين: الطبقة الثرية الحاكمة والكنيسة، وهي تسعى بينهما لتأسيس رقابة اقتصادية ولاهوتية، حيث الاثنتان تجمعهما بسهولة تهمة الشيوعية التي يمكن أن يوصم بها كل من يحمل آراء لا يحبونها. مثال على ذلك، لقد لاحظت باهتمام أنه، وعلى الرغم من أنني انتقدت الحكم السوفيتي بشدة منذ 1920، وعلى الرغم من أنني في السنوات الأخيرة عبرت بصورة توكيدية عن الرأي القائل بأن ذلك الحكم سيء على الأقل بمقدار ما هو الحكم النازي، فإن نقادي يتجاهلون هذا كله ويقتبسون، حاملين راية النصر، جملة أو جملتين عبرت بهما، في لحظات الأمل، بأن هناك احتمالاً بأن يأتي أخيراً الخير من روسيا.

إن أسلوب التعامل مع رجال، تكره آراءهم مجموعات معينة من ذوي السلطة قد اكتمل تماماً، وهو خطر كبير على التقدم المنتظم. فإذا كان الشخص المعني ما يزال شاباً وغامضاً نسبياً، يمكن للأعلى منه رسمياً أن يُدفعوا لاتهامه بعدم الكفاءة المهنية وبالتالي يمكن إسقاطه بكل هدوء أما بالنسبة للأكبر سناً والمعروفين جيداً بأنهم ناجحون، فإنهم يحركون العداء ضدهم بين الناس من خلال سوء التقديم. غالبية المدرسين، بالطبع، لا يهمهم أن يعرضوا أنفسهم لمخاطر كهذه، ويتحاشون أن يعبروا عن آرائهم الأقل التزاماً بما هو سائد. هذه حالة خطيرة للأبرز يحتار بها الفكر غير المهتم. إلى حد ما، فيما قوى المحافظة ونزعة الإبهام يمكن أن تقنع نفسها بأنها قادرة على البقاء منتصرة.



ينص مبدأ الديموقراطية الحرة، كما حدد مؤسسو الدستور الأمريكي، على أن المسائل الخلافية يجب البت بها بواسطة النقاش وليس القوة. فالأحرار كانوا دائماً يعتقدون أن الآراء تتشكل من خلال الجدل الذي لا قيود عليه، وليس السماح بسماع جانب واحد فقط. أما الحكومات الاستبدادية، سواء منها القديمة أو الحديثة، فقد اتخذت وجهة النظر المضادة. من جهتي، أنا لا أرى سبباً يدعو للتخلي عن التقاليد الحرة في هذه المسألة. فإذا كانت السلطة بيدي، علي ألا أسعى إلى منع خصومي من أن يتكلموا وأسمعهم. بل علي أن أسعى لتقديم تسهيلات متساوية لكل صاحب رأي وأن نترك المحصلة لنتائج النقاش والجدل. هناك، بين الضحايا الأكاديميين للاضطهاد الألماني في بولونيا، حسب معرفتي، منطقيون بارزون هم من الكاثوليك الملتزمين تماماً. وعلي أن أفعل كل ما في وسعي للحصول على مراكز أكاديمية لهؤلاء الرجال، رغم أن زملاءهم من أتباع المذهب نفسه لا يعاملوننا بالمثل.

إن الفارق الأساسي بين النظرة الحرة وغير الحرة هي أن الأولى تعتبر كل المسائل مفتوحة للنقاش وكل المسائل مفتوحة لقدر من الشك يزيد أو ينقص، في حين أن أصحاب النظرة الأخيرة يعتقدون مسبقاً أن هناك مسائل معينة غير قابلة للنقاش على الإطلاق، وأنه من غير المسموح سماع أية حجة ضدها. الغريب بالنسبة لهذا الموقف هو الاعتقاد بأنه إذا ما سُمح بالتقصي والسؤال غير المتحيز فإن ذلك قد يؤدي بالناس إلى استنتاجات خاطئة وأن الجهل - لهذا السبب - هو الضمانة الوحيدة التي تعصم من الخطأ. وجهة النظر هذه هي الوجهة التي لا يمكن أن يقبلها أي إنسان يرغب في أن يكون العقل لا الهوى هو الذي يتحكم بالفعل الإنساني.



النظرة المتحررة هي تلك التي نشأت في إنكلترا وهولاندا في أواخر القرن السابع عشر، كرد فعل على الحروب الدينية. إذ ظلت هذه الحروب قائمة بكثير من العنف طوال مائة وثلاثين سنة دون أن تؤدّي إلى انتصار أي جانب. لقد كان كل طرف يشعر بيقينية مطلقة أنه هو بجانب الصواب وأن انتصاره ذو أهمية كبرى للجنس البشري. في النهاية توصل الناس العقلاء إلى أن يعوا أن الصراع لا يمكن حسمه فقرروا أن كلا الجانبين كان على خطأ في يقينيتهم العقائدية. لقد عبر جون لوك عن وجهة النظر هذه في الفلسفة والسياسة على حد سواء وقد كتب ما كتب في بداية عصر التسامح المتنامي، مؤكداً على إمكانية وقوع الأحكام البشرية في الخطأ وقد مهد لعصر التقدم الذي دام حتى سنة 1914.

يتمتع الكاثوليك، بسبب تأثير لوك ومدرسته، بالتسامح في البلدان البروتستانتية والعكس صحيح. فحيث يتعلق الأمر بمحاولات القرن السابع عشر، تعلم الناس إلى هذا الحد أو ذاك درس التسامح، لكن فيما يتعلق بالمجادلات الجديدة التي نشأت منذ نهاية الحرب الكبرى، فإن المبادئ الحكيمة لفلاسفة الليبرالية قد تم نسيانها. إذ لم يعد الكويكرز يخيفوننا، كما كانوا يخيفون المسيحيين الأتقياء في بلاط شارك الثاني. بل نحن نخاف الناس الذين يطبقون على مشاكل اليوم النظرة نفسها والمبادئ ذاتها التي كان كويكرز القرن السابع عشر يطبقونها على مشاكل أيامهم. إن الآراء التي لا نتفق معها تكتسب احتراماً معيناً بالقدم، لكن رأياً جديداً لا نتفق معه يقع على رأسنا دائماً كالصاعقة.

هناك نظرتان محتملتان فيما يتعلق بأداء الديموقراطية ووظيفتها الخاصة. حسب النظرة الأولى آراء الأغلبية هي التي يجب أن تسود بشكل مطلق وفي كل الميادين. أما النظرة الأخرى فتقول، حيث لا



يكون القرار العام ضرورياً، فينبغي تمثيل الآراء المختلفة، حسب الإمكان، بالنسبة والتناسب مع وتيرتها العددية. نتائج هاتين النظريتين عملياً مختلفة جداً فطبقاً للنظرة الأولى، حين تقرر الغالبية لصالح رأي ما، يجب ألا يسمح لرأي آخر بالتعبير عنه أو إذا تم التعبير عنه إجمالاً يجب أن ينحصر ذلك بقنوات غامضة وغير ذات تأثير. بالنسبة للنظرة الأخرى، ينبغي إعطاء الأقلية الفرص ذاتها للتعبير عن رأيها، مثلما تعطى الأكثرية لكن فقط بدرجة أقل.

هذا ينطبق بصورة خاصة على التعليم. فالمعلمة أو المعلم الذي يتعين عليه أن يشغل منصباً تعليمياً في الدولة، يجب ألا يطلب منه أن يعبر عن آراء الأغلبية، رغم أن أغلبية المعلمين سيفعلون ذلك بالطبع، إذ لا ينبغي السعي من أجل وحدانية الآراء التي يعبر عنها المعلمون وحسب، بل يجب تجنبها، ما أمكن، نظراً لأن اختلاف الآراء بين المعلمين هو أساسي لأي تربية سليمة. ذلك أنه لا يمكن اعتبار أي إنسان متعلماً إذا كان لم يسمع إلا وجهة نظر واحدة في المسائل التي يختلف الناس حولها. ولعل أحد أهم الأشياء التي ينبغي تعليمها في مؤسسات الديموقراطية التربوية هو الوزن بين الحجج واكتساب العقل المفتوح المستعد سلفاً لقبول أي جانب يبين أنه معقول أكثر. فحالما تفرض الرقابة على الآراء التي يمكن أن يجهر بها المعلمون، يكف التعليم عن أداء هذا الغرض ويميل لأن ينتج، بدلاً من أمة من الرجال، قطيعاً من المتعصبين الزميتين. لقد انتعش هذا التعصب المتزمت، منذ نهاية الحرب الكبرى، إلى أن أصبح يطغى على جزء كبير من العالم، بالقسوة ذاتها التي كان يسود بها خلال الحروب الدينية. أما أولئك الذين يعادون النقاش الحر ويسعون لفرض رقابة على الآراء التي قد يتعرض لها الشبان، فيسهمون إسهاماً



كبيراً في زيادة هذا التعصب وفي إغراق العالم أكثر وأكثر في هوة الصراع والتعصب التي عمل لوك وأتباعه لتخليصه منها.

ثمة مسألتان لا يمكن التمييز بينهما بشكل كافٍ: واحدة تتعلق بالشكل الأفضل للحكومة والأخرى تتعلق بوظائف الحكومة. بالنسبة إلي، ليس هناك أدنى شك في أن الديموقراطية هي الشكل الأفضل للحكومة لكنها قد تشرد بعيداً كأي شكل آخر للحكومات فيما يتعلق بوظائفها. هناك مسائل معينة يكون القرار العام فيها ضرورياً، وبالنسبة لهذه المسائل فإن القرار العام يجب أن يثبت من الأغلبية. لكن، هناك مسائل أخرى لا يكون فيها القرار العام ضرورياً ولا مرغوباً. هذه المسائل تتضمن كل ما يدخل في مجال الرأي. ونظراً لأن هناك ميلاً طبيعياً لدى أولئك الذين يملكون السلطة لأن يمارسوها إلى أقصى حد فإن من الضروري وجود ضمان ضد الطغيان، عبارة عن مؤسسات وهيئات منظمة، سواء على الصعيد العملي أو النظري، تضمن استقلالية محدودة ما عن الدولة. حرية كهذه، كما هو موجود في بلدان استمدت حضارتها من أوروبا، يمكن تتبع أثرها تاريخياً حتى الصراع بين الكنيسة والدولة في العصور الوسطى، ففي الإمبراطورية البيزنطية كانت الكنيسة خاضعة للدولة، وإلى هذه الحقيقة يمكننا أن نتتبع الغياب الكلي لأي تراث للحرية في روسيا التي استمدت حضارتها من القسطنطينية. في الغرب، اكتسبت الكنيسة الكاثوليكية أولاً ثم الطوائف البروتستانتية المتعددة بعدئذ تدريجياً بعض الحريات على حساب الدولة.

الحرية الأكاديمية، بصورة خاصة، كانت بالأصل جزءاً من حرية الكنيسة، وقد عانت نسبياً بعض الخسوف في إنكلترا في زمن هنري الثامن. على أنني أكرر أنه لا يهم في أية دولة ما هو شكل الحكومة،



لأن الحفـاظ علـى الحريـة يتطلـب وجـود هيئـات ومؤسسـات لهـا استقلالية محدودة ما عن الدولة، بـين هيئـات كهـذه، مـن المهـم أن تكون الجامعات في صلبها. في أمريكـا، في الوقـت الحاضـر، هنـاك حرية أكاديمية في الجامعات الخاصة أكثر مما هو موجود في جامعـات رسمية، هي بالتحديد تحت سلطة ديموقراطيـة وهـذا يعـود إلى سـوء الفهم الواسع الانتشار فيما يتعلق بوظائف الحكومة الخاصة.

3

يظـن دافعـو الـضريبة أنهـم طالمـا يـدفعون الرواتـب لأسـاتذة الجامعات، فإن لهم الحق في أن يقرروا من هم الرجال الذين سيعلمون فيها. هذا المبدأ، إذا نفذ منطقياً، يعني أن كل مزايا التعليم العالي التي يتمتع بها أساتذة الجامعة ستعود إلى الصفر وأن تعليمهم سيتراجع إلى المستوى ذاته وكأنهم بغير كفاءة خاصة. «براعة حمقاء مسيطرة كحماقة طبيب»، ذلك ما جعل شكسبير يصرخ طلباً لراحة الموت. مع ذلك فإن الديموقراطية، كما يفهمها الكثير مـن الأمريكـان، تتطلـب أن توجـد سيطرة كهذه في كل جامعـات الدولـة. كمـا أن ممارسـة الـسلطة أمـر مقبول، خاصة عندما يكون شخص غامض هو من يمارس السلطة على إنسـان بارز، فالجندي الروماني الذي قتل أرخميدس، لو أنه أجـبر في شبابه على دراسة الهندسة لاستمتع ولا بد وفـرح فرحـاً خاصـاً تمامـاً بإنهائه حياة مجرم شرير كذاك، ومتعـصب أمريكـي جاهـل يمكـن أن يستمتع الاستمتاع ذاتـه في فـرض سـلطته الديموقراطيـة علـى رجـال آراؤهم بغيضة بالنسبة للجهلة غير المتعلمين.

ربمـا هنـاك خطـر خـاص في إسـاءات اسـتعمال الـسلطة الديموقراطية. ولكونهـا جماعيـة، فـإن بالإمكـان إثارتهـا عـن طريـق هستريا الجماهير، والإنـسان الـذي يتـوفر لـه فـن إثـارة غرائـز صـيد



الساحرات لدى الجماهير، يكون قادراً تماماً على فعل الشر في بلد ديموقراطي حيث تؤدي عادة ممارسة السلطة من قبل الأغلبية إلى ذلك الحذر والدافع إلى الطغيان الذي تؤدي إليه، إن عاجلاً أو آجلاً، ممارسة السلطة بصورة دائمة تقريباً. إن الوقاية الرئيسية من خطر كهذا يكون بالتعليم السليم، المصمم أصلاً لمكافحة الميل لاندفاعات الكراهية الجمعية اللاعقلانية. مثل هذا التعليم يرغب بتقديمه معظم أساتذة الجامعات، لكن سادتهم في حكومة الأقلية الثرية وكذلك تراتبية الوظيفة تجعل من الصعب بمكان كبير أن يقوموا بهذا الواجب بصورة فعالة. فهؤلاء الناس، بالنسبة إلى عواطف الجماهير اللاعقلانية، لهم سلطتهم الخاصة وهم يعلمون أنهم سيسقطون إذا ما أصبحت سلطة التفكير العقلاني هي السائدة. وهكذا، فإن تشابك سلطة الغباء في الأسفل مع حب السلطة في الأعلى يشل جهود الناس العقلانيين. هذا الشر يمكن تفاديه فقط من خلال مقدار من الحرية الأكاديمية أكبر مما تم التوصل إليه حتى الآن في المؤسسات التعليمية العامة في هذا البلد. أما اضطهاد الفكر بأشكاله غير الشعبية فهو خطر كبير جداً يهدد أي بلد وليس بالنادر أنه كان سبب دمار أمة من الأمم. المثال الأصل هو إسبانيا، حيث أدى طرد المغاربة واليهود إلى خراب الزراعة وإلى تبني نظام مالي لا يتبناه إلا المجانين. هاتان القضيتان، رغم أنه تم التعتيم على نتائجهما من قبل شارل الخامس وما له من سلطة، كانتا المسؤولتين بصورة رئيسية عن انهيار إسبانيا بعد أن كانت تتبوأ مركزاً مهيمناً في أوروبا. ويمكننا أن نفترض بصورة سليمة أن الأسباب ذاتها ستؤدي في نهاية المطاف إلى النتائج ذاتها في ألمانيا، إن لم يكن في المستقبل القريب. وفي روسيا، حيث الشرور ذاتها قيد العمل لفترة زمنية أطول، فإن النتائج باتت ظاهرة للعيان بكل يسر، حتى في عدم كفاءة الآلة العسكرية.



في البرهة الحاضرة، روسيا هي النموذج الأكمل للبلد الذي يمتلك فيه المتعصبون الجهلة الدرجة العليا من السلطة التي يحاول أمثالهم اكتسابها في نيويورك، والبروفسور هيل يقتبس من «الجريدة الفلكية للاتحاد السوفييتي، عدد كانون الأول 1938»، ما يلي:

1- إن نظرية نشأة الكون لدى البورجوازية الحديثة هي في حالة من الاضطراب الإيديولوجي الشديد وذلك نتيجة رفضها القبول بمفهوم المادية الجدلية الصحيح فقط، أي بالتحديد لا نهائية الكون بالنسبة للزمان والمكان.

2- إن الأعمال العدوانية لعملاء الفاشية، الذين تدبروا في وقت ما أمرهم واستطاعوا التغلغل إلى مواقع رئيسية في بعض المؤسسات الفلكية والمؤسسات الأخرى وكذلك إلى وسائل الإعلام، قد أدت إلى قيام دعاية للإيديولوجية البورجوازية المعادية للثورة في الأدب.

3- لقد ظلت الأعمال المادية السوفيتية القليلة القائمة حول مشاكل نشأة الكون، في عزلة بل وتعرضت للكبت والقمع من قبل أعداء الشعب حتى وقت قريب.

4- دوائر واسعة مهتمة بالعلم تلقت تعليمها، في أفضل الأحوال، بروح اللامبالاة فقط حيال الجانب الأيديولوجي للنظريات البورجوازية الكونية الحديثة.

5- إن فضح أعداء الاتحاد السوفييتي يجعل من الضروري تطوير نظرية سوفييتية جديدة عن نشأة الكون.

6- كما بات من الضروري أن تدخل العلوم السوفيتية الساحة العلمية الدولية حاملة معها إنجازات في نظرية نشوء الكون تقوم على أساس منهجيتنا الفلسفية.



بدلاً من كلمة «سوفيتي» ضع «أمريكي». وبدلاً من «الفاشية» ضع «الشيوعية»، وبدلاً من «المادية الجدلية» ضع «الحقيقة الكاثوليكية» ولسوف تكون لديك وثيقة يشترك في توقيعها أعداء الحرية الأكاديمية في هذه البلاد.

4

هناك سمة مشجعة واحدة حول الوضع، وهي أن طغيان الأغلبية في أمريكا، غير الجديد أصلاً، ربما هو أضأل اليوم مما كان عليه قبل مائة عام. هذه النتيجة يمكن أن يتوصل إليها أي امرئ مما كتبه د. توكفيل حول «الديموقراطية في أمريكا»، فكثير مما قاله الرجل ما يزال ينطبق حتى اليوم، لكن بعض ملاحظاته لم تعد صحيحة بالتأكيد. فأنا لا يمكن أن أوافقه، مثلاً، على «أنه ليس هناك بلد في العالم المتحضر، تولى الفلسفة فيه من الاهتمام أقل مما في الولايات المتحدة». لكنني أظن أنه ما يزال هناك بعض العدالة، رغم أنها أقل من أيام توكفيل، في الفقرة التالية:

(في أمريكا، تقيم الأغلبية حواجز هائلة جداً في وجه حرية الرأي، من ضمن هذه الحواجز، يمكن للكاتب أن يكتب ما يريد لكنه سيندم عليه إذا ما تجاوز الحدود. ليس فقط لأنه سيتعرض لأهوال محاكم كمحاكم التفتيش أيام زمان. بل لأنه سيتعرض لمر العذاب مما يلحق به من تفاهات واضطهادات القدح والطعن اليومي. كما أن حياته المهنية الخاصة ستنتهي إلى الأبد طالما أنه أساء للسلطة الوحيدة القادرة على ترقيته وإنجاحه، كذلك سيحرم من كل نوع من أنواع التعويض، حتى تعويض الاحتفال. ربما كان يتصور، قبل أن ينشر آراءه، أن هناك الكثيرين ممن يشاركونه إياها، لكن ما إن يعلنها جهاراً حتى يتعرض للنقد بصوت عال من قبل خصومه المتحاملين



عليه، في حين أن أولئك الذين كان يظن أنهم لا يملكون الشجاعة لكي يتكلموا مثله، يتخلون عنه صامتين. ونهاية المطاف، يرفع الراية البيضاء، بضغط من الجهود اليومية التي يبذلها ويستسلم للصمت، كما لو أن توبيخ الضمير يعذبه لأنه قال الحقيقة).

هنا، يجب الاعتراف، على ما أظن، بأن الدكتور توكفيل كان مصيباً في ما قاله عن سلطة المجتمع على الفرد في بلد ديموقراطي: «حين يقارن فرد في بلد ديموقراطي نفسه بكل من حوله، فإنه يشعر بالكبرياء لأنه نظير أي فرد منهم، لكن حين يقوم بمسح مجمل زملائه ويقارن نفسه بتلك الكتلة الهائلة، سيطغى عليه في الحال شعور بضعفه وعدم أهميته. فالسمة ذاتها التي تجعله مستقلاً عن كل من زملائه إذا ما أخذوا على انفراد، تكشفه على أنه وحيد وغير محمي من تأثير ذلك العدد الأكبر. لذلك فإن للجمهور، في بلد ديموقراطي، سلطة مفردة لا يمكن للأمم الأرستقراطية أبداً أن تستطيع فهمها كفكرة، لأنها غير مقنعة بالنسبة لبعض الآراء، بل هي تفرضها وتدمجها ضمن الفعاليات بنوع من الضغط الهائل من عقول الكل على عقل الفرد».

إن تضاؤل حجم الفرد بالمقارنة مع ضخامة الجمهور، قد خطا خطوات واسعة، منذ أيام توكفيل، ليس فقط في البلدان الديموقراطية، بل في سواها أيضاً. وهو التهديد الأشد خطورة بالنسبة لعالم الحضارة الفردية. إذ يحتمل، إن لم يلجم، أن يوصل التقدم الفكري إلى نهايته. ذلك أن التقدم الفكري الجدي كله يتوقف على نوع معين من استقلالية الرأي الخارجي الذي لا يمكن أن يوجد حيث تعامل إرادة الأغلبية بذلك النوع من الاحترام الصارم الذي يضفيه المتزمتون دينياً على إرادة الإله. إن



احترام إرادة الأغلبية هو أشد إيذاء من احترام إرادة الإله، لأن إرادة الأغلبية يمكن التحقق منها. قبل حوالي أربعين سنة وفي مدينة دوربان، تحدى عضو من «هيئة الأرض المسطحة» العالم، بالدعوة إلى مناظرة مفتوحة. ولقد قبل التحدي قبطان في البحرية، حجته الوحيدة في أن الأرض مدورة، هي أنه هو نفسه دار حول الأرض. هذه الحجة تم صرف النظر عنها بسهولة، طبعاً، وحصل صاحب فكرة الأرض المسطحة على أغلبية الثلثين. ثم ما إن أعلن عن موقف الأغلبية ذاك، حتى توجب على الديموقراطي الحقيقي أن يستنتج أن الأرض في دوربان مسطحة. وإنني لآمل أنه من ذلك الوقت فصاعداً لم يسمح لأحد أن يعلم في المدارس العامة في دوربان (وليس هناك جامعة على ما أعتقد) ما لم يكن قد شارك في الإعلان بأن دائروية الأرض هي عقيدة الكفار الهادفة للإيصال إلى الشيوعية وتدمير الأسرة. لكن معلوماتي، فيما يتعلق بهذا الأمر، ناقصة.

للأسف، ليست الحكمة الجماعية بديلاً صالحاً لفكر الأفراد علماً أن أولئك الذين كانوا يعارضون الآراء المسلم بها هم دائماً مصدر كل تقدم، على الصعيد الأخلاقي والفكري على حد سواء. وهم لم يكونوا شعبيين مثلما كانوا طبيعيين. فسقراط والمسيح وغاليلي كلهم على السواء أثاروا نقد المتزمتين، لكن في تلك الأيام كانت آلية القمع أقل صلاحاً بكثير مما هي اليوم، وكان الهرطوقي، حتى إن أعدم، يظل بإمكانه الحصول على شهرة كافية. لقد كان دم الشهداء هو البذرة التي نمت منها الكنيسة لكن هذا لم يعد ينطبق على بلد مثل ألمانيا، حيث الشهادة سرية وليس هناك من وسيلة لنشر عقيدة الشهيد.



قد يعود أعداء الحرية الأكاديمية، إذا استطاعوا أن يشقوا طريقهم كفاية، بهذه البلاد إلى مستوى ألمانيا فيما يتعلق بنشر المعتقدات التي لا تحظى بموافقتهم. إنهم يستبدلون الطغيان المنظم بالفكر الفردي. وهم يعادون كل جديد ويحرّفونه كما يجعلون المجتمع يتحجر، وفي النهاية ينتجون سلسلة من الأجيال التي قد تقضي عمرها من المهد إلى اللحد دون أن تترك أي أثر في تاريخ البشرية. بالنسبة إلى البعض يبدو وكأن المطلوب في اللحظة الراهنة ليس بالأمر الخطير جداً، إذ ما أهمية الحرية الأكاديمية مثلاً، كما يمكن القول، في عالم منكوب بالحروب، معذب بالاضطهاد، وزاخر بمعسكرات الاعتقال لأولئك الذين لا يريدون أن يكونوا شركاء في الظلم؟ أنا أعترف بذلك فقضية الحرية الأكاديمية ليست بحد ذاتها عظيمة القيمة، لكنها جزء لا يتجزأ من المعركة ذاتها ولنتذكر أن ما كان موضع رهان في القضايا الكبرى وكذلك في القضايا التي تبدو صغرى إنما هو حرية الفرد الإنسان كروح تريد التعبير عن معتقداتها وتطلعاتها بالنسبة للجنس البشري سواء شاركها معتقداتها الكثيرون أو القلة أو لم يشاركها أحد. فالتطلعات الجديدة والمعتقدات الجديدة والأفكار الجديدة ضرورية في كل الأوقات للجنس البشري، لكن ليس من التماثل الميت، يمكن أن نتوقع صدورها.



الفصل الثالث عشر

وجود الإله

مناظرة بين برتراند رسل والأب كوبلستون

هذه المناظرة كتبت بالأصل سنة 1959 في البرنامج الثالث للـ ب ب سي. ثم نشرت في «الإنسانيات» خريف 1948 وقد أعيد طبعها هنا بإذن كريم من الأب كوبلستون.

- كوبلستون: بما أننا سنناقش وجود الإله، ربما من المستحسن أن نتوصل إلى اتفاق مسبق فيما يتعلق بما نفهمه من مصطلح «الإله». أفترض أننا نعني به كائناً شخصياً أعلى متميزاً عن العالم وخالقاً له، فهل توافقني- شرطياً على الأقل - على قبول هذا القول كمعنى لمصطلح «الإله»؟

- رسل: أجل، أقبل هذا التعريف.

- كوبلستون: حسناً. موقفي هو موقف المثبِّت بأن كائناً كهذا موجود فعلاً، وأنه يمكن البرهنة على وجوده فلسفياً. ولعلك ستخبرني إن كان موقفك هو موقف اللا أدرية أو موقف الإلحاد. أنا أعني، هل يمكنك القول إن عدم وجود الإله يمكن البرهنة عليه؟

- رسل: كلا.. أنا لا أقول ذلك: موقفي هو موقف اللا أدري.

- كوبلستون: هل توافق معي أن مشكلة الإله مشكلة كبيرة الأهمية؟



مثال على ذلك، هل توافق أنه إن لم يكن هناك إله، لا يمكن أن يكون للكائنات البشرية والتاريخ البشري هدف آخر غير الهدف الذي يختارونه هم أنفسهم، وهذا عملياً - يحتمل أن يعني الهدف الذي يفرضه أولئك الذين يملكون السلطة ويستطيعون فرضه.

- رسل: إن تكلمنا بشكل عام، نعم، على الرغم من أنه يتعين علي أن أضع تحديداً ما لجملتك الأخيرة.

- كوبلستون: هل توافق أنه إذا لم يكن هناك إله - ولا كائن مطلق - فإنه لن يكون هناك قيم مطلقة؟ أنا أعني، هل توافق أنه إذا لم يكن هناك خير مطلق فإنه ينتج عن ذلك نسبية القيم؟

- رسل: لا، أنا أظن أن هذه المسائل مختلفة منطقياً. لنأخذ، مثلاً، كتاب مور «المبادئ الأخلاقية»، إنه يؤكد أن هناك ما يميز الخير عن الشر وأن كليهما مفهومان محددان، لكنه لا يأتي بفكرة الإله لكي يدعم ذلك المضمون.

- كوبلستون: لنفترض أننا نترك مسألة الخير إلى ما بعد، إلى أن نتوصل إلى الحجة الأخلاقية ونقدم أولاً الحجة الميتافيزيقية. بودي أن أضع الثقل الرئيسي على الحجة الميتافيزيقية القائمة على أساس حجة لايبتنز النابعة من «احتمال الحدوث»، ومن ثم نناقش الحجة الأخلاقية. لنفترض أنني ألقي بياناً موجزاً عن الحجة الميتافيزيقية ثم نمضي بعدئذ لمناقشتها؟

- رسل: تلك، على ما يبدو لي، خطة جيدة جداً. حجة احتمال الحدوث.

- كوبلستون، حسناً، من أجل الوضوح، سأقسم الحجة إلى مراحل متميزة، أولها، كما يجب القول، أننا نعرف أن هناك على



الأقل أشياء في العالم لا تتضمن بذاتها سبب وجودها. مثال على ذلك، أنا أعتمد على والديّ، والآن على الهواء، وعلى الطعام وهلم جراً. ثانياً، الآن ببساطة العالم هو الكل الحقيقي أو المتخيل، أو المجموع الكلي لأشياء مفردة، لا شيء منها يتضمن بمفرده سبب وجوده، وليس هناك أي عالم مختلف عن الأشياء التي تشكله، أكثر مما يمكن عزل الجنس البشري عن أعضائه، لهذا، يمكن القول، طالما إن الأشياء أو الوقائع موجودة، وطالما أنه ما من شيء خبرناه يتضمن سبب وجوده بحد ذاته، فإن هذا السبب أو المجمل الكلي للأشياء يجب أن يكون له سبب خارج عن ذاته. ذلك السبب يجب أن يكون كائناً موجوداً، حسناً، هذا الكائن إما أن يكون هو ذاته سبب وجوده أو لا يكون. فإن كان، خير وبركة، وإن لم يكن، إذن، يجب أن نتقدم أبعد. لكن إذا ما تقدمنا إلى ما لا نهاية بهذا المعنى، فلن يكون هنالك تفسير للوجود على الإطلاق. لهذا، يمكن القول، لكي نفسر الوجود، إن علينا أن نتوصل إلى الكائن الذي يتضمن بحد ذاته سبب وجوده، أي بمعنى آخر، الكائن الذي لا يمكن ألا - يوجد.

- رسل: هذا يثير نقاطاً عديدة هامة وليس من السهل كلياً أن نعرف من أين نبدأ، لكنني أظن، ربما للرد على هذه الحجة، أن النقطة الأفضل التي نبدأ بها هي مسألة الكائن الضروري. فكلمة «ضروري»، أنا أؤكد، يمكن فقط أن تنطبق انطباقاً هاماً على القضية. وبالحقيقة فقط بما هو تحليلي - أو بكلمة أخرى - بما هو متناقض ذاتياً، أن ننكره. إن بإمكاني فقط أن أعترف بكائن ضروري، إذا كان هناك كائن، من التناقض - الذاتي أن ننكر وجوده. لكن بودي هنا أن أعلم إن كنت تقبل تقسيم ليبتز للقضايا إلى حقائق عقل وحقائق واقع. الحقائق الأولى - أي حقائق العقل ضرورية؟



- كوبلستون: أنا بالتأكيد لا أؤيد ما يبدو لي أنها فكرة ليبنتز عن حقائق العقل وحقائق الواقع، نظراً لأنه، كما يبدو لي، هناك في نهاية المطاف قضايا تحليلية فقط. وبالنسبة لليبنتز فإن حقائق الواقع تختزل في النهاية لتعود حقائق عقل، هي قضايا تحليلية بالنسبة لعقل عالم بكل شيء على الأقل. حسن، أنا لا يمكنني أن أوافق على ذلك، لأنه، من جهة، يفشل في تلبية متطلبات تجربة الحرية وأنا لا أريد أن أتمسك بكامل فلسفة ليبنتز. لقد استخدمت حجة للاستفادة من احتمالية الحدوث للكائن الضروري القائمة على الحجة المستندة على مبدأ العقل الكافي، لأنها تبدو لي ببساطة صياغة واضحة وموجزة لما هو، في رأيي، الحجة الميتافيزيقية الأساسية لوجود الإله.

- رسل: لكن في ذهني أن «قضية الضرورة» يتعين عليها أن تكون تحليلية وأنا لا أرى ما هو الشيء الآخر الذي تعنيه. ثم إن القضايا التحليلية هي دائماً قضايا مركبة ومتأخرة منطقياً بشكل ما. فقولنا «الحيوانات اللاعقلانية حيوانات قضية» تحليلية، لكن قضية مثل «هذا الحيوان» لا يمكن أبداً أن تكون تحليلية. والحقيقة أن كل القضايا التي يمكن أن تكون تحليلية هي متأخرة بشكل من الأشكال في تركيبة القضايا.

- كوبلستون: لنأخذ القضية القائلة: «إذا كان هناك كائن محتمل الحدوث، إذن هناك كائن ضروري». أنا أعتبر أن القضية المعبّر عنها بشكل افتراضي قضية ضرورية وإذا كنت ستدعو كل قضية ضرورية قضية تحليلية، إذن - ولكي نتجنب الخلاف حول المصطلحات - أنا أوافق على أن أدعوها تحليلية، رغم أنني لا أعتبرها قضية حشو وتكرار. لكن القضية تكون ضرورية فقط بافتراض أن هناك كائناً محتمل الحدوث. وأن هذا الكائن محتمل الحدوث الموجود فعلاً



ينبغي أن يُكتشف بالتجربة، غير أن قضية أن هناك كائناً محتمل الحدوث ليس بالتأكيد قضية تحليلية رغم أنك تعرف من قبل وأنا أؤكد هنا أن هناك كائناً محتمل الحدوث يتبع ذلك ضرورة أن يكون هناك كائن ضروري.

- رسل: صعوبة هذه الحجة هي أنني لا أقر بفكرة الكائن الضروري ولا أعترف بأن هناك أي معنى خاص في قول إن الكائنات الأخرى «ممكنة الحدوث». فهذه العبارات لا تحمل بالنسبة لي أي معنى إلا ضمن منطق معين أنا أرفضه.

كوبلستون: هل تعني أنك ترفض هذه المصطلحات لأنها لا تتناسب مع ما يدعى بـ «المنطق الحديث»؟

- رسل: حسناً، أنا لا أرى ما يمكنها أن تعني، فكلمة «ضروري» كما يبدو لي، هي كلمة لا تفيد شيئاً إلا إذا طبقت على قضايا تحليلية، لا على أشياء.

- كوبلستون: في المقام الأول، ماذا تعني بـ «المنطق الحديث»؟ فحسب معرفتي، هناك أنظمة تختلف بشكل ما. في المقام الثاني، ليس كل المناطقة الحديثين يقرون بأن الميتافيزيقا لا معنى لها. وعلى أي حال، كلانا يعرف مفكراً حديثاً بارزاً جداً ومعرفته بالمنطق الحديث عميقة لكنه بالتأكيد لم يفكر أن الميتافيزق لا معنى له أو بصورة خاصة أن مشكلة الإله لا معنى لها. مرة ثانية أقول، إذا كان كل المناطقة الحديثين يعتقدون أن المصطلحات الميتافيزيقية لا معنى لها، لا يتبع ذلك أنهم على حق. فقضية أن المصطلحات الميتافيزقية لا معنى لها تبدو لي قضية قائمة على فلسفة افتراضية والموقف العقائدي النابعة منه هو، على ما يبدو لي، هذا: ما لا يدخل آلتي فهو



غير موجود أو لا معنى له. إنه التعبير عن عاطفة. وأنا ببساطة أحاول أن أستنتج أن كل من يقول إن النظام الخاص للمنطق الحديث هو وحده معيار المعنى إنما يقول شيئاً مفرط الدوغماتية، أي أنه مصرّ، دوغماتياً، على أن جزءاً من الفلسفة هو كل الفلسفة. بعد كل شيء، الكائن «المحتمل الحدوث» هو الكائن الذي لا يملك بحد ذاته سبباً كاملاً لوجوده، ذلك ما أعني بالكائن المحتمل الحدوث. إنك تعلم، كما أعلم أنا، أن وجود أي منا لا يمكن تفسيره دون الرجوع إلى أحد ما أو شيء ما خارجنا، الوالدين مثلاً. من جهة أخرى، الكائن الضروري يعني الكائن الذي يجب أن يوجد ولا يمكن ألا - يوجد، إنك قد تقول: ليس هناك كائن كهذا، لكنك ستجد من الصعب أن تقنعني أنك لا تفهم المصطلحات التي أستخدمها. وإذا كنت لا تفهمها، إذن كيف يمكنك أن تخول نفسك بالقول إن كائناً كهذا غير موجود، إذا كان ذلك ما تريد قوله؟

- رسل: حسناً، ثمة نقاط هنا، أقترح ألا نتناولها بالتفصيل التام. فأنا لا أؤيد خلو الميتافيزيق من المعنى بصورة عامة وعلى الإطلاق. أنا أؤيد اللامعنى لبعض المصطلحات الخاصة - ليس على أي أساس عام، بل ببساطة لأنني لا أستطيع أن أرى تفسيراً لهذه المصطلحات الخاصة. وهي ليست عقيدة عامة - إنها شيء خاص. لكنني سأترك جانباً هذه النقاط الآن. ولسوف أقول إن ما كنت تقوله يرجعنا، كما يبدو لي، إلى الحجة الانطولوجية بأن هناك كائناً جوهره يشتمل على الوجود، بحيث أن وجوده تحليلي. ذلك يبدو لي وكأنه المستحيل، كما يثير، بالطبع، السؤال حول ماذا يعني المرء بالوجود، وبالنسبة لهذا، أظن أنه لا يمكن القول أبداً عن شخص بذاته إنه موجود، بل إنه شخص موصوف، وأن الوجود، بالحقيقة وبشكل محدد تماماً ليس بالمُسند.



- كوبلستون: حسناً، أنت تقول، على ما أعتقد، إنه نوع من القواعد أو بالأحرى التركيب اللغوي السيئ أن تقول مثلاً: «إليوت موجود» بل على المرء أن يقول مثلاً: مؤلف «جريمة في الكاتدرائية»، موجود، هل في نيتك القول إن «سبب العالم موجود» هو بلا معنى؟ إن بإمكانك القول إن العالم «لا سبب لوجوده» لكنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكنك القول إن فكرة «أن سبب العالم موجود» هو بلا معنى. أو لنضع السؤال بصيغة أخرى: «هل للعالم سبب؟» أو «هل سبب العالم موجود؟»، بالتأكيد، معظم الناس يفهمون السؤال، حتى لو لم يكونوا يتفقون على الجواب.

- رسل: حسناً، بالتأكيد، «هل سبب العالم موجود؟» سؤال له معنى، لكن إذا قلت: «أجل» الإله هو سبب العالم. فإنك تستخدم الإله كاسم علم، إذن، الإله موجود، لن يكون قولاً ذا معنى وهذا هو الموقف الذي أؤيده. ذلك لأنه سيتبعه أنها لا يمكن أن تكون قضية تحليلية أن تقول إن هذا أو ذاك موجود. مثلاً، لنفترض أنك تأخذ كموضوع لك «المربع - المستدير الموجود» فإنه سيبدو أشبه بقضية تحليلية أن «المربع - المستدير الموجود موجود» لكن هو غير موجود.

كوبلستون: لا. هو غير موجود. إذن بالتأكيد، لا يمكنك أن تقول إنه غير موجود ما لم يكن لديك مفهوم عما هو الوجود. أما بالنسبة إلى العبارة «مربع - مستدير موجود»، فعلي أن أقول إنها عبارة لا معنى لها البتة.

- رسل: موافق تماماً. ثم سأقول الشيء ذاته في سياق آخر بالرجوع إلى «الكائن الضروري».

- كوبلستون: حسناً، يبدو لي أننا وصلنا إلى طريق مسدود. فأن تقول إن الكائن الضروري هو الكائن الذي يجب أن يوجد والذي لا يمكن ألا - يوجد شيء له عندي معنى محدد. أما بالنسبة إليك فإنه بلا معنى.



- رسل: حسناً، يمكننا أن نضغط على هذه النقطة قليلاً على ما أظن فالكائن الذي يجب أن يوجد والذي لا يمكن لا يوجد هو بالتأكيد، وطبقاً لرأيك، هو الكائن الذي يشتمل جوهره على الوجود.

- كوبلستون: أجل، كائن، جوهره يجب أن يكون موجوداً. لكنني لا أرغب في أن أناقش وجود الإله ببساطة من فكرة جوهره، لأنني لا أظن أن لدينا أي حدس واضح بعد عن جوهر الإله. لذا أظن أن علينا أن نناقش فكرة الإله انطلاقاً من عالم التجربة.

- رسل: أجل، أرى الفارق تماماً. لكن في الوقت ذاته وبالنسبة لكائن ذي معرفة كافية سيكون من الصحيح القول: «هاهو ذا الكائن الذي يشتمل جوهره على الوجود!!».

- كوبلستون: أجل، بالتأكيد، لو أن أحداً رأى الإله، كان سيرى أن الإله لا بد موجود.

- رسل: بذلك أعني أن هناك كائناً جوهره يشمل الوجود رغم أنني لا أعرف ذلك الجوهر. نحن فقط نعلم أن هناك كائناً كهذا.

- كوبلستون: أجل وعلي أن أضيف أننا لا نعرف الجوهر السابق. إنه فقط اللاحق، ومن خلال خبرتنا بالعالم، ما أوصلنا إلى معرفة وجود ذلك الكائن. بعدئذ يناقش المرء بأن الجوهر والوجود يجب أن يكونا متماثلين، ذلك أنه إذا كان وجود الإله وجوهره غير متماثلين، إذن، فإن سبباً كافياً ما لهذا الوجود يجب أن يوجد سوى الإله.

- رسل: هكذا، الأمر كله يدور حول مسألة السبب الكافي هذا، وعلي أن أقول إنني لم أستطع تحديد «السبب الكافي» بطريقة ممكنة الفهم - ماذا تعني بالسبب الكافي يا ترى؟ أنت لا تعني العلة؟



- كوبلستون: ليس بالضرورة. العلة هي نوع من السبب الكافي. وحده الكائن المحتمل الحدوث يمكن أن يكون له علة، أما الإله فهو سبب كافٍ بذاته وليس هو العلة بالنسبة لذاته، إنني أعني بالسبب الكافي بمعناه الكامل تفسيراً مناسباً لوجود كائن خاص ما.

- رسل: لكن متى يكون تفسيراً مناسباً؟ لنفترض أنني أهم بإشعال نار بواسطة عود كبريت، يمكنك أن تقول أن التفسير المناسب لذلك هو أنني أحك العود بعلبة الكبريت.

- كوبلستون: حسن، بالنسبة للأغراض العملية - لكن نظرياً، ذلك تفسير جزئي فقط. التفسير المناسب يجب أن يكون في النهاية تفسيراً كلياً لا يمكن أن يضاف إليه شيء بعد.

- رسل: إذن يمكنني القول فقط إنك تتطلع لشيء لا يمكن الحصول عليه، ولا ينبغي أن نتوقع الحصول عليه.

- كوبلستون: أن نقول إن المرء لم يجده، شيء، وأن نقول إن عليه ألا يبحث عنه يبدو لي شيئاً دوغماتياً نوعاً ما.

- رسل: حسن، لا أدري، بل أعني أن تفسير شيء ما بشيء آخر يجعل الشيء الآخر متوقفاً على آخر أيضاً، وعليك أن تمسك بهذه السلسلة المؤسفة من الأشياء كاملة لكي تصل إلى ما تريد وذلك ما لا نستطيع فعله.

- كوبلستون: لكن هل نقول إننا لا نستطيع، أو إنه لا ينبغي حتى أن نطرح مسالة وجود كل هذه السلسلة المؤسفة من الأشياء - مسألة الوجود بكامله؟

- رسل: أجل، أنا لا أظن أن هناك أي معنى لذلك على الإطلاق بل أظن أن كلمة «كون» كلمة ملائمة في بعض السياقات، لكنني لا أظن أنها تفسر أي شيء، ذي معنى.



- كوبلستون: إذا كانت الكلمة بلا معنى، فهي لا يمكن أن تكون ملائمة جداً. على أي حال، أنا لا أقول إن الوجود شيء مختلف عن الأشياء التي يتكون منها (وقد ضمنت ذلك في الملخص الموجز عن البرهان). ما أمثله هو أن أبحث عن السبب، وهو في هذه الحالة، علة الأشياء - ذلك الكل الحقيقي أو المتخيل الذي يتكون مما ندعوه بالكون. أنت تقول، أظن أن الكون - أو وجودي إن كنت تفضل ذلك، أو أي وجود آخر - هو غامض لا يمكن فهمه.

- رسل: أولاً، هل يمكنني أن أتمسك بهذه النقطة: إذا كانت الكلمة بلا معنى ألا يمكن أن تكون ملائمة؟ ذلك يبدو حسناً لكنه بالحقيقة ليس صحيحاً. لنأخذ، مثلاً، كلمة مثل «الـ» التعريف أو «من»، فإنك لن تستطيع أن تشير إلى أي شيء تعنيه هذه الكلمة أو تلك، لكنها كلمات مفيدة جداً، الأمر ذاته يمكنني أن أقوله عن «الكون»، لكن إذا ما تركنا تلك النقطة، قد تتساءل ما إذا كنت أعتبر أن الكون غامض لا يمكن فهمه، أما أنا فعلي ألا أقول إنه غامض - بل أظن أنه لا تفسير له، أما الواضح الذي يمكن فهمه، بالنسبة إلي فهو شيء مختلف، إنه ذاك الذي ينبغي أن يفي بالغرض، بالشيء ذاته، بجوهره، داخلياً وليس بعلاقاته.

- كوبلستون: حسن، ما يهمني هو أن ما ندعوه بالعالم شيء غامض في جوهره وغير قابل للفهم بمعزل عن وجود الإله. فأنا، كما ترى، لا أؤمن بلا نهائية سلسلة الأحداث، أعني السلسلة الأفقية، لنقل هكذا - فإذا ما كان بالإمكان البرهنة على مثل هذه اللانهائية، ستكون ذات صلة بالوضع بأدنى الدرجات، ذلك أنك إن كنت تجمّع شوكولاته، في النهاية ستحصل على شوكولاته وليس على غنم، وإذا كنت تجمع شوكولاته إلى ما لا نهاية، فمن المفترض أن يصبح لديك



عدد لا محدود من الشوكولاته وهكذا إن كنت تجمع كائنات محتملة الحدوث إلى ما لا نهاية، سيظل بإمكانك الحصول على كائنات محتملة الحدوث وليس كائناً ضرورياً، وستكون السلسلة اللانهائية من الكائنات المحتملة الحدوث، حسبما أفكر، عاجزة عن أن تكون علة ذاتها، كما هو شأن كل كائن محتمل الحدوث. مع ذلك، أنت تقول، على ما أظن، أنه من غير المشروع أن نطرح مسألة ما الذي يفسر وجود أي شيء بعينه؟

- رسل: هذا صحيح تماماً إن كنت تعني بتفسيره، أن تجد ببساطة سببه أو علته.

- كوبلستون: حسن، لماذا التوقف عند شيء خاص بعينه؟ لماذا لا نطرح مسألة العلة في وجود كل الأشياء بعينها؟

- رسل: لأنني لا أرى سبباً يدعو لأن نفكر أن هناك أياً منها. فالمفهوم الكلي للسبب هو ذاك الذي نستمده من ملاحظتنا للأشياء الخاصة. وأنا لا أرى سبباً، مهما يكن، لأن نفترض أن للكل أي سبب، أياً كان.

- كوبلستون: حسن، أن نقول إنه لا يوجد أي سبب يختلف تماماً عن أن نقول إن علينا ألا نبحث عن السبب. فالقول إنه لا يوجد أي سبب يتوصل، إن توصل إلى أي شيء على الإطلاق، إلى نهاية التساؤل، لا إلى البداية. وعلى أي حال، إذا لم يكن للكلي سبب، إذن، حسبما أفكر، يجب أن يكون هو سبب ذاته وعلتها، وذلك، على ما يبدو لي، مستحيل. زد على ذلك أن القول بأن العالم ببساطة موجود، إذا كان ذلك رداً على السؤال فإنه يفترض مسبقاً أن السؤال له معنى.

- رسل: لا، هو لا يحتاج لأن يكون علة ذاته. ما أقوله هو أن مفهوم العلة ليس قابلاً للتطبيق على الكل.



- كوبلستون: إذن أنت توافق سارتر على أن الكون هو ما ندعوه بـ «اللا مسوغ له»؟

- رسل: حسن، عبارة لا مسوغ له توحي بأنه يمكن أن يكون هناك شيء آخر. لذا أنا أقول أن الكون موجود فقط. وانتهى الأمر.

- كوبلستون: حسن، أنا لا أرى كيف يمكنك أن تلغي شرعية السؤال. كيف تأتى للكل، أو أي شيء على الإطلاق، أن يكون موجوداً؟ لماذا هو شيء ما وليس لا شيء، ذلك هو السؤال؟ أما حقيقة أننا نكسب معرفتنا عن العلة بالتجربة، ومن الأسباب الخاصة، فلا تلغي إمكانية السؤال: ما هي علة وسبب السلسة بالكامل. وإذا كانت كلمة «علة» لا تعني شيئاً، أو إذا كان بالإمكان أن نبين أن نظرة «كانت» للمسألة كانت صحيحة، فأنا أوافق أن المسألة ستكون غامضة غير مفهومة، لكن لا يبدو أنك تعتقد أن كلمة «علة» لا معنى لها ولا أفترض أنك «كانتي».

- رسل: إن باستطاعتي أن أوضح ما يبدو لي مغالطتك. كل إنسان موجود له أم، وعلى ما يبدو لي، فإن حجتك هي تلك، لذلك، العرق البشري يجب أن يكون له أم، لكن من الواضح أن العرق البشري ليس له أم - وذلك نطاق منطقي مختلف.

- كوبلستون: حسن، ليس باستطاعتي أن أرى بالحقيقة أي تماثل. فإذا قلت: «كل شيء له سبب ظاهراتي، لذلك، السلسلة كلها لها سبب ظاهراتي»، هنا يوجد تماثل، لكنني لا أقول ذلك، بل أنا أقول كل شيء له سبب ظاهراتي إذا كنت تصر على لا نهائية السلسلة - لكن سلسلة الأسباب الظاهراتية هي تفسير غير كافٍ للسلسلة. لذلك فإن السلسلة ليس لها سبب ظاهراتي بل سبب فائق يقع وراء نطاق الخبرة.



- رسل: ذلك دائماً يفترض أنه ليس فقط كل شيء خاص في العالم، بل العالم ككل يجب أن يكون له سبب، بالنسبة لذلك الافتراض، أنا لا أرى أي أساس أياً كان، وإذا ما قدمت لي أساساً ما سأصغي إليك.

- كوبلستون: حسن، سلسلة الأحداث هي إما بسبب أو بلا سبب، فإذا كانت بسبب، من الواضح أنه يجب أن يكون السبب خارج السلسلة، وإذا كانت بغير سبب، إذن، هي كافية بذاتها، وإذا كانت كافية بذاتها، فذلك ما أدعوه بالضروري، لكنه لا يمكن، أن يكون ضرورياً، طالما أن كل عضو هو محتمل الحدوث، ولقد اتفقنا أن الكل لا يكون حقيقة بمعزل عن أعضائه، لذلك، لا يمكن أن يكون ضرورياً. لهذا، لا يمكن أن يكون (وهو المسبَّب) - لا سبب له - أي بالتالي يجب أن يكون له علة. هنا بودي أن ألاحظ أن القول بأن «العالم ببساطة موجود وهو غير قابل للتفسير» لا يمكن أن يكون حصيلة تحليل منطقي.

- رسل: أنا لا أريد أن أبدو صلفاً، لكن يبدو لي أن بالإمكان الفهم من قولك إن العقل البشري لا يمكنه فهم الأشياء التي لا تبدو لها علة، لكن علماء الفيزياء يؤكدون لنا أن تحول كم مفرد إلى ذرات ليس له سبب.

- كوبلستون: حسن، الآن أتساءل ما إذا كان ذلك ليس ببساطة استدلالاً مؤقتاً.

- رسل: من الممكن أن يكون، لكنه يبين أن قول الفيزيائيين يمكن أن تدركه.

- كوبلستون: أجل، أنا أوافق. بعض العلماء - الفيزيائيين -



يرغبون في أن يسمحوا، ضمن مجال محدود، باللا حتمية. لكن هناك الكثيرين من العلماء لا يرغبون بذلك. إنني أظن إن البروفسور دينغل من جامعة لندن، يؤكد أن مبدأ اللايقينية عند هايزنبرغ يقول لنا شيئاً ما حول نجاح (أو عدمه) النظرية الذرية الحالية في المشاهدات المترابطة، لكن ليس فيما يتعلق بالطبيعة ذاتها، وكثير من علماء الفيزياء يقبلون هذه النظرة. على أي حال، أنا لا أرى كيف يمكن للفيزيائيين أن يفشلوا في تقبل النظرية عملياً، حتى ولو أنهم لا يقبلونها، نظرياً، كما لا يمكنني أن أرى كيف للعلم أن يساق إلى أي افتراض آخر غير النظام والوضوح في الطبيعة. فعالم الفيزياء يفترض مسبقاً، بشكل ضمني على الأقل، أن هناك معنى ما في تفحص الطبيعة والبحث عن سبب كل واقعة. تماماً كما يفترض رجل التحري مسبقاً أن هناك معنى ما في البحث عن سبب الجريمة. الميتافيزيقي يفترض أن هناك معنى ما في البحث عن سبب أو علة الظواهر وباعتباري لست كانتياً فأنا أرى أن الميتافيزيقي لديه ما يبرره في افتراضه تماماً مثل ما لدى الفيزيائي. وعندما يقول سارتر، مثلاً، أن العالم لا مسوغ له، أظن أنه لم يفكر إلى حد كافٍ بما تعنيه عبارة لا مسوغ له.

- رسل: يبدو لي، على ما أظن، أن هناك بعض التوسع غير المبرَّر. فالفيزيائي يبحث عن الأسباب، وذلك لا يعني بالضرورة أن هناك أسباباً في كل مكان، إذ يمكن للمرء أن يبحث عن الذهب دون أن يفترض أن هناك ذهباً في كل مكان. وإذا ما وجد الذهب، فخير وبركة، وإذا لم يجده يكون ذلك لسوء حظه. الأمر ذاته ينطبق عندما يبحث الفيزيائيون عن العلل. بالنسبة إلى سارتر، أنا لا أزعم أنني أعلم ما يعني وليس بودي أن يظن أحد أنني أفسر كلامه، لكن من جهتي، أظن أن فكرة أن للعالم تفسيراً هي فكرة خاطئة، وأنا لا أرى



لماذا على المرء أن يتوقع أن يكون له تفسير، كما أظن أن ما تقوله حول ما يفترض العالم هو نوع من المغالاة.

- كوبلستون: حسن، يبدو لي أن العالم يقوم بوضع افتراضات كهذه. وحين يجري التجارب لكي يكتشف حقيقة بعينها، فإن خلف تلك التجربة يكمن الافتراض بأن الكون ليس ببساطة غير مترابط، إذ ثمة احتمال في اكتشاف حقيقة ما بالتجربة. والتجربة قد تكون سيئة، وقد لا تؤدي إلى نتيجة أو لا تؤدي إلى النتيجة التي يريدها العالم لكن، هناك، على أية حال، احتمال، ومن خلال التجربة في اكتشاف الحقيقة التي يفترضها، لذلك يبدو لي أن علينا أن نفترض أن الكون منظم وقابل للفهم.

- رسل: أظن أنك تعمم أكثر من اللازم. فالعالم يفترض ولا شك أن هذا النوع من الأشياء يحتمل أن يوجد وغالباً ما سوف يوجد. هو لا يفترض أنه سيتم إيجاده، وتلك مسألة مهمة جداً في الفيزياء الحديثة.

- كوبلستون: حسن، أظن أنه يفترض أو هو ملزم بأن يفترض ضمنياً وعملياً، وإذا ما اقتبسنا كلام البروفسور هالدان، يمكن أن يكون الأمر كالتالي «عندما أشعل النار تحت إبريق الشاي فإن بعض جزئيات الماء ستتطاير على شكل بخار، لكن ليس هناك من طريقة لاكتشاف أي تلك الجزئيات ستقوم بذلك. لكن لا يتبع بالضرورة أن فكرة الفرصة يجب إدخالها إلا فيما يتعلق بمعرفتنا.

- رسل: كلاً، هو لا يتبع - على الأقل إذا كان بالإمكان أن أصدق ما يقول بأنه يكتشف قدراً كبيراً من الأشياء - أي العالم يكتشف قدراً كبيراً من الأشياء مما يحدث في العالم والتي هي، أولاً، بدايات السلاسل السببية - أي أسباب أولى ليس لها بحد ذاتها أسباب. أي هو لا يفترض أن كل شيء له سبب.



- كوبلستون: بالتأكيد، ذلك سبب أولي ضمن نطاق معنى ما. إنه السبب الأول نسبياً.

- رسل: أنا لا أظن أنه يقول ذلك. فإذا كان هناك عالم، معظم الأحداث فيه، وليس كلها، لها أسبابها، إذن سيكون بإمكانه أن يتكهن بالاحتمالات وعدم اليقينيات من خلال الافتراض أن هذه الواقعة بعينها التي يهتم بها يحتمل أن يكون لها سبب. ونظراً لأنك لن تحصل في أية حال على أكثر من احتمال، فإن ذلك سيكون جيداً كفاية.

- كوبلستون: من المحتمل أن العالِم لا يأمل بالحصول على أكثر من احتمال، لكن عند طرح المسألة، هو يفترض أن مسألة التفسير لها معنى، بيد أن النقطة الأساسية لديك، لورد رسل، هي أنه غير مشروع لديك حتى أن تطرح السؤال المتعلق بعلة العالم وسببه؟

- رسل: أجل، ذلك موقفي.

- كوبلستون: إن كان ذلك لأن السؤال، بالنسبة إليك، ليس له معنى، فمن الصعب جداً، بالطبع، أن نناقشه، أليس كذلك؟

- رسل: أجل... من الصعب جداً. فما رأيك أن ننتقل إلى قضية أخرى؟

التجربة الدينية

- كوبلستون: حسن، لننتقل، هنا ربما يمكنني قول كلمة حول التجربة الدينية، ثم يمكننا الانتقال إلى التجربة الأخلاقية. أنا لا أعتبر أن التجربة الدينية برهان حاسم على وجود الإله، بذلك تتغير ماهية المناقشة بشكل ما، لكنني أظن أن من الصحيح القول إن خير تفسير لها هو وجود الإله. أنا لا أعني، بالتجربة الدينية، الشعور ببساطة بالراحة، بل أعني وعياً محباً، لكن غير واضح، بشيء ما يبدو أنه لا



يقاوم بالنسبة لصاحب التجربة، شيء ما فائق ويسمو بالذات، شيء ما يصعِّد عالياً كل الأشياء العادية للتجربة ولا يمكن وصفه أو إضفاء الصبغة المفاهيمية عليه، لكنه شيء حقيقي، لا يمكن الشك فيه - على الأقل خلال التجربة. ولسوف أزعم أنه لا يمكن تفسيره بصورة صحيحة ملائمة، دون شيء من رواسب، شخصية على الأقل، وعلى أية حال، فإن من السهل أكثر تفسير التجربة الأساسية العملية بافتراض أن هناك فعلاً سبباً ما موضوعياً لتلك التجربة.

- رسل: جوابي على ذلك النوع من الحجج أن كل حجة نابعة من حالة ذهنية خاصة تجاه شيء ما خارجنا، هي شأن خادع للغاية. إذ حتى عندما نقر بصلاحيتها، فإننا فقط نشعر أن لدينا ما يبرر فعل ذلك، على ما أظن، بسبب إجماع الناس عليه، فإذا كان هناك حشد في غرفة وكان هناك ساعة في الغرفة، يمكن للكل أن يروا الساعة. وحقيقة أن بإمكانهم جميعاً أن يروا الساعة تدفعهم لأن يظنوا أنها ليست هلوسة، بينما هذه التجارب الدينية تنحو لأن تكون خاصة جداً.

- كوبلستون: أجل، هي كذلك. إنني أتكلم بالتحديد عن التجربة الصوفية الخاصة، ولا أضمنها بالتأكيد، ما يدعى بالرؤى. ببساطة، أنا أعني التجربة وأعترف تماماً بأنها غير قابلة للتحديد بالنسبة لما هو فائق يتجاوز عالم التجربة أو ما يبدو لي أنه فائق يتجاوز عالم التجربة. أنا أتذكر جوليان هكسلي في إحدى محاضراته حين قال إن التجربة الدينية، أو التجربة الصوفية هي تجربة حقيقية بقدر ما هو حقيقي الوقوع في الغرام أو الإعجاب الشديد بالشعر والفن. حسن. أنا أعتقد أننا عندما نعجب كثيراً بالشعر والفن فإننا نعجب بقصائد معينة أو عمل فني محدد. كذلك حين نقع في الحب فإننا نقع في حب شخص معين وليس لا أحد.



- رسل: ممكن المقاطعة لحظة هنا، ليست القضية على هذا النحو دائماً. إذ أن الروائيين اليابانيين لا يعتبرون أنهم حققوا أي نجاح ما لم يقم عدد كبير من الناس بالانتحار حباً بالبطلة الخيالية.

- كوبلستون: حسن، علي أن آخذ كلمتك فيما يتعلق بمثل هذه الأعمال في اليابان، وأنا لم أرتكب الانتحار، ويسرني أن أقول ذلك، لكنني تأثرت تأثراً شديداً، عند اتخاذي خطوتين هامتين في حياتي، بكتابين من كتب السيرة الذاتية. مع ذلك، علي أن أقول إنني أرى القليل من الشبه بين التأثير الحقيقي لذينك الكتابين علي وبين التجربة الصوفية الخاصة، وإلى هذا الحد، فإن ذلك يعني أنه يمكن لمراقب خارجي أن يحصل على فكرة ما عن تلك التجربة.

- رسل: حسن، أنا أعني أنه لا يمكن النظر إلى الإله ككائن بالمستوى نفسه لشخصيات في عمل من صنع الخيال. ولا بد أن تعترف أنه يوجد هنا فارق ما؟

- كوبلستون: بالتأكيد، أنا أعترف. لكن ما أود قوله هو أن أفضل تفسير، على ما يبدو لي، ليس هو التفسير الذاتاني الخالص، بالطبع، المذهب الذاتاني ممكن في حالة شخص معين، لديه علاقة ضئيلة بين التجربة والحياة، وفي حالة الأشخاص أصحاب الأوهام والهلوسة وما شابه. لكن حين يصل الأمر إلى ما يمكن أن يدعوه المرء بالنمط الخاص، كالقديس فرنسيس العسيسي مثلاً، حين تحصل على تجربة تؤدي إلى فيض من الديناميكية والحب الخلاق، فإن أفضل تفسير لذلك، كما يبدو لي، هو الوجود الفعلي للسبب الموضوعي للتجربة.

- رسل: حسن، أنا لن أجادل بطريقة دوغماتية أنه لا يوجد إله، ما أجادل به هو أننا لا نعلم أنه يوجد إله. إن بإمكاني فقط أن آخذ ما



هو مسجل، كما آخذ سجلات أخرى، وأجد أن قدراً كبيراً جداً من الأشياء مسجل ثم إنني متأكد من أنك لن تقبل تلك الأشياء المتعلقة بالعفاريت والشياطين وما شابه - ولقد سُجِّلت بنغمة الصوت ذاتها وبالقناعة ذاتها تماماً، ثم إن الصوفي، إذا كانت رؤياه صادقة، يمكن أن يقال إنه يعلم أن هناك شياطين، لكنني أنا لا أعلم أن هناك شياطين.

- كوبلستون: لكن بالتأكيد في حالة الشياطين، هناك ناس يتكلمون بصورة أساسية عن الرؤى، التجليات، الملائكة أو الشياطين وهلم جراً. أنا سأحذف التجليات الرؤيوية لأنني أظن أنه يمكن تفسيرها بمعزل عن وجود الشيء الذي يفترض أن الشخص رآه.

- رسل: لكن ألا تظن أن هناك حالات مسجلة وافرة لناس يعتقدون أنهم سمعوا إبليس يكلمهم في قلوبهم بالطريقة نفسها التي يعتقد الصوفي أن الإله كلمه بها - وأنا لا أتكلم الآن عن رؤيا خارجية، أنا أتكلم عن تجربة ذهنية خالصة. تلك تبدو لي تجربة من النوع ذاته لتجربة الصوفي مع الإله. كما لا أرى أنك، مما يخبرك به الصوفيون، يمكن أن تحصل على أية حجة لصالح الإله لا تتساوى مع الحجة لصالح إبليس.

- كوبلستون: بالطبع، أنا موافق تماماً أن الناس يتخيلون أو يفكرون أنهم سمعوا أو رأوا إبليس، وليس لدي رغبة في أن أمضي إلى نكران وجود إبليس، لكنني لا أظن أن الناس يدعون أن لهم تجربة مع الإله؟

لنأخذ حالة بلوتينوس، غير المسيحي. إنه يقر بأن التجربة شيء لا يمكن التعبير عنه، فالموضوع موضوع حب، لذلك ليس هو بالموضوع الذي يسبب الرعب والاشمئزاز، وتأثير تلك التجربة، يمكنني القول، هو ما يظهر خارجياً، أو ما أعنيه هو أن صحة التجربة



تظهر في سجلات حياة بلوتينوس. على أية حال، من المعقول أكثر أن نفترض أنه عاش تلك التجربة إذا كنا راغبين في قبول رواية بروفيري عن لطف بلوتينوس وحبه للخير.

- رسل: كون الإيمان له تأثير أخلاقي جيد على الإنسان أمر لا دليل على صحته، أياً كان.

- كوبلستون: كلا، لكن إذا كان بالإمكان البرهنة عملياً على أن الإيمان كان مسؤولاً فعلاً عن التأثير الجيد في حياة إنسان ما سأعتبر ذلك افتراضاً لصالح حقيقة ما، بأية نسبة من جزء إيجابي للإيمان وليس لصحته كله. لكن في أية حالة أنا أستخدم شخصية من الحياة كدليل لصالح صدق الصوفي وعقلانيته وليس كبرهان على صحة معتقداته.

- رسل: لكن حتى هذا لا أظنه يشكل أي دليل. لقد كان لي تجارب أنا نفسي. وقد غيرت شخصيتي تغييراً عميقاً، ولقد فكرت في حينها بأية نسبة كان التغيير نحو الأفضل. هذه التجارب كانت مهمة لكنها لم تكن تتعلق بوجود شيء ما خارج ذاتي، ولا أفكر، إذا ما فكرت أنه كان لها علاقة، أن ذلك سيشكل أي دليل على أنني على صواب.

- كوبلستون: كلا، لكنني أفكر أن التأثير الجيد سيشهد على صدقك في وصف تجربتك. وأرجوك أن تتذكر أنني لا أقول إن تأمل الصوفي أو تفسيره لتجربته يعصمه من النقاش أو النقد.

- رسل: من الواضح أن شخصية الشاب يمكن أن تكون - وغالباً ما تكون - قابلة للتأثر إلى حد كبير باتجاه الخير، نتيجة قراءة شيء ما عن شخص عظيم في التاريخ، وقد يحدث أن هذا الشخص العظيم مجرد أسطورة ولا وجود له، لكن الغلام يتأثر به كثيراً باتجاه الخير، كما لو أن له وجوداً حقاً. ثمة أناس كهؤلاء موجودون



وبلوتارك في كتابه «حيوات» يأخذ ليكورغوس كمثال، رغم أنه لم يوجد حقيقة لكنك قد تتأثر كثيراً جداً بقراءتك عن ليكورغوس وتخرج بانطباع وكأنه وجد من قبل. إذن، أنت تتأثر بالشيء الذي تحبه رغم أنه قد لا يكون له وجود حقيقي.

- كوبلستون: بالطبع، أنا أوافقك على ذلك، فالإنسان قد يتأثر بشخصية من صنع الخيال. ودون المضي إلى مسألة ما الذي يؤثر فيه تماماً (وعلي أن أقول تأثيراً حقيقياً) أظن أن الوضع بالنسبة لذلك الإنسان ووضع الصوفي مختلفان. فالإنسان في النهاية، الذي يتأثر بليكورغوس لا يحصل لديه الانطباع الذي لا يقاوم بأنه عاش بطريقة ما تجربة الحقيقة المطلقة.

- رسل: أنا لا أظن أنك أمسكت تماماً بما أردت قوله عن هذه الشخصيات التاريخية - أقصد هذه الشخصيات التي لا وجود لها في التاريخ، أنا لا أفترض ما أنت تدعوه بالتأثير على العقل. أنا أفترض أن الفتى الذي يقرأ عن هذا الشخص ويؤمن أنه حقيقي، يحبه وهو سهل تماماً أن يحدث، على الرغم من أنه يحب شبحاً.

- كوبلستون: بمعنى من المعاني، هو يحب الشبح الذي يكون حقيقياً تماماً، أي أعن أنه يحبب س أو ع الذي لا وجود له، لكن في الوقت ذاته، وعلى ما أظن، ليس الشبح بحد ذاته ما يحبه الفتى، إنه يدرك قيمة حقيقية، فكرة هو يدركها باعتبارها صحيحة موضوعياً، وذلك ما يستثير حبه.

- رسل: حسن، بالمعنى ذاته، لقد تكلمنا من قبل عن الشخصيات التي هي من صنع الخيال.

- كوبلستون: أجل، بمعنى ما يمكن للإنسان أن يحب شبحاً ما وكأنه حقيقي تماماً. لكن بمعنى آخر هو يحب ما يدرك أنه قيمة.



- رسل: لكن ألا تقول الآن في الواقع، وأعني بالإله مهما يكن خيِّراً أو الكل الإجمالي للخير - إنه منظومة الخير ولهذا عندما يحب الفتى شيئاً ما خيراً فإنما هو يحب الإله؟ هل هذا ما تقوله؟ ذلك أنه إذا كان الأمر كذلك، فإنه بحاجة لشيء من المناقشة.

- كوبلستون: أنا لا أقول، طبعاً، إن الإله هو الكل الإجمالي أو منظومة الخير بالمعنى الذي يقول به أصحاب مذهب وحدة الوجود، فأنا لست من أتباع هذا المذهب، لكنني أظن أن كل خير يعكس صورة الإله بطريقة ما وينطلق منه، بحيث أن الإنسان بمعنى من المعاني، الذي يحب ما هو خير فعلاً، يحب الإله حتى لو لم يشر إليه. لكنني ما زلت أوافق على أن صحة تأويل كهذا لسلوك الإنسان تتوقف، بكل وضوح، على الاعتراف بوجود الإله.

- رسل: لكن هذه نقطة بحاجة لإثبات.

- كوبلستون: تماماً هكذا، إلا أنني أعتبر الحجة الميتافيزيقية بمثابة الإثبات، ونحن هنا نختلف.

- رسل: أنا أشعر، كما ترى، أن بعض الأشياء خير وأن بعض الأشياء شر. أنا أحب أشياء الخير، أي ما أظن أنها خير وأكره الأشياء التي أظن أنها شر، بيد أنني لا أقول إن هذه الأشياء خير لأنها جزء من الخير الإلهي.

- كوبلستون: أجل. لكن ما تبريرك لما تقوم به من تمييز بين الخير والشر، أو كيف تنظر إلى الفارق بينهما؟

- رسل: ليس لدي أي تبرير سوى ما أبرر به الفارق بين الأزرق والأصفر. ما هو تبريري للتمييز بين الأزرق والأصفر؟ إن بإمكاني أن أرى أنهما مختلفان.



- كوبلستون: حسن أنا أوافق أن ذلك تبرير ممتاز. أنت تميز بين الأزرق والأصفر من خلال رؤيتهما. لكن بأي حاسة تميز بين الخير والشر؟

- رسل: بمشاعري.

- كوبلستون: بمشاعرك؟ حسن. ذلك ما أتساءل عنه. أنت تفكر إذن أن مرجعية الخير والشر بكل بساطة هي الشعور؟

- رسل: حسن، لماذا يبدو نوع من الأشياء أصفر وآخر أزرق؟ بإمكاني تقريباً أن أجيب على ذلك بفضل علماء الفيزياء، كذلك الأمر، بالنسبة إلى ما هو خير وشر، ربما هناك جواب من النوع ذاته، لكنه لا يمضي على الطريق نفسه وليس باستطاعتي أن أقدمه لك.

- كوبلستون: حسن. دعنا نأخذ كمثال سلوك قائد بلسن. ذلك يبدو لك على أنه غير مرغوب به وشرير، كما يبدو لي أنا أيضاً، لكن بالنسبة لأدولف هتلر، نفترض أنه يبدو جيداً ومرغوباً به وإنني أفترض أن عليك أن تقر أنه بالنسبة إلى هتلر كان خيراً وبالنسبة إليك كان شراً.

- رسل: لا. أنا لا أمضي بعيداً تماماً إلى هذا الحد. أعني، أنا أظن أن الناس يمكن أن يخطئوا في ذلك كما يخطئون في أشياء أخرى. فإذا كان لديك يرقان سترى الأشياء صفراء وهي ليست صفراء، ولسوف تكون مخطئاً.

- كوبلستون: أجل، يمكن للمرء أن يخطئ، لكن هل يمكن أن تخطئ إذا كانت مرجعية المسألة ببساطة هي الشعور أو العاطفة؟ هنا بالتأكيد، سيكون هتلر الحكم المحتمل الوحيد لما يرضي عواطفه.



- رسل: قد يكون صحيحاً تماماً أن نقول إنها ترضي عواطفه، لكن يمكنك قول أشياء مختلفة حول ذلك، من بينها، إذا كان ذلك النوع من الأشياء يرضي هتلر، إذن هتلر يقوم تماماً بما لا يرضي عواطفي.

- كوبلستون: لنسلم جدلاً بأنه صحيح. لكن أليس هناك معيار موضوعي خارج الشعور للحكم على سلوك قائد بلسن، بنظرك؟

- رسل: لا أكثر مما يوجد للشخص المصاب بعمى الألوان الذي هو في الحالة ذاتها تماماً. لماذا ندين فكرة الرجل المصاب بعمى الألوان؟ أليس لأنه من الأقلية؟

- كوبلستون: بل أنا أقول لأنه يفتقد شيئاً يمت عادة للطبيعة البشرية.

- رسل: صحيح، لكن لو كان هو من الأكثرية، فإننا لن نقول ذلك.

- كوبلستون: إذن، تريد القول إنه لا معيار خارج الشعور يجعل المرء قادراً على التميز بين سلوك قائد بلسن وسلوك، مثلاً، السير ستافورد كريبز أو رئيس أساقفة كانتربري.

- رسل: الشعور كلمة مبسطة قليلاً جداً، فعليك أن تأخذ في الحسبان آثار الأفعال ومشاعرك تجاه تلك الآثار. وكما ترى، يمكن أن تكون لديك حجة حول إذا ما قلت إنك تحب أنواعاً معينة من الوقائع ولا تحب أنواعاً أخرى. إذن ينبغي أن تأخذ في الحسبان آثار الأفعال وباستطاعتك أن تقول إن آثار أفعال قائد بلسن كانت مؤلمة ومزعجة.

- كوبلستون: أنا أوافقك أنها كانت كذلك، مؤلمة ومزعجة جداً لكل الناس في المعسكر.

- رسل: لا، ليس فقط لناس المعسكر، بل أيضاً لمن هم خارجه حين يفكرون بها.



- كوبلستون: أجل، ذلك صحيح تماماً في التصور. لكن تلك نقطتي. فأنا لا أوافق على تلك الأعمال كما أعلم أنك أنت أيضاً لا توافق، لكنني لا أرى الأساس الذي ننطلق منه لعدم موافقتنا عليها، لأنها، في نهاية الأمر، وبالنسبة إلى قائد بلسن، كانت أعمالاً مرضية.

- رسل: أجل، لكنك ترى أنني لست بحاجة لمزيد من الأسس في هذه الحالة أكثر من حاجتي في حالة معرفة - الألوان. فهناك بعض الناس يظنون أن كل شيء أصفر. إنهم يعانون من مرض اليرقان، وأنا لا أتفق مع هؤلاء الناس. غير أنني لا أستطيع أن أبرهن أن الأشياء ليست صفراء، فليس هناك أي برهان، لكن معظم الناس يتفقون معي أنها ليست صفراء. ومعظم الناس يوافقونني على أن قائد بلسن ارتكب أخطاء كبيرة.

- كوبلستون: حسن، هل تقبل بأي التزام أخلاقي؟

- رسل: حسن، علي أن أجيب بشيء من الطول. فإذا تكلمنا من ناحية عملية أقول - نعم. وإذا تكلمنا من ناحية نظرية يتعين علي أن أحدد الالتزام الأخلاقي بحرص أشد نوعاً ما.

- كوبلستون: حسن، هل تظن أن لكلمة: «يجب»، ببساطة، أي مضمون عاطفي؟

- رسل: لا، لا أظن ذلك، لأنك ترى، كما قلت قبل لحظة، أن على المرء أن يأخذ بالحسبان الآثار وأنا أظن أن السلوك الصحيح هو ذاك الذي ربما يحقق أكبر توازن ممكن في القيمة الجوهرية لكل الأفعال المحتملة في الظروف المحيطة، كما أن عليك أن تأخذ بالحسبان الآثار الممكنة لما تفعله، آخذاً بالاعتبار ما هو صواب وما هو خطأ.

- كوبلستون: حسن، هنا أعود إلى الالتزام الأخلاقي لأنني أظن أن بإمكان المرء أن يقارب مسألة وجود الإله بتلك الطريقة. فالغالبية العظمى من الناس تفرق، مثلما فرّقت دائماً بين الصحيح والخطأ، والغالبية العظمى، ما أظن، لديها شيء من الوعي بالالتزام في المجال الأخلاقي. كما أن فهم القيم، برأي، ووعي القانون الأخلاقي والالتزام الأخلاقي يمكن شرحها كلها على أفضل نحو من خلال فرضية الأساس السماوي للقيمة ولمبدع القانون الأخلاقي. إنني أعني «بمبدع القانون الأخلاقي» المبدع المتحكم بالقانون الأخلاقي، بالحقيقة، أنا أظن أن أولئك الملحدين الحديثين الذين ناقشوا الأمر بطريقة معاكسة: «ليس هناك إله، إذن، ليس هناك قيمة مطلقة ولا قانون مطلق»، هم منطقيون تماماً.

- رسل: أنا لا أحب كلمة «مطلق» ولا أظن أن هناك شيئاً «مطلقاً» أياً كان. القانون الأخلاقي، مثلاً، يتغير دائماً. وفي مرحلة من مراحل تطور العرق البشري، كان الجميع تقريباً يفكرون أن أكل اللحم البشري واجب.

- كوبلستون: حسن، أنا لا أرى أن الاختلافات في الأحكام الأخلاقية الخاصة تشكل أية حجة مقنعة ضد شمولية القانون الأخلاقي. لنفترض، للحظة، أن هناك قوانين أخلاقية مطلقة، فحتى على صعيد ذلك الافتراض، من المتوقع فقط أن الأفراد المختلفين والجماعات المختلفة ستتمتع بدرجات متفاوتة من التبصر بهذه القيم.

- رسل: إنني أميل للتفكير بأن كلمة «يجب»، أي الشعور بأن يرى المرء «واجباً» ما، إنما هي صدى للتعليمات التي تلقاها المرء من والديه أو مربياته.



- كوبلستون: حسن، أنا أتساءل إذا كان باستطاعتك أن تفسر من غير تردد فكرة «يجب» طبعاً لتعليمات الوالدين والمربيات فقط. أنا لا أرى بالحقيقة كيف يمكن أن تنقل إلى أي أحد بمصطلحات أخرى غير مصطلحها ذاته. إذ يبدو لي أنه إذا كان هناك نظام أخلاقي يفرض على الوجدان الإنساني فإن ذلك النظام الأخلاقي سيكون غامضاً وغير قابل للفهم بمعزل عن وجود الإله.

- رسل: إذن، عليك أن تختار بين أحد أمرين. إما أن الإله يكلم فقط نسبة ضئيلة جداً من العرق البشري بمن فيهم بالمصادفة أنت نفسك - أو أنه عامداً متعمداً يقول أشياء ليست صحيحة حين يكلم ضمائر المتوحشين.

- كوبلستون: حسن، كما ترى، أنا لا أقول إن الإله يملي عملياً المفاهيم الأخلاقية للضمير. فأفكار الإنسان ذات المضمون المستمد من القانون الأخلاقي تعتمد بالتأكيد، وإلى حد كبير، على التعليم والبيئة، لذا، على الإنسان أن يستخدم عقله في تقييم صحة الأفكار الأخلاقية العملية لفئته الاجتماعية. على أن إمكانية انتقاد القوانين الأخلاقية المقبولة من المجتمع تفترض مسبقاً أن هناك معياراً موضوعياً ما وأن هناك نظاماً أخلاقياً مثالياً يفرض نفسه (أنا أعني الصفة الإلزامية التي يمكن التعرف إليها). كما أظن أن معرفة هذا النظام الأخلاقي المثالي إنما هي جزء من معرفة احتمالية الحدوث. وذلك يدل على وجود أساس حقيقي للإله.

- رسل: لكن ما نحي - القانون كانوا دائماً، كما يبدو لي، الوالدين أو ما شابه، بل هناك وفرة من مانحي - القانون الأرضيين الذين يعللونه. وذلك يفسر لماذا تختلف ضمائر الناس اختلافاً شديداً باختلاف الأزمنة والأمكنة.



- كوبلستون: ذلك يساعد في تفسير الفروق في فهم قيم أخلاقية بصيغها، وإلا كانت غير قابلة للتفسير، وذلك يساعد في تفسير التغيرات في مادة القانون الأخلاقي من حيث مضمون المفاهيم المقبولة من هذه الأمة أو ذلك الفرد. لكن الشكل الذي يتخذه، أي ما يدعوه كانط بالأوامر والنواهي التطبيقية، أو الـ «يجب»، فإنني بالحقيقة لا أرى كيف يمكنها أن تنتقل إلى أي شخص من قبل والديه أو مربياته، لأنه لن يكون هناك أي مصطلحات، بحسب ما أرى، يمكن بواسطتها تفيسرها. إذ لا يمكن أن تحدد بمصطلحات أخرى غير مصطلحاتها ذاتها، لأنك ما إن تحددها بمصطلحات أخرى غير ذاتها حتى تكون قد ذهبت بعيداً في تفسيرها، ولا تعود بعد ذلك كلمة «يجب» أخلاقية بل تصبح شيئاً آخر.

- رسل: حسن، أنا أظن أن معنى «يجب»نابع من تأثير الرفض المتخيل لكائن ما هو قد يكون رفض الإله المتخيل، لكنه رفض متخيل لكائن ما. وأنا أظن أن ذلك ما نعنيه بكلمة «يجب».

- كوبلستون: يبدو لي أنها العادات الخارجية والمحرمات وأشياء من ذلك القبيل، يمكن تفسيرها بسهولة أكبر وبساطة أشد من خلال البيئة والتعليم. لكن كل ذلك يبدو لي أنه يمت لما ندعوه بمادة القانون وبمضمونه. ففكرة الـ «يجب» بحد ذاتها لا يمكن نقلها إلى إنسان بواسطة شيخ القبيلة أو أي شخص آخر، إذ لا يوجد هناك مصطلحات أخرى يمكن نقلها بواسطتها. بل يبدو لي كلياً تماماً.. (هنا يتدخل رسل).

- رسل: لكنني لا أرى من داع لقولي ذلك - أعني أننا جميعاً نعرف ما يتعلق بالمنعكسات الشرطية كما نعرف أن الحيوان إذا ما عاقبته عادة عقاباً شديداً على نوع معين من العمل، سيمتنع عن هذا



العمل بعد ذاك. وأنا لا أظن أن الحيوان يكف عن مناقشة نفسه داخلياً، «سيغضب سيدي إن فعلت هذا». إذن يتولد لديه شعور بأن ذلك ليس بالشيء الذي عليه أن يفعله وذلك ما يمكن أن نفعله بأنفسنا ولا شيء زيادة.

- كوبلستون: أنا لا أرى سبباً يدعو لأن نفترض أن للحيوان وعياً بالواجب الأخلاقي ونحن، بالتأكيد، لا ننظر إلى الحيوان على أنه مسؤول أخلاقياً عن أعماله المتعلقة بالعصيان. لكن للإنسان وعياً بالواجب وبالقيم الأخلاقية، كما أنني لا أرى من داع لأن نفترض أن بإمكان المرء أن يشترط على كل الناس كما يمكنه أن يشترط على الحيوان، ولا أفترض أنك تود حقاً أن تفعل ذلك حتى لو كان باستطاعتك. فإذا كانت «المدرسة السلوكية» صادقة، لن يكون هناك فارق أخلاقي موضوعي بين الإمبراطور نيرون والقديس فرانسيس العسيسي. على أنني لا أستطيع إلا أن أشعر، لورد رسل، وكما تعلم، بأنك تنظر إلى سلوك القائد في بلسن على أنه مدان أخلاقياً وأنك أنت نفسك لن تعمل، تحت أي ظرف من الظروف، بتلك الطريقة، حتى لو فكرت أو كان لديك ما يدعوك لأن تفكر أن توازن سعادة العرق البشري من المحتمل أن يزداد من خلال معاملتك لبعض الناس بذلك الأسلوب الفظيع.

- رسل: كلا، ما كان لي أن أقلد سلوك كلب مسعورٍ، لكن كوني لا أفعله لا يؤثر فعلاً على هذه المسألة.

- كوبلستون: كلا، لكن إذا كنت تقوم بتفسير نفعي للصواب والخطأ، من حيث النتائج، يمكن الاعتقاد بذلك، بل أنا أفترض أن بعض النازيين، من النمط الأفضل، قد يعتقدون أن اضطرارك للعمل بتلك الطريقة مقبول، رغم أنه مدان، إلا أن التوازن على المدى



الطويل سيؤدي إلى سعادة أكبر. أنا لا أظن أنك تقول هذا، أليس كذلك؟ أظن أنك تود القول إن ذلك النوع من الأعمال خطأ - وهو خطأ بذاته وبمعزل تماماً عما إذا كان الميزان العام للسعادة سيرجح أم لا. إذن، إذا كنت مستعداً لقول ذلك، فعليك، على ما أظن أن يكون لديك معيار ما للخطأ والصواب، خارج معيار الشعور. على أية حال. بالنسبة إلي، الإقرار بذلك سيؤدي في النهاية إلى الإقرار بالأساس النهائي للقيمة في الإثم ذاته.

- رسل: أظن أننا ربما نقع هنا في شيء من الارتباك. فأنا لا أحكم على العمل بالشعور المباشر تجاهه بل بالأحرى بالشعور تجاه آثاره. وليس بوسعي الإقرار بأي ظروف يمكن فيها لأنواع معينة من السلوك، كتلك التي مرت في المناقشة، أن تؤدي إلى الخير، كذلك ليس بوسعي أن أتصور ظروفاً قد تكون فيها ذات أثر خيّر، بل أظن أن الأشخاص الذين يفكرون على هذا النحو، إنما يخدعون أنفسهم. لكن إذا كانت هناك ظروف يكون لها فيها أثر خيِّر. حينذاك يمكن أن نكون مضطرين، مهما كان ذلك مثيراً للاشمئزاز، لأن نقول: «حسن، هذه أشياء لا أحبها، لكنني سأسلم بها» تماماً كما أسلم بقانون العقوبات، على الرغم من أنني أكره العقاب كرهاً شديداً.

- كوبلستون: ربما حان الوقت لأن أجمل موقفي الآن. لقد ناقشت أمرين: الأول أنه يمكن البرهنة على وجود الإله فلسفياً بواسطة الحجة الميتافيزيقية. الثاني: أن وجود الإله فقط هو الذي يعطي معنى لتجربة الإنسان الأخلاقية وتجربته الدينية. أنا، شخصياً، أظن أن أسلوبك بتبرير الأحكام الأخلاقية للإنسان يؤدي لا محالة إلى التناقض بين ما تتطلب نظريتك وبين أحكامك العفوية الخاصة. الأكثر من ذلك، أن نظرتك تفسر الواجب الأخلاقي باتجاه آخر، والتفسير



باتجاه آخر ليس تفسيراً. أما فيما يتعلق بالحجة الميتافيزيقية، فإننا متفقان، بكل جلاء على أن ما ندعوه العالم، يتكون بكل بساطة من أشياء محتملة الحدوث، أي من كائنات لا يستطيع أي منها أن يعلل وجوده بذاته. أنت تقول إن سلسلة الوقائع لا تحتاج لتعليل، أما أنا فأقول إذا لم يكن هناك كائن ضروري، أي كائن يجب أن يوجد ولا يمكنه ألا - يوجد، فلا شيء سيكون له وجود. إن سلسلة الكائنات المحتملة الحدوث بشكل لا نهائي، حتى لو تم البرهان عليها، فإنها غير ذات صلة بالأمر. ثمة شيء موجود، لذلك يجب أن يوجد ما يعلل هذه الحقيقة، كائن خارج سلسلة الأشياء المحتملة الحدوث. وإذا ما أقررت بهذا يمكننا بعد ذلك أن نناقش ما إذا كان ذلك الكائن شخصاً أو خيراً وهلم جراً. أما فيما يتعلق بالنقطة العملية موضع المناقشة، أي ما إذا كان هناك كائن ضروري أم لا، فإنني أجد نفسي، كما أظن، على اتفاق مع الغالبية العظمى من الفلاسفة الكلاسيكيين.

إنك تؤيد، على ما أظن، أن الكائنات الموجودة هي ببساطة موجودة، ولا مبرر لدي في طرح مسألة التعليل وجودها، لكن بودي أن أشير إلى أن هذا الموقف لا يمكن دعمه بالتحليل المنطقي. إنه يعبر عن فلسفة هي ذاتها بحاجة إلى برهان. كما أظن أننا وصلنا إلى طريق مسدود لأن أفكارنا عن الفلسفة مختلفة جذرياً. إذ يبدو لي أن ما أدعوه أنا جزءاً من الفلسفة، أنت تدعوه الكل بقدر ما هي الفلسفة عقلانية على الأقل. كذلك يبدو، إذا ما سمحت لي بقول هذا، أنه إلى جانب منظومتك المنطقية، - التي تدعوها أنت بـ «الحديثة» مقابل المنطق العتيق (وهي صفة متحيزة) - أنت تؤيد الفلسفة التي لا يمكن دعمها بالتحليل المنطقي. في النهاية، مشكلة وجود الإله هي



مشكلة وجودية، حيث التحليل المنطقي لا يتعامل مباشرة مع مشاكل الوجود. وهكذا، يبدو لي أن القول بأن المصطلحات المتعلقة بمجموعة معينة من المشاكل هي بلا معنى لأنها ليست مطلوبة عند التعامل مع مجموعة أخرى من المشاكل، هو نوع من الإقرار، منذ البداية، بطبيعة الفلسفة ونطاقها وأن ذلك بحد ذاته عمل فلسفي يظل بحاجة لتبرير.

- رسل: حسن، بودي أن أقول بضع كلمات على سبيل التلخيص من جانبي. أولاً، فيما يتعلق بالحجة الميتافيزيقية، أنا لا أقر بمضامين مصطلح مثل «محتمل الحدوث» أو إمكانية التعليل بالمعنى الذي أورده الأخ كوبلستون. فكلمة «محتمل الحدوث»، على ما أظن، توحي حتماً باحتمال وجود شيء ما لا يمكن أن يكون له ما ندعوه بالماهية المرضية لكائن موجود تماماً وأنا لا أظن أنه صحيح، إلا بالمعنى السببي الخالص. إن بإمكانك أن تعطي أحياناً تعليلاً سببياً لشيء ما، باعتباره نتيجة لشيء آخر، لكن هذا مجرد إرجاع شيء إلى شيء آخر وليس هناك - حسب رأيي - تعليل، بالمعنى الذي قصده الأخ كوبلستون، لأي شيء على الإطلاق. كذلك ليس هناك أي معنى في دعوة الأشياء بأنها «محتملة الحدوث» إذ ليس هناك شيء آخر يمكن أن تكونه. هذا ما ينبغي أن أقوله حول ذلك، لكن بودي أن أقول بضع كلمات أخرى حول الاتهام الذي وجهه الأخ كوبلستون بأنني أعتبر أن المنطق هو كل الفلسفة - والأمر ليس كذلك على الإطلاق. فأنا لا أعتبر المنطق كل الفلسفة بتاتاً. بل أفكر أن المنطق هو جزء أساسي من الفلسفة، كما يتعين علينا أن نستفيد من المنطق في الفلسفة. في هذه النقطة أظن أنني وهو متفقان. فعندما كان المنطق الذي يستخدمه الآن جديداً - أي بالتحديد في زمن أرسطو - أثير



حوله الكثير من الصخب بل إن أرسطو نفسه أثار حوله الكثير من الصخب. هذه الأيام، أصبح ذلك المنطق قديماً ومحترماً، ولا يتعين عليك أن تثير الكثير من الصخب والضجيج حوله. إن المنطق الذي أؤمن به هو جديد نسبياً، ولذلك علي أن أحاكي أرسطو في إثارة الصخب حوله لكنه ليس كل الفلسفة، حسب رأيي، على الإطلاق - أي أنني لا أفكر هكذا أبداً. هو، حسب رأيي، جزء هام من الفلسفة، وحين أقول هذا، لا أجد معنى لهذه الكلمة أو تلك. ذلك موقف تفصيلي يقوم بالأساس على ما اكتشفته حول تلك الكلمة بعينها، من تفكيري بها، إذ ليس بالموقف العام أن كل الكلمات التي تستخدم في الميتافيزيق هي هراء أو أي شيء من هذا القبيل، وهو ما لا أعتقد به حقاً.

أما فيما يخص الحجة الأخلاقية فأرى أنه عندما يدرس المرء الأنثروبولوجيا أو التاريخ يجد أناساً كانوا يفكرون أن من واجبهم أن يقوموا بأعمال فظيعة، حسب رأيي، لذا ليس باستطاعتي، بالتأكيد أن أعزو مسألة الواجب الأخلاقي إلى أنها ذات منشأ سماوي. وهو ما لم يطلبه مني الأخ كوبلستون، لكنني أظن حتى الواجب الأخلاقي، عندما يتخذ شكل الإلزام بأن تأكل أباك أو أمك، لا يبدو لي شيئاً جميلاً ونبيلاً كثيراً، لذلك لا يمكن أن أعزو إلى المنشأ السماوي مثل هذا الواجب الأخلاقي الذي يمكن بسهولة تامة، على ما أظن، تعليله بطرق أخرى مختلفة تماماً.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع عشر

هل يمكن للدين أن يحل مشاكلنا؟[1]

1

الجنس البشري مهدد بخطر الفناء، والخوف الآن، كما في الماضي، يدفع الناس لأن يبحثوا عن ملاذ لدى الإله، ففي الغرب كله، ثمة انتعاش عام للدين. لقد شطب النازيون والشيوعيون المسيحية كما فعلوا أشياء يؤسف لها. ومن اليسير أن يستنتج بعضهم أن رفض هتلر والسوفييت الاعتراف بالمسيحية هو، جزئياً على الأقل، سبب مشاكلنا وأنه إذا ما عاد العالم إلى المسيحية، فإن مشاكلنا الدولية ستحل. أنا أعتقد أن هذا مجرد وهم نام ناجم عن الرعب، وأظن أنه وهم خطير لأنه يضلل الناس الذين يمكن أن يكون تفكيرهم، لولا ذلك، مثمراً، وبذلك يقف في طريق الحل الصحيح.

المسألة ذات العلاقة ليست فقط معنية بالحالة الراهنة للعالم، إنها مسألة أعم من ذلك بكثير وهي المسألة التي كانت موضع نقاش لقرون عديدة. إنها مسألة ما إذا كانت المجتمعات تستطيع أن تطبق نمطاً كافياً وافياً من الأخلاق دون مساعدة من الدين الدوغماتي أم لا، أنا نفسي لا أظن أن اعتماد الأخلاق على الدين وثيق بالقدر الذي يظنه الناس المتدينون، بل أفكر أن بعض الفضائل الهامة جداً يحتمل

---

(1) جزءا هذه المقالة نشرا بالأصل كمقالتين في جريدة بستوكهولم في 9 و11 تشرين الثاني 1954.



أن توجد لدى أولئك الذين يرفضون العقائدية الدينية أكثر مما توجد لدى أولئك الذين يعتنقونها، كما أظن أن هذا ينطبق خصوصاً على فضيلة الصدق أو الأمانة الفكرية وأعني بالأمانة الفكرية أن نتعود البت بالمسائل المحيِّرة طبقاً للأدلة، أو تركها دون بت حيث تكون الأدلة غير حاسمة. هذه الفضيلة، رغم أن كل المتمسكين تقريباً بأي نظام عقائدي ينتقصون من قدرها، هي، برأيي، ذات أهمية اجتماعية كبرى للغاية، ومن المحتمل كثيراً جداً أن تفيد العالم أكثر من المسيحية أو أية منظومة أخرى من المعتقدات المنظمة.

دعنا نتأمل لحظة من الزمن كيف توصلت القواعد الأخلاقية لأن تكون مقبولة. القواعد الأخلاقية هي بصورة عامة نوعان:

قواعد لها أساس واضح من النفع الاجتماعي، وقواعد لا أساس لها سوى العقيدة الدينية. ففي الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، مثلاً، لا يجوز لعرابيْ الطفل ذاته أن يتزوجا. من الواضح أنه بالنسبة لهذه القاعدة لا أساس لها سوى الأساس اللاهوتي، وإذا كنت ترى أن هذه القاعدة هامة، ستكون محقاً تماماً حين تقول أن فساد الدين مستنكر لأنه سيؤدي إلى قواعد ستنتهك. لكن ليس هذا النوع من الأخلاق هو موضع البحث. إن القواعد الأخلاقية موضع البحث هي تلك التي تجد لها تبريراً اجتماعياً مستقلاً عن اللاهوت.

لنأخذ السرقة مثلاً. إن المجتمع الذي يسرق كل الناس فيه هو غير ملائم لكل الناس، ومن الواضح أن معظم الناس يمكنهم الحصول على نوع الحياة التي يرغبون فيها، إذا كانوا يعيشون في مجتمع، السرقة فيه نادرة. لكن في غياب القوانين والأخلاق والدين، تبرز صعوبة. فالمجتمع المثالي، بالنسبة لكل فرد، هو المجتمع الذي يكون فيه كل شخص آخر شريفاً وهو وحده لصاً. يتبع ذلك أن



المؤسسة الاجتماعية ضرورية، إذا كان لا بد من وجود نوع من التسوية بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. هذا يتحقق بصورة ناجحة تقريباً بفضل قانون العقوبات والشرطة. لكن المجرمين لا يتم الإمساك بهم دائماً والشرطة يمكن أن يتساهلوا على نحو غير ملائم تجاه القوي. وإذا كان بالإمكان إقناع الناس بأن هناك إلهاً سيعاقب على السرقة، حتى وإن أخفقت الشرطة في ذلك، سيبدو من المحتمل أن هذا الاعتقاد سيعزز الشرف، وعلى فرض أن مجموعة السكان تؤمن مسبقاً بالإله، فإنها ستكون مستعدة لأن تؤمن بأن الإله هو الذي منع السرقة. فائدة الدين في هذا المجال توضحها قصة كرم نابوث حيث اللص هو الملك، وهو فوق كل عدالة أرضية. على أنني لن أنكر أن اعتبارات كهذه في المجتمعات شبه - المتحضرة في الماضي، ربما ساعدت في تعزيز السلوك المرغوب اجتماعياً. لكن في الوقت الحاضر، مثل هذا الخير الذي يمكن فعله بأن تعزو الأخلاق إلى منشأ لاهوتي مرتبط ارتباطاً لا فكاك له بشرور خطيرة إلى حد يصبح معه الخير بالمقارنة لا أهمية له. إذ مع تقدم الحضارة يصبح المنع الأرضي أكثر ضماناً مما يشكله المنع السماوي. فالناس يرون أسباباً أكثر وأكثر لأن يفكروا بأنهم إذا ما قاموا بالسرقة ستقبض عليهم الشرطة وأسباباً أقل وأقل لأن يفكروا بأنهم إذا لم يتم القبض عليهم، فإن الإله، مع ذلك، سوف يعاقبهم، بل حتى الناس المتدينون جداً في الوقت الحاضر قلما يتوقعون أن يذهبوا إلى الجحيم من أجل سرقة. إنهم يفكرون أن باستطاعتهم أن يتوبوا مع الزمن وأن الجحيم، على أية حال، لا هي مؤكدة ولا حارة جداً كما يقال عنها عادة. إن معظم الناس في المجتمعات المتحضرة لا يسرقون والدافع المعتاد، على ما أظن، هو الاحتمال الكبير في أن يحل بهم العقاب هنا على الأرض. هذا توضحه حقيقة معروفة وهي أنه في مخيم تنقيب



عن الذهب أيام اندفاعة الذهب، أو في أي مجتمع غير منتظم كهذا، الجميع تقريباً يسرقون.

لكن، وعلى الرغم من أن المنع اللاهوتي للسرقة ربما لم يعد ضرورياً جداً، يمكن القول إنه، على أية حال غير ضار، نظراً لأننا كلنا نرغب في أن لا يسرق الناس. مع ذلك، المشكلة هي أنه حالياً يميل الناس للشك باللاهوت السائد، يتدعم هذا الشك، على ما يبدو بوسائل بغيضة وضارة. وإذا كان البعض يظنون أن اللاهوت ضروري للفضيلة وكان الباحثون الصريحون لا يرون سبباً للتفكير بأن اللاهوت صحيح فإن السلطات ستنطلق في العمل لإعاقة البحث الصريح. في القرون الماضية كانوا يفعلون ذلك بإلقاء الباحثين المتشككين في المحرقة وفي روسيا مازال لديهم وسائل أفضل قليلاً، أما في البلدان الغربية، فقد أنجزت السلطات أشكالاً من الإقناع ألطف نوعاً ما. من هذه الأشكال، قد تكون المدارس هي الأكثر أهمية: إذ يجب الحفاظ على الصغار ومنعهم من أن يسمعوا حججاً في صالح الآراء التي تكرهها السلطات. مع ذلك، فإن أولئك الذين يستمرون في إبداء نزعتهم نحو البحث والتساؤل سيقع عليهم الإزعاج من المجتمع وإذا أمكن، يدفعون للشعور بأنهم أخلاقياً موضع لوم وتقريع. بهذه الطريقة فإن أية منظومة للأخلاق لها أساس لاهوتي تصبح واحدة من الأدوات التي يحافظ بها أصحاب السلطة على سلطتهم ويساهمون في إضعاف قوة التفكير لدى الصغار.

إنني أجد، بين كثير من الناس في يومنا هذا، لا مبالاة تجاه الحقيقة، وهو أمر لا يسعني أن أفكر إلا أنه خطير للغاية. فحين يناقش الناس، مثلاً، دفاعاً عن المسيحية، لا يقدمون مثل توماس الأكويني، أسباباً داعية لافتراض أن هناك إلهاً وأنه عبّر عن إرادته



في الكتاب المقدس. بل يناقشون، بدلاً من ذلك، بأنه إذا فكر الناس بهذا، فإنهم سيتصرفون على نحو أفضل مما لو كانوا لا يفكرون. لذلك، ليس علينا - هكذا يجادل هؤلاء الناس - أن نسمح لأنفسنا بأن نخمن ما إذا كان الإله موجوداً أم غير موجود. وفي لحظة غفلة، إذا ما رفع الشك رأسه، علينا أن نقمعه بشدة. وإذا كان التفكير الصريح هو سبب الشك علينا أن نقضي على التفكير الحر الصريح. وإذا قال لك الأنصار الرسميون للتمسك القويم بالدين إن من الضلال أن تتزوج أخت زوجتك المتوفاة، فعليك أن تصدقهم خشية حدوث انهيار أخلاقي. وإذا قالوا لك أن تحديد النسل إثم يجب أن تقبل قولهم مهما يكن واضحاً بالنسبة لك أنه بدون تحديد النسل، فإن كارثة ستقع. وحالما يعتقد المرء بأن أي معتقد، بغض النظر عن ماهيته، هو مهم لأي سبب آخر سوى أنه صحيح فإن حشداً كاملاً من الشرور يكون على أهبة الاستعداد للظهور. إن تثبيط التساؤل، الذي تكلمت عنه من قبل، هو أول هذه الشرور لكن من المؤكد أن شروراً أخرى ستلحق به إذ ستكون مواقف السلطة مفتوحة للتمسك بالدين القويم، والسجلات التاريخية يجب أن تزور إن كانت تلقي بظلال الشك على الآراء المسلم بها. وعاجلاً أو آجلاً سيتم التوصل إلى اعتبار أي انحراف، ولو كان ضئيلاً، عن الدين القويم جريمة يجب أن تعالج بالحرق أو التطهير أو معسكرات الاعتقال. أنا أستطيع أن أحترم الناس الذين يحتجون بأن الدين صحيح، لذلك يجب الإيمان به، لكنني لا أشعر إلا بالاستنكار الأخلاقي الشديد تجاه أولئك الذين يقولون إن علينا أن نؤمن بالدين لأنه مفيد، وأن مجرد التساؤل عما إذا كان صحيحاً أم لا هو مضيعة للوقت.



من المألوف بين الدعاة للمسيحية أن ينظروا إلى الشيوعية على أنها مختلفة جداً عن المسيحية وأن يقابلوا شرورها بالبركات المفترضة التي تتمتع بها الأمم المسيحية. هذا يبدو لي خطأ كبيراً. فشرور الشيوعية هي ذات الشرور التي كانت موجودة لدى المسيحية خلال عصور الإيمان. وأجهزة الأمن السوفييتي تختلف كمياً فقط عن محاكم التفتيش. فظاعاتها هي من النوع ذاته والضرر الذي تلحقه بالحياة الفكرية والأخلاقية للروس أيضاً من النوع ذاته الذي ألحقته محاكم التفتيش بالناس حيثما سيطرت. الشيوعيون يزيفون التاريخ، ولقد فعلت الكنيسة الأمر ذاته حتى عصر النهضة. وإذا لم تكن الكنيسة الآن بالسوء الذي يظهر فيه الحكم السوفيتي، فذلك يعود إلى تأثير أولئك الذين هاجموا الكنيسة: بدءاً من مجلس ترينت وحتى الوقت الراهن، وأياً كانت التحسينات التي أدخلتها فإنما هي بفضل أعدائها. ثمة كثيرون يعترضون على الحكم السوفيتي لأنهم يكرهون العقيدة الاقتصادية الشيوعية لكن في هذه العقيدة يتشارك الكرملين مع المسيحيين الأوائل، مع الفرنسيسكان وغالبية الهراطقة المسيحيين في القرون الوسطى. كذلك لم تكن العقيدة الشيوعية محصورة بالهراطقة، فالسير توماس مور وهو شهيد الدين القويم. يتكلم عن المسيحية وكأنها شيوعية ويقول إن هذا هو المجال الوحيد للدين المسيحي الذي يوصله إلى المدينة الفاضلة. ليست العقيدة السوفيتية بذاتها هي التي يمكن النظر إليها، بعدالة، على أنها خطرة، بل هي الطريقة التي يؤمن أتباعها بها كعقيدة. إذ يؤمنون أنها مقدسة وأنها الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من أمام ولا من خلف، وأن الشك بها إثم يستحق أشد أنواع العقاب. كما يؤمن الشيوعي، شأنه شأن المسيحي، أن عقيدته أساسية لإيصاله إلى الخلاص وأن هذا الإيمان



هو الذي يجعل الخلاص ممكناً بالنسبة إليه. نقاط التشابه هذه بين الشيوعية والمسيحية هي التي تجعلهما متنافرتين لا تلتقي واحدة منهما بالأخرى. عندما يختلف رجلا علم، فإنهما لا يلجأان إلى السلاح، بل ينتظران مزيداً من الأدلة للبت بالقضية، لأنهما، كرجلي علم، يعلمان أن لا أحد منهما معصوم عن الخطأ، لكن حين يختلف لاهوتيان، ونظراً لأنه لا يوجد معايير يمكن لأي منهما أن يلجأ إليها، لن يكون أمامهما سوى الكراهية المتبادلة واللجوء العلني أو الخفي للقوة. ولسوف أقر هنا بأن المسيحية تسبب من الأذى الآن أقل مما كانت تفعله في الماضي، لكن هذا لأن الإيمان بها صار أقل حماسة. ربما، مع الزمن سيحدث التغيير ذاته بالنسبة للشيوعية، وإذا حدث، فإن العقيدة ستفقد الكثير مما يجعلها الآن بغيضة ذميمة. لكن إذا سادت في الغرب النظرة القائلة بأن المسيحية جوهرية بالنسبة للفضيلة وللاستقرار الاجتماعي، فإن المسيحية ستعود ثانية وتكتسب الرذائل التي كانت لها في العصور الوسطى ولسوف تصبح شبيهة أكثر فأكثر بالشيوعية. لهذا السبب سيصبح من الصعب أكثر فأكثر التصالح معها، وليس هذا هو الطريق الذي يمكن بالسير عليه إنقاذ العالم من الكارثة.

2

في مقالتي الأولى، كنت معنياً بالشرور الناجمة عن أية منظومة من العقائد تقدم ليقبلها الناس، لا على أساس صحتها بل على أساس منفعتها الاجتماعية. ما تعين علي قوله ينطبق بالتساوي على المسيحية، الشيوعية، الإسلام، البوذية، الهندوسية وكل النظم اللاهوتية إلا بقدر ما تعتمد على أسس تحقق قبولاً شاملاً من النوع الذي يتم على أيدي رجال العلم. مع ذلك، هناك حجج خاصة تقدم لصالح المسيحية انطلاقاً من قيمتها الخاصة المفترضة. لقد تم



تقديمها، بكثير من الفصاحة واستعراض للمعرفة الواسعة المكتسبة من الكتب، من قبل هربرت بترفيلد، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة كبريدج، ولسوف أعتبره الناطق باسم كتلة كبيرة من الآراء التي يتمسك بها.

يسعى البروفسور بترفيلد لأن يضمن بعض الفوائد الجدلية من خلال تنازلات يقدمها وتجعله يبدو منفتح الذهن أكثر مما هو في الواقع. إنه يقر بأن الكنيسة المسيحية كانت تمارس الاضطهاد وأن الضغط هو الذي أدى بها إلى أن تقلع عن تلك الممارسة، والذي لولاه ما كانت لتتخلى عنها. كما يقر بأن التوتر الحالي بين روسيا والغرب هو نتيجة سياسة النفوذ تماماً كما يمكن أن نتوقعه حتى لو كان الحكم في روسيا ظل متمسكاً بالأرثوذكسية اليونانية. إنه يقر أيضاً بأن بعض الفضائل التي يعتبرها مسيحية خالصة قد ظهرت لدى بعض المفكرين الأحرار، في حين كانت مفقودة لدى الكثير من المسيحيين المتزمتين. لكنه، على الرغم من هذه التنازلات، ظل يعتقد أن الشرور التي يعاني منها العالم لا يمكن الشفاء منها إلا بالتمسك بالعقيدة المسيحية، ومن ضمن ذلك الحد الأدنى الضروري من تلك العقيدة، ليس فقط الإيمان بالرب والخلود، بل أيضاً الإيمان بتجسد المسيح (أي تجسد الناسوت واللاهوت فيه)، كما يؤكد على ارتباط المسيحية بوقائع تاريخية معينة ويقبل تلك الوقائع على أنها تاريخية بالأدلة التي ما كانت لتقنعه لو لم تكن مرتبطة بدينه. أنا لا أظن أن الدليل على ميلاد المسيح من العذراء، بحد ذاته، يقنع أي مفكر غير متحيز، لو أنه قدِّم من خارج دائرة المعتقدات اللاهوتية التي اعتاد عليها. ثمة قصص لا عد لها ولا حصر في الأساطير الوثنية، لكن ما من قصة واحدة تحلم بأن يأخذها الناس على محمل الجد، مع ذلك، يبدو البروفسور بترفيلد، وعلى الرغم من أنه مؤرخ، كأنما هو غير مهتم



البتة بمسائل المصداقية التاريخية، حيث يتعلق الأمر بأصول المسيحية. فحجته، إذا جردت من تمدنه وهيئته المخادعة بأنه واسع - العقل، يمكن القول عنها بشكل صريح ودقيق ما يلي: «الأمر لا يستحق أن نضيع وقتنا في التساؤل عما إذا كان المسيح ولد فعلاً من عذراء وتم الحمل به من روح القدس أم لا، فسواء كانت هذه هي الحالة أم لا، فإن الاعتقاد بأن تلك هي الحالة يقدم أفضل أمل للخلاص من مشاكل العالم الراهنة». كما أنه لا يوجد في أي مكان من عمل البروفسور بترفيلد أدنى محاولة للبرهان على صحة أي من العقائد المسيحية. هنالك فقط الحجة الذرائعية بأن الإيمان بالعقيدة المسيحية مفيد كما أن هناك خطوات كبيرة في جدال بترفيلد لا تتم بكثير من الوضوح والدقة مثلما يرغب المرء، وإني لأخشى أن السبب هو ان الوضوح والدقة يجعلان جداله غير مقبول. فالجدال، إذا ما جرد من غير أساسياته يكون على ما أظن كما يلي: أمر حسن أن يحب الناس جيرانهم، لكنهم لا يبدون الكثير من الميل لأن يفعلوا ذلك، فالمسيح قال إن ذلك واجب وإذا ما كانوا يؤمنون أن المسيح هو الرب يحتمل أن يولوا اهتمامهم لتعاليمه حول هذه النقطة أكثر مما لو لم يكونوا، لهذا فإن من يرغبون بأن يحب الناس جيرانهم سيحاولون أن يقنعوا هؤلاء بأن المسيح هو الرب.

إن الاعتراضات على هذا النوع من المحاججة كثيرة إلى حد أنه من الصعب أن نعرف من أين نبدأ. في المقام الأول، البروفسور بترفيلد وكل من يفكرون على شاكلته مقتنعون بأنه أمر حسن أن تحب جارك، وأسباب اعتقادهم هذا ليس مستمداً من تعاليم المسيح، بل على العكس، لأنهم يحملون هذه النظرة مسبقاً وهي أنهم يعتبرون تعاليم المسيح دليلاً على ربوبيته. وإذا ما جاز لنا القول، فإن الأخلاق لديهم لا تقوم على اللاهوت بل اللاهوت يقوم على مبادئهم



الأخلاقية. مع ذلك هم يؤمنون ظاهرياً بأن الأسس غير اللاهوتية التي تجعلهم يفكرون أنه أمر حسن أن تحب جارك لا يحتمل أن تلقى قبولاً واسعاً، لذلك يمضون لاختراع حججٍ أخرى يأملون أن تكون أكثر فاعلية. هذا إجراء خطير جداً. إن كثيراً من البروتستانت يفكرون، عادة، أنه أمر سيء أن تنتهك قدسية يوم السبت وكأنك ترتكب جريمة قتل. فإذا أقنعتهم أنه ليس بالأمر السيئ أن تنتهك قدسية السبت، قد يستنتجون أنه ليس بالأمر السيئ أن ترتكب جريمة قتل. كل أخلاق لاهوتية يمكن جزئياً الدفاع عنها كما هي وبصورة عقلانية. وجزئياً، بأنها مجرد تجسيد للتحريمات الأسطورية. الجزء الذي يمكن الدفاع عنه عقلانياً يجب أن يتم الدفاع عنه هكذا، نظراً لأنه إن لم يحدث ذلك فإن من يكتشفون لا عقلانية الجزء الآخر قد يندفعون بشكل متهور لرفض الكل.

لكن هل المسيحية، بالحقيقة، دافعت عن الأخلاق على نحو أفضل من منافسيها وخصومها؟ أنا لا أرى كيف يمكن لأي دارس شريف للتاريخ أن يؤكد أن هذه هي الحالة. لقد تميزت المسيحية عن سواها من الأديان الأخرى بجاهزيتها الكبرى لممارسة الاضطهاد فيما البوذية، مثلاً، لم تكن ديناً اضطهادياً قط، وإمبراطورية الخلفاء كانت أكثر لطفاً في تعاملها مع اليهود والمسيحيين مما كانت الدول المسيحية تجاه اليهود والمسلمين. إذ تركت اليهود والمسيحيين دون أي إنزعاج أو مضايقة، شريطة أن يدفعوا الجزية. أما معاداة السامية فقد شددتها المسيحية منذ اللحظة التي أصبحت فيها الإمبراطورية الرومانية مسيحية. كما إن الحماسة الدينية لدى الصليبيين أدت إلى مذابح في أوروبا وآسيا. إنهم المسيحيون الذين اتهموا دريفوس اتهامات ظالمة والمفكرون الأحرار هم الذين ضمنوا إعادة تأهيله



أخيراً. وفي الأزمنة الحديثة دافع المسيحيون عن فظاعات جرت، ليس فقط حين كان اليهود الضحية، بل أيضاً في حالات أخرى. ففظاعات حكومة الملك ليوبولد في الكونغو أخفتها الكنيسة أو قللت كثيراً من شأنها ثم أنهيت أخيراً فقط بفضل الاضطرابات التي قادها بصورة رئيسية المفكرون الأحرار. وكل الجدال في أن للمسيحية تأثيراً أخلاقياً رافعاً يمكن فقط تأيده بالتجاهل الكلي أو التزييف الكلي للأدلة التاريخية.

إن الجواب المألوف عادة هو أن المسيحيين الذين ارتكبوا الأشياء التي يؤسف عليها لم يكونوا مسيحيين حقيقيين، بمعنى أنهم لم يتبعوا تعاليم المسيح. يمكن للمرء، طبعاً، أن يناقش بالتوازي أيضاً أن الحكومة السوفيتية لا تتكون من ماركسيين حقيقيين، لأن تعاليم ماركس تقول إن السلاف هم أدنى مرتبة من الجرمان، وهذه العقيدة لم يقبلها الكرملين. فأتباع عقيدة ما ينفصلون دائماً في بعض المجالات عن عقيدة المعلم. وأولئك الذين يهدفون إلى تأسيس كنيسة عليهم أن يتذكروا هذا. فكل كنيسة تطور غريزة الحفاظ - على - الذات وتخفض إلى أدنى حد تلك الأجزاء التابعة لعقيدة المؤسس التي لا تؤدي إلى تلك الغاية. لكن على أية حال، ما يدعوه المدافعون عن المسيحية «بالحقيقي»، أمر يعتمد على إجراء انتقائي للغاية، إنهم يتجاهلون الكثير مما هو موجود في أسفار الكتاب المقدس، مثال على ذلك، حكاية الغنم والماعز والاعتقاد بأن السيئ سيلقى العذاب الأبدي في الجحيم. إنهم يلتقطون أجزاء معينة من الموعظة على الجبل، رغم أنهم يرفضون عملياً حتى هذه الأجزاء كما يتركون عقيدة عدم - المقاومة، مثلاً، كي يمارسها غير المسيحيين، مثل غاندي، والمفاهيم التي يفضلونها على نحو خاص هي تلك التي يعتقدون أنها



تجسد الأخلاق الرفيعة إلى درجة أنها يجب أن تكون ذات منشأ سماوي. مع ذلك على البروفسور بترفيلد أن يعرف أن هذه المفاهيم نطق بها اليهود قبل زمن من مجيء المسيح. وهي موجودة، مثلاً، في تعاليم الخليل وفي العهد القديم للآباء الاثني عشر، أما الأب المحترم الدكتور هـ. تشارلز، وهو مرجع رئيس في هذه المسألة، فيقول: «الموعظة على الجبل تعكس في أمثلة عدة روح الكتاب بل تنتج من جديد عبارات نصنا بالحرف: إذ أن كثيراً من الفقرات في الأناجيل تظهر عليها آثار من النوع نفسه فيما القديس بولس استخدم الكتاب، على ما يبدو، كرفيق ملازم له». والدكتور تشارلز من الرأي القائل إن المسيح كان يعرف ولا بد ذلك العمل. وإذا كانت رفعة التعاليم الأخلاقية، كما يقال لنا أحياناً، تبرهن على ربوبية صاحبها، فإن الكاتب المجهول للعهد القديم هو الذي ينبغي أن يكون رباً.

وكون العالم صيغ صياغة سيئة أمر لا يمكن نكرانه، لكن ليس هناك أقل داعٍ في التاريخ لافتراض أن المسيحية تقدم طريقاً للخلاص. لقد انبثقت مشاكل، بقسوة التراجيديا الإغريقية التي لا ترحم، من الحرب العالمية الأولى، التي نتج عنها الشيوعيون والنازيون على حد سواء، والحرب العالمية الأولى هي ذات منشأ مسيحي كلياً، فالأباطرة الثلاثة كانوا ورعين، وكذلك كانت الوزارة البريطانية الأشد ميلاً للحرب. أما معارضة الحرب فقد جاءت في ألمانيا وروسيا، من الاشتراكيين الذين كانوا ضد المسيحيين، وفي فرنسا من جوريه، الذين بارك المسيحيون الأتقياء اغتياله، وفي إنكلترا من جون مورلي، وهو ملحد مشهور، في حين أن أخطر سمات الشيوعية هي تلك المتبقية من كنيسة العصور الوسطى. إنها تتكون من القبول المتعصب لعقائد مجسدة في «كتاب مقدس» ومن عدم الرغبة في تفحص هذه



العقائد وانتقادها وكذلك من الاضطهاد الوحشي لكل من يرفضها. لكن ليس بسبب إحياء التعصب والتزمت في الغرب يتوجب علينا أن نبحث عن قضية السعادة. فتعصب كهذا، إذا حدث، سيعني فقط أن السمات البغيضة للنظام الشيوعي أصبحت عامة شاملة. ما يحتاجه العالم اليوم إنما هو الحصافة، التسامح، وتحقيق التكافل بين أعضاء الأسرة البشرية. هذا التكافل تزيده الاختراعات الحديثة إلى حد كبير. كذلك أن تكون الذرائع العالمية الخالصة لموقف ودي تجاه الجار أقوى بكثير مما كانت عليه في أي وقت سابق. مثل هذه الاعتبارات هي التي ينبغي أن نتطلع إليها، لا أن نعود إلى الأساطير الظلامية. فالتفكير، كما يقال، هو الذي سبب مشاكلنا لكن ليس عدم التفكير هو الذي يحلها لنا. بل إن المزيد من التفكير والحكمة فقط يمكن أن يجعل العالم أكثر سعادة.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخمس عشر

الدين والأخلاق[1]

يقول كثير من الناس لنا إنه بدون الإيمان بالإله لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً ولا فاضلاً. بالنسبة إلى الفضيلة، يمكنني أن أتكلم فقط انطلاقاً من المشاهدة وليس من التجربة الشخصية أما بالنسبة إلى السعادة، فلا المشاهدة ولا التجربة قادتاني إلى التفكير بأن المؤمنين أسعد أو أشقى، بصورة عامة، من غير المؤمنين. إن من المألوف أن نجد أسباباً «كبرى» للشقاء، لأن من الأسهل على المرء أن يفتخر، إذا ما كان باستطاعته أن يعزو شقاءه للافتقار للإيمان، بدلاً من أن يعزوه للكبد. أما بالنسبة إلى الأخلاق فإن قدراً كبيراً منها يتوقف على الكيفية التي نفهم بها هذا المصطلح. من جهتي، أعتقد أن أهم الفضائل: اللطف والعقل. العقل تعوّق عمله العقائد كلها، أياً كانت، واللطف يحول دونه الاعتقاد بالإثم والعقاب (وبالمناسبة، هذا الاعتقاد هو الوحيد الذي ورثته الحكومة السوفييتية من المسيحية الأرثوذكسية).

ثمة طرق عملية جديدة يمكن من خلالها للأخلاق التقليدية أن تتدخل بما هو مرغوب فيه اجتماعياً. إحدى هذه الطرق منع انتقال الأمراض التناسلية. لكن الأكثر أهمية هو تحديد عدد السكان. إن التحسينات التي أدخلها الطب جعلت هذه المسألة أكثر أهمية بكثير

(1) كتبت سنة 1952.



مما كانت من قبل. فإذا لم تغير الأمم والأعراق، التي ما تـزال غزيـرة الإنتاج كما كان البريطانيون قبل مائة عام، عادتهـا في هـذا المجـال، فلا أمل للجنس البشري في أن يتوقع سـوى الحـرب والفقـر المـدقع. وهذا أمر معروف لكل دارس عاقـل، لكـن لا يعتـرف الـدوغماتيون اللاهوتيون به.

أنا لا أعتقد أن اضمحلال الإيمان الدوغماتي يمكن أن يفعـل أي شيء سوى الخير. كما أقـر في الحـال بـأن نظمـاً دوغماتيـة جديـدة، كالنازية والشيوعية، هي أسوأ بكثير من النظم القديمة لكنها مـا كانـت لتستطيع أن تقبض على أذهـان النـاس لـو لم تكـن عـادات دوغماتيـة متزمتة قد غرست في تلك الأذهان أيام الشباب. فلغة ستالين مـا تـزال ملأى بالآثار المتبقية للمعهد اللاهوتي الذي تلت فيـه تدريبـه. أمـا مـا يحتاجـه العـالم اليـوم فليـس العقيـدة المتزمتـة، بـل موقـف التحقـق العلمي، يدعمه الاعتقاد بأن تعذيب الملايين أمر غـير مرغـوب فيـه، سواء أوقع على يد ستالين أم على يد آلهة متخيلة تشبه المؤمنين.



«ملحق»

كيف منع رسل من التدريس في كلية مدينة نيويورك

1

بعد تقاعد أستاذين للفلسفة هما موريس رافائيل كوهين وهاري أوفرستريت، عضوي قسم الفلسفة في كلية مدينة نيويورك، وكذلك موافقة إدارة الكلية على استدعاء فيلسوف بارز لملء أحد الشاغرين هذين، أوصى القسم بأن ترسل دعوة إلى برتراند رسل الذي كان حينذاك يدرس في جامعة كاليفورنيا. هذه التوصية أيدتها بحماسة شديدة الكلية، الرئيس التنفيذي، اللجنة الإدارية لهيئة التعليم العالي وأخيراً الهيئة التي توافق على التعيينات من هذا المستوى. إذ لا أحد ذا شهرة وتميز مقارنة ببرتراند رسل كان قد درس يوماً من الأيام في الكلية. تسعة عشر من أعضاء الهيئة الاثنين والعشرين حضروا الاجتماع الذي نوقش فيه التعيين وقد صوت التسعة عشر لصالحه. وحين قبل برتراند رسل الدعوة، أرسل له أوردوي تيد، رئيس الهيئة الرسالة التالية:

عزيزي الأستاذ رسل

بعميق الشعور بالتميز، أغتنم هذه الفرصة لإعلامك بتعيينك كأستاذ للفلسفة في كلية المدينة للفترة الواقعة بين 1 شباط 1941 و30 حزيران 1942، تبعاً للقرار الذي اتخذته هيئة التعليم العالي في اجتماعها المنعقد بتاريخ 26 شباط 1947. أنا أعلم أن موافقتك على



هذا التعيين ستضفي ألقاً على اسم وانجازات القسم والكلية كما أنها ستعمق وتوسع من اهتمام الكلية بالأسس الفلسفية للحياة البشرية.»

في الوقت ذاته، أصدر الرئيس التنفيذي، ميد، بياناً إلى وسائل الإعلام يقول إن الكلية انفردت بحسن الحظ في تأمين خدمات باحث مشهور عالمياً كاللورد رسل وذلك بتاريخ 24 شباط 1940.

ونظراً للتطورات اللاحقة، من الضروري أن نؤكد على حقيقتين: أن برتراند رسل كان سيدرس الفصول الدراسية الثلاثة التالية لا أكثر:

الفلسفة 13: دراسة المفاهيم الحديثة للمنطق وعلاقته بالعلوم، الرياضيات والفلسفة.

الفلسفة 24 ب: دراسة المشاكل القائمة في أسس الرياضيات.
الفلسفة 27: علاقات العلوم الصرفة بالعلوم التطبيقية والتأثير المتبادل بين الميتافيزيق والنظريات العلمية.

الأكثر من ذلك أنه في الوقت الذي تم فيه تعيين برتراند رسل، كان باستطاعة الرجال فقط أن يحضروا فصول الجلسات النهارية في مواضيع الفنون الحرة في كلية المدينة.

2

حين انتشر خبر تعيين رسل، كتب الأسقف مانينغ، أسقف الكنيسة الإبيسكوبية البروتستانتية، رسالة وجهها إلى كل جرائد نيويورك يشجب فيها قرار الهيئة. إذ كتب: «ماذا سيقال عن الكليات والجامعات التي تعين لشبابنا أستاذاً مسؤولاً عن الفلسفة... رجلاً دعاوياً مشهوراً معادياً لكل من الدين والأخلاق، بل يدافع خصيصاً عن الزنى... هل باستطاعة أحد يهتم بمصلحة بلدنا أن يرغب في أن يرى تعليماً كهذا ينتشر بتشجيع من كلياتنا وجامعاتنا؟»



بعد بضعة أيام، عاد الأسقف إلى الهجوم قائلاً: هناك من هم مرتبكون ومحتارون أخلاقياً وذهنياً إلى درجة أنهم لا يرون خطأ في تعيين... الرجل الذي قال في كتاباته المنشورة «خارج الرغبات البشرية، ليس هناك من معيار أخلاقي». بالمناسبة، يجب الملاحظة أن لو كان المطلوب، من أساتذة الفلسفة أن يرفضوا النسبية الأخلاقية بأشكالها المختلفة، كما أشار إلى ذلك مانينغ، فإن نصفهم أو أكثر كان سيتعين طردهم بالجملة.

لقد كانت رسالة الأسقف إشارة لانطلاق حملة ذم وتخويف لا نظير لها في التاريخ الأمريكي منذ أيام جفرسون وتوماس بين. لقد انضمت الصحف الإكليركية، صحافة هيرست وتقريباً كل سياسي ديموقراطي إلى جوقة تشويه السمعة. إذ قالت جريدة «اللوح». لقد جاء تعيين رسل صدمة فظيعة مهينة لسكان نيويورك الأصليين ولكل الأمريكيين الحقيقيين. ثم، مطالباً بإعادة النظر بالتعيين، وصف رئيس التحرير رسل بأنه «أستاذ الوثنية» وبأنه «الفوضوي الفلسفي والعدمي الأخلاقي في بريطانيا العظمى.... الذي أصبح دفاعه عن الزنى بغيضاً إلى حد أن أحد «أصدقائه»، كما يذكر، قد جلده. أما الأسبوعية الجزويتية «أمريكا»، فقد كانت أكثر تهذيباً، إذ أشارت إلى رسل على أنه «متجفف، مطلّق ومناصر منحط للاختلاط الجنسي.. يشرّب عقيدته الآن لطلاب جامعة كالفورنيا... من خلال نشر قواعده التحررية من أجل عيش منفلت في مسائل الجنس والحب غير الشرعي والزواج الضال... هذا الشخص الفاسد الذي خان «عقله» و«ضميره»... أستاذ اللا أخلاق واللا دين هذا... الذي نبذه الإنكليز البررة». على أن الرسائل التي وصلت إلى المحررين في هذه الدوريات كانت مسعورة أكثر أيضاً. فقد قالت إحداها في «اللوح» إذا



لم تلغ هيئة التعليم العالي قرارها، إذن الرمال المتحركة تهدد!! الحية في العشب والدودة منشغلة بالدماغ ولو كان رسل شريفاً حتى مع نفسه إذن لأعلن، كما فعل روسو «لا أستطيع النظر إلى أي من كتبي دون أن أرتجف، فبدلاً من أن تعلم، هي تفسد، وبدلاً من أن تغذي، هي تسمم. لكن العاطفة تعميني، ورغم كل خطاباتي الجميلة، ما أنا إلا وغد زنيم». هذه الرسالة كانت نسخة عن برقية أرسلت إلى رئيس البلدية لاغارديا: «أرجو من سيادتك أن تحمي شبابنا من تأثيره المؤذي هو وقلمه السام - قرد العبقرية، ووكيل الشيطان لدى الناس». في غضون ذلك، كان تشارلز تتل، عضو الهيئة وأحد الرعايا الرئيسيين للكنيسة الإبسكوبية البروتستانتية، قد أعلن أنه في الاجتماع التالي للهيئة في 18 آذار، سيتحرك لإعادة النظر بالتعيين. ولقد شرح تتل أنه لم يكن مطلعاً على وجهات نظر رسل وقت التعيين، ولو كان مطلعاً لصوّت ضده. وباعتبار أن الاجتماع كان وشيكاً، فإن المتعصبين بذلوا أقصى ما في وسعهم لإخافة أعضاء الهيئة وتوسيع قائمة الذنوب التي ارتكبها رسل. لقد قال وينفيلد ديماريست من عصبة الشباب الأمريكي «جماعتنا لا تفضل فكرة رسل عن المهاجع التعليمية المختلطة»، طالباً التحقيق مع هيئة التعليم العالي، أما جريدة هيرست فقد أكدت أن رسل كان يفضل «مشاعية النساء... وإنجاب الأطفال خارج فراش الزوجية... وأن يربّى الأطفال كبيادق لدى دولة لا تؤمن بإله». ثم بحيلة ماكرة عمدت إليها لاقتباس شيء من سياق كتاب كتب قبل سنوات كثيرة، وصمت رسل بوصمة المناصر للشيوعية، وعلى الرغم من معارضته المعروفة - جيداً للشيوعية السوفيتية، فقد بات يشار إليه، منذئذ فصاعداً بأنه «مؤيد - الشيوعية» من قبل المتحمسين. ولعله لم يكن من سمات حمله.



الكراهية كلها تلك، أبشع من هذه الصورة الزائفة التي رسمت له عمداً. نتيجة ذلك قامت تحركات يومية تطالب بطرد رسل، وبصورة عامة أيضاً، طرد أعضاء الهيئة الذين صوتوا لصالح تعيينه، وذلك من قبل منظمات عديدة مشهورة باهتمامها بالتعليم مثل «أبناء إكزافير»، فرع نيويورك للكنيسة المركزية الكاثوليكية في أمريكا، «النظام القديم للعبرانيين»، «فرسان كولومبس»، نقابة المحامين الكاثوليك وهيئات ومنظمات أخرى عديدة.. وقد سجلت الصحف هذه التحركات جنباً إلى جنب مع خطب شديدة اللهجة من جانب رجال الأكليريك الذين تركزت هجماتهم أكثر فأكثر على تهمتين - أن رسل أجنبي ولذلك يمنع قانوناً من التعليم في الكلية، وأن وجهات نظره حول الجنس هي محفزات فعلية، وبشكل من الأشكال، للجريمة. لقد كتب القس جون شولتز، أستاذ البلاغة المقدسة في المدرسة الثانوية في إيسويس مطالباً: «لماذا لا تأتي هيئة التعليم العليا بالناس المحترمين؟» ثم يمضي قدماً «الشباب في هذه المدينة يتعلمون أنه لا يوجد شيء كالكذب. كما يتعلمون أن السرقة مبررة وكذلك السطو والسلب والنهب. كذلك يتعلمون، مثلما تعلم لويب وليوبولد في جامعة شيكاغو، أن الجريمة الفظيعة إلى حد لا إنساني، هي مبررة أيضاً. وغني عن القول أن هذه الأمور المخيفة كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتعيين برتراند رسل - العقل المثال للحب الحر، للاختلاط الجنسي بين الشبان، ولكراهية الآباء والأمهات. وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، فقد تم الربط بين رسل و«برك الدم» من قبل خطيب آخر. كذلك ذكّر، وهو يتكلم في الإفطار السنوي العام لهيئة الاسم المقدس لقسم شرطة نيويورك، المونسنيور فرانسيس والش، الشرطة المجتمعين بأنهم عرفوا في إحدى المناسبات المعنى الكامل لما يدعى



«بالمثلث الزوجي» حين وجدوا إحدى زوايا المثلث في بركة من الدم. «لذا يمكنني القول» تابع الرجل «إنكم ستنضمون إلي للمطالبة بأن أي مدرس أو أستاذ مدان بممارسته تعليم أو كتابة أفكار تضاعف المسارح التي تقدم مثل هذه المآسي، لن يسمح له بالتدريس في هذه المدينة ولن يجد أي دعم من دافعي الضرائب فيها».

ورغم أن رئيس البلدية لاغارديا بقي صامتاً بصورة مدروسة، فإن العديد من سياسيي «تاماني» بدؤوا العمل. لقد كشف جون ماك غوهي بصورة جيدة فهمهم للحرية الأكاديمية، وهو الوكيل الأول لنيابة منطقة نيويورك ورئيس منظمة «أبناء إكسفيير» (الآن هو القاضي ماكغوهي)، الذي احتج على استخدام أموال دافعي الضرائب «لدفع رواتب أساتذة فلسفة تنكر وجود الإله وتتحدى العفة والحشمة، كما تتناقض تماماً مع الماهية الدينية الأساسية لبلادنا، حكومتنا، وشعبنا». في 15 آذار، وقبل ثلاثة أيام من انعقاد اجتماع الهيئة، قام جيمس ليونز، وهو رئيس البرونكس وأحد كبار المفتشين، بحركة في مجلس المدينة تدعو الهيئة إلى إلغاء تعيين رسل. وقد أتت الحركة أكلها بتصويت 14 مقابل 5 لصالح ذلك الإلغاء. لكن لا بد من أن نسجل، كشهادة على شجاعته الدائمة ولا مبالاته تجاه عواطف الرعاع، أن الجمهوري ستانلي إسحق تكلم بشدة دفاعاً عن رسل وهيئة التعليم العالي. غير أن ليونز، إضافة إلى تقديمه مشروع القرار، فقد أعلن أنه في نهاية مناقشة الميزانية التالية سيتحرك «لكي يضرب الخط الذي يوفر التعويض الخاص بهذا التعيين الخطير. مع ذلك كان ليونز لطيفاً بالمقارنة مع رئيس هارفي الذي أعلن في حشد جماهيري أنه إذا لم يطرد رسل فإنه سيتحرك لشطب كامل مخصصات الـ 1941، وهي 7.5 مليون دولار، من أجل تمويل جامعات المدينة، وإن سار الأمر على هذا النحو، كما قال «فإن



الكليات ستكون إما كليات أمريكية تؤمن بوجود الإله أو أنها ستغلق»، ولقد تم سماع خطباء بارزين ومحترمين آخرين في اجتماع الاحتجاج ذاته. إذ بعد الإشارة إلى رسل «ككلب»، لاحظ عضو المجلس تشارلز كيفان أنه «لو كان لدينا نظام هجرة صالح، فإن ذلك المتبطل السكير ما كان ليقرب البلاد عن بعد ألف ميل». لكن الآن وقد حل في البلاد، فإن الآنسة مرثا بيرنز، أمينة سجل المنطقة أخبرت الحضور ما ينبغي فعله مع ذلك «الكلب». إذ صرخت: «رسل يجب أن يطلى بالقطران والريش ويطرد خارج البلاد». وهذا باعتقادي، ما كان يعنيه الخطباء بالطريقة «الإلهية» و«الأمريكية».

3

لكن إن كان المتحمسون أقوياء على صعيد السياسة المحلية، فإن داعمي التعليم المستقل كانوا أقوياء على صعيد الكليات والجامعات الرئيسية في أنحاء البلاد كافة. وهكذا، إلى جانب الدفاع عن رسل، انحاز رؤساء كليات عديدون بما فيهم غيدونس من بروكلين، هتشنيز من شيكاغو حيث كان رسل قد درّس السنة السابقة، غراهام من كارولاينا الشمالية الذي أصبح فيما بعد عضو مجلس شيوخ، نيلسون من سميث... إلخ قائمة طويلة وعلى الأخص سبراول من جامعة كاليفورنيا، حيث كان رسل في الحين ذاته «يغرس في أذهان الطلاب مبادئه التحررية الخاصة بالحياة المنفلتة فيما يتعلق بمسائل الجنس والحب المختلط وغير الشرعي». كذلك من أجل الدفاع عن رسل، تجمع الرؤساء الحاليون والسابقون للهيئات العلمية، نيكلسون من رابطة «في بيتاكابا»، هانكينز من رابطة النفسانيين الأمريكان، لوفجوي من جونز هوبكنز...إلخ، أما شليزنجر من هارفارد فقد بعث برسالة إلى رئيس البلدية لاغارديا، محتجاً على



«الحملة المنظمة على تعيين الفيلسوف المشهور عالمياً برتراند رسل..» وإذا نجحت الحملة، ما من كلية أو جامعة أمريكية ستسلم من السيطرة التفتيشية التي يمثلها أعضاء البحث الحر... وأن نتلقى العلم من شخص من العيار الفكري لبرتراند رسل هو امتياز نادر للطلاب في أي مكان.. وعلى نقاده أن يقابلوه في مناظرة مفتوحة وعادلة للنقاش الفكري والتحليل العلمي. إذ ليس لهم حق في أن يسكتوه بمنعه من التعليم... إن القضية أساسية إلى حد لا يمكن معه المصالحة دون أن نعرض للخطر البنية الكاملة للحرية الفكرية التي تقوم عليها الحياة الجامعية الأمريكية». كذلك فإن وايتهيد، ديوي، شابلي، كاسنر، آينشتاين.. وكل الفلاسفة والعلماء المشهورين في البلاد مضوا ليسجلوا دعمهم لتعيين رسل. «فالأرواح العظيمة»، لاحظ آينشتين «تجد دائماً معارضة من الأشخاص متوسطي المقدرة. فهؤلاء لا يستطيعون أن يفهموا الأمر حين لا يخضع الإنسان دون تفكير للتعصبات المتوارثة لكنه بشجاعة وشرف يستخدم عقله». لم ينحصر دعم رسل البتة بالجماعات الأكاديمية. فتعيين الرجل واستقلال السلطة التي عينته كانا بالطبع بمصادقة «اتحاد الحريات المدنية الأمريكية» و«لجنة الحرية الثقافية» التي كان رئيسها في ذلك الحين سيدني هوك. كذلك صف إلى جانب رسل كل الناطقين الرئيسيين باسم الجماعات الدينية الأكثر تحرراً بما فيهم رابي وايز، البروفسور بيكسلر من هارفارد، مدير المجلس الوطني الخاص بالدين والتعليم، إلى آخر القائمة التي تطول كثيراً، غير أن دونالد بريس من هاركورت بريس أصدر بياناً يمدح اختيار رسل باعتباره «الشخص الذي يعكس فقط الاستحقاق الأكبر لهيئة التعليم العالي». ثم يتكلم عن «إنجازات رسل اللامعة في الفلسفة» وصفاته الرفيعة



كمربٍ. كما أعلن الناشرون أنها «ستكون خسارة للطلاب في مدينة نيويورك ألا ينتفعوا من تعيينه». ثم تابعوا كناشرين «نحن شخصياً لا نشارك بالضرورة في كل وجهات نظر أولئك الذين ننشر لهم كتباً، لكننا نرحب بالعقول الكبيرة أن تنضم لقوائمنا، خاصة الآن وفي الوقت الذي تكسب فيه قوى البهيمية والجهالة مثل هذا الصعود فوق العقل والفكر في أنحاء كثيرة من العالم. إننا نعتقد أنه سيكون أكثر أهمية أن نكرم النخبة الفكرية حيثما تتاح لنا الفرصة لفعل ذلك». مثل هذه العواطف تم التعبير عنها أيضاً من قبل «أسبوعية الناشرين» و«الهيرالد تريبيون النيويوركية، في افتتاحيات رؤساء التحرير وكذلك من قبل دوروثي ثومبسون في زاويتها «في السجل» إذ كتبت: «ليس اللورد رسل لا أخلاقياً، وكل من يعرفه يدرك أنه رجل يتمتع بالكمال الشخصي والفكري الأروع».

في كلية المدينة ذاتها كان ثمة استياء شديد، بين الطلاب والأساتذة على حد سواء، من التدخل الاكليركي والسياسي في شؤون الكلية، وفي اجتماع جماهيري في القاعة الكبرى، قارن الأستاذ موريس كوهن وضع رسل بوضع سقراط. إذ قال: «إذا كان تعيين رسل سيرفض، فإن الاسم الجميل لمدينتنا سيعاني كما عانت أثينا حين تم الحكم على سقراط بأنه يفسد شبابها أو تنيسي حين حكمت على سكوبز بتهمة تعليم التطور». وفي الاجتماع نفسه، شجب الأستاذ هرمان راندال، وهو مؤرخ متميز للفلسفة كما أنه رجل دين، معارضة رجال الكنيسة لتعيين رسل باعتبارها «وقاحة خالصة»، و«صفاقة شديدة». كذلك وقع ثلاثمائة من أعضاء الهيئة التعليمية في الكلية رسالة تبارك وتهنئ هيئة التعليم العالي على ذلك التعيين الرائع. في حين لم يكن آباء الطلاب في الكلية خائفين من احتمال تعرض أولادهم للتأثير



المفسد للعقل المعلم «للحب الحر». وعلى الرغم من أن معظم خصوم رسل عرضوا أنفسهم كناطقين باسم «الآباء المساء إليهم»، فإن رابطة الآباء لكلية المدينة صوتت بالإجماع لصالح قرار الهيئة.

4

نتيجة لصرخات المتحمسين وتهديداتهم، فقد بعض أعضاء الهيئة شجاعتهم. مع ذلك، وفي اجتماع 18 آذار، بقيت الأغلبية متمسكة بقناعاتها، فتم تثبيت التعيين مثار الجدل بتصويت 11 مقابل 7. غير أن المعارضة كانت تتوقع مثل هذه الهزيمة وكانت جاهزة للتحرك على كل الجبهات. ولكونها أخفقت حتى ذلك الحين في التوصل إلى إلغاء تعيين رسل لدى كلية المدينة، فقد حاولت منعه من التعليم في هارفارد، إذ كان رسل قد تلقى دعوة لإلقاء «محاضرات وليم جيمس» هناك في الفصل الخريفي لسنة 1940. في 24 آذار كتب توماس دورغان، «الوكيل التشريعي» لمدينة بوسطن، إلى الرئيس جيمس كونانت: «أنت تعلم أن رسل يدعو إلى الزواج الرفاقي وإلى حل الروابط التي تحافظ على السلوك الأخلاقي. لهذا أرجو أن تلاحظوا، أن تشغيل رجل كهذا إساءة كل مواطن أمريكي في ماساشوسيتز».

في الآن ذاته، طلب من المجلس التشريعي لولاية نيويورك أن يدعو هيئة التعليم العالي لأن تلغي تعيين رسل. ولقد قدم السيناتور فيلبز فيلبز، من ديموقراطيي مانهاتن، مشروع قرار يضع المجلس التشريعي على سجل من يؤمن بأن «نصير الأخلاق المنحطة شخص غير مناسب لاستلام مركز هام في المنظومة التعليمية في ولايتنا على حساب دافعي الضرائب». ثم تم تبني هذا القرار، وعلى حد علمي لم يرتفع صوت واحد معارضاً. ذلك القرار كان مقدمة لعمل أكثر فظاعة.



ذلك أن أحد عشر عضواً من هيئة التعليم العالي كانوا مصممين على تحدي أوامر التراتبية، إذ ينبغي معاقبة الهراطقة. وعليهم أن يعرفوا من هو صاحب السلطة الحقيقية في ولاية نيويورك، فقد قال السيناتور جون ديونيغان، وهو زعيم الأقلية، بانياً رأيه على بيانات الأسقف مانينغ وكانون، رئيس جامعة فوردهام، للمجلس التشريعي أن فلسفة رسل «تفسد الدين، الدولة والعلاقات الأسرية». كما تذمر من «النظريات المادية المنكرة لوجود الإله التي يؤمن بها أولئك الذين يتحكمون الآن بالنظام التعليمي لمدينة نيويورك». أما موقف الهيئة.. التي أصرت على تعيين رسل، رغم المعارضة العامة الكبيرة، كما ناقش السيناتور، «فهو مسألة تعني كثيراً هذا المجلس». ثم طالب بإجراء تفتيش شامل للمنظومة التعليمية في المدينة موضحاً أن مثل هذا التفتيش سيكون موجهاً بصورة رئيسية إلى المرافق الجامعية الخاضعة لهيئة التعليم العالي. مشروع قرار ديونيغان هذا تم تبنيه أيضاً مع بعض التعديل فقط.

لكن هذه كلها كانت مجرد مناوشات صغيرة. المناورة الرئيسية تم تنفيذها في نيويورك ذاتها. إذ أن سيدة تدعى جين كي من بروكلين، غير معروفة سابقاً باهتمامها بالقضايا العامة، سجلت التماساً من دافع ضرائب في المحكمة العليا لمدينة نيويورك لإلغاء تعيين رسل، على أساس أنه أجنبي ومناصر للا أخلاقية الجنسية، كما أعلنت أنها معنية بما يمكن أن يحدث لابنتها غلوريا، إن كانت ستصبح طالبة لدى برتراند رسل. لكن كون غلور ياكي ما كان باستطاعتها أن تصبح من طلاب رسل في كلية المدينة هو حقيقة لم تكن بكل وضوح ذات صلة بالأمر. فيما بعد قدم محامو السيدة كي أساسين آخرين لمنع تعيين برتراند رسل. فمن جهة، «هو لم يتقدم



إلى امتحان تنافسي»، ومن جهة أخرى، «من المناقض للسياسة العامة تعيين أي مدرس عقيدته الإلحاد».

السيدة كي هذه كان يمثلها محامٍ يدعى جوزيف غولدشتين وهذا كان، تحت إدارة تاماني السابقة للاغارديا، قاضياً في المدينة. لقد وصف غولدشتين، في موجزه، أعمال رسل بأنها «فاسقة، منحلة، شهوانية، سامة، مهووسة جنسياً. شبقة، غير محترمة، ضيقة - العقلِ، كاذبة وفاقدة للنسيج الأخلاقي». لكن هذا لم يكن كل شيء، فطبقاً لغولدشتين «كان رسل يرأس مستوطنة للتعري في إنكلترا. أولاده يعرضون أنفسهم عراة فيها وهو وزوجته يسيران عاريين أيضاً أمام الناس وهذا الرجل الذي يقارب الآن السبعين، كان يكتب الشعر الداعر، كما أن رسل يشير إلى اللواط، بل إنني أمضي أبعد وأقول إنه يوافق عليه». لكن حتى هذا لم يكن كل شيء. فغولدشتين، الذي كان يفترض أنه يقضي وقت فراغه في دراسة الفلسفة، توصل إلى حكم على ماهية عمل رسل. هذا الحكم المدمر هو التالي: «رسل ليس فيلسوفاً بالمعنى المقبول للكلمة، ليس محباً للفلسفة ولا باحثاً عن الحكمة، كما أنه ليس مكتشفاً لذلك العلم الشامل الذي يهدف إلى تفسير جميع ظواهر الكون بأسبابها النهائية، وأنه، في رأي شهود وعدد كبير من الأشخاص الآخرين، مجرد سفسطائي يمارس السفسطة، وباتباعه أساليب ماكرة ولجوئه للخداع والحيل والمراوغة المحض، يقدم حججاً قائمة على المغالطة، حججاً لا تدعمها أية محاكمة منطقية سليمة، كما أنه يخلص إلى استنتاجات غير مستمدة من مقدمات صحيحة، وأن كل معتقداته المزعومة التي يدعوها فلسفة، إن هي إلا أفكار بالية رخيصة، ومبهرجة تنم عن ذوق سقيم تماماً، معدة بهدف، واحد هو تضليل الناس».



بالنسبة إلى صحيفة «الديلي نيوز»، لا السيدة كي ولا زوجها ولا غولدشتين استطاعوا أن يقولوا من دفع تكاليف الدعوى. حتى تلك اللحظة، ظل رسل ممتنعاً عن أي تعليق ما عدا بياناً موجزاً في بداية الحملة ذاتها أصدره وقال فيه: «ليس لدي رغبة في أن أرد على هجوم الأسقف مانينغ. فكل من يقرر في شبابه أن يتكلم ويفكر بشرف، بعيداً عن أية عداوة وسوء تفسير، يتوقع هجمات كهذه، وسرعان ما يعلم أن من الأفضل أن يتجاهل مهاجميه»، لكن الآن وباعتبار أن الهجوم انتقل إلى محكمة قانونية، فقد شعر رسل أنه مضطر للإجابة كتابة. «لقد حافظت حتى الآن على صمت مطبق تقريباً في الجدال المتعلق بتعييني في كلية المدينة بما أنني لم أستطع الإقرار بأن آرائي كانت ذات صلة بالموضوع. لكن حين قدمت إلى المحكمة بيانات كاذبة إلى حد كبير، فيما يتعلق بأعمالي، أجد لزاماً علي أن أفند كذبهم. فأنا لم أرأس يوماً من الأيام مستوطنة للتعري في إنكلترا، ولم أعرض نفسي لا أنا ولا زوجتي بصورة عارية أمام الناس. كما لم أكتب شعراً فاسقاً. مثل هذه الأقوال كذب وافتراء محض يجب أن يعرف كل من ساهم فيه بأنه لا أساس له في الواقع. وإنه ليسرني أن تتاح لي الفرصة لأن أقسم اليمين على إنكار ذلك». هنا يجب أن يضاف أن رسل لم يكن يوافق قط على اللواط. لكن هذه نقطة سأناقشها بالتفصيل فيما بعد.

دعوى السيدة كي أقيمت أمام القاضي ماك غيهان الذي كان مرتبطاً بآلة برونكس الديموقراطية. هو الذي كان، قبل هذه القضية، ميّز نفسه بمحاولته أخذ صورة مارتين لوثر التي أبعدت من جدارية لدار القضاء توضح التاريخ القانوني. أما هيئة التعليم العالي، فكان يمثلها نيكولاس بوكشي، مساعد مجلس التعاون. وقد رفض بصورة مناسبة تماماً أن يجر إلى مناقشة آراء رسل المسيئة وإلى عدم كفاءته



كفيلسوف. إذ حصر دفاعه بالنقطة ذات العلاقة قانونياً فقط في الدعوى - أي أنه أجنبي ولا يمكن تعيين أجنبي في مركز في كلية المدينة. لقد أنكر بوكشي أن هذه هي الحالة وتبعاً لذلك طلب حذفها. فأجاب ماك غيهان وبصورة تنذر بالسوء: إذا وجدت أن هذه الكتب تؤيد اتهامات لتماس فإنني سوف أقدم لقسم «أبيليت» ومحكمة الاستئناف شيئاً ما للتفكير به. والكتب المشار إليها هنا هي تلك التي قدمها غولدشتين لدعم اتهاماته. إنها «التعليم والحياة الصالحة»، «الزواج والأخلاق»، «التعليم والعالم الحديث» و«ما أؤمن به».

5

بعد يومين اثنين، أي في 30 آذار، كشف القاضي عن أفكاره. فبناء على «الأعراف والمعايير... التي هي قوانين الطبيعة وإله الطبيعة»، رفض الرجل تعيين رسل بل وصفه، شأنه شأن الخطباء الأكليريك من قبل، بأنه «إهانة لشعب مدينة نيويورك». ثم خلص إلى أن قرار الهيئة «يؤسس بالحقيقة كرسياً لقلة الاحتشام والبذاءة». وبفعله ذلك «هو يتصرف تصرفاً استبدادياً، نزواتياً، منتهكاً انتهاكاً مباشراً الصحة العامة والسلامة العامة وكذلك أخلاق الشعب وحقوق صاحب الدعوى هنا، المؤهل للحصول على أمر بسحب تعيين المدعو برتراند رسل» وطبقاً لجريدة «الصاندي ميرور». فإن القاضي أقر بأن حكمه كان «دناميتاً»، وأن ذهنه لم يكن ينظر إلى القانون وحده، إن نظر إليه أصلاً، فمن الواضح أيضاً من قول آخر له إن «هذا القرار وضع الأساس العملي للجنة التفتيش التشريعية وإنني أتجرأ وأقول إن اللجنة ستهتم باكتشاف كيف تم تعيين رسل بالأساس». لقد خلصت جريدة «الجمهورية الجديدة» إلى أن حكم ماك غيهان قد اتخذ بسرعة فوق بشرية. فيما ارتفع صوت جون ديوي



مشككاً بأن القاضي لم يقرأ كلمة واحدة من الكتب التي قدمها له غولدشتين كدليل. ما هو مؤكد أن الحكم أعلن عنه بكراهية لا تليق بحكم قضائي، إذ من المستحيل أن يستطيع ماك غيهان خلال يومين فقط أن يقوم بدراسة دقيقة لأربعة كتب إضافة إلى كتابة رأيه المطول. وكون القاضي لم يقم بأية محاولة، أياً كانت لحماية حقوق كل الأطراف، كما ينبغي على كل قاض ذي ضمير، أمر واضح من عدة معالم أخرى للقضية. فهو، مثلاً، لم يحاول أن يسمح لرسل بإنكار اتهامات غولدشتين، بل قبلها مباشرة ودون الكثير من الضجيج. كما أن ماك غيهان لم يعط الفرصة لرسل لأن يقول ما إذا كانت تفسيراته لوجهات نظر رسل صحيحة أم لا. ولم يحاول أن يتأكد ممّا إذا كان رسل ما يزال يؤمن بوجهات نظره تلك التي عبر عنها في كتب كتبت قبل ثماني إلى خمس عشرة سنة سابقة. كل هذا كان ينبغي أن يطلب من قبل المسؤولين الأساسيين عن الحشمة واللياقة العامة، إن لم يكن من قبل المحلفين أيضاً.

وكما رأينا، فإن السيد بوكشي، الذي كان يمثل هيئة التعلمي العالي، حدد نفسه في رده على تهمة الأجنبي فقط، لهذا، لم يعد بالإمكان قانونياً تعيين رسل في كلية المدينة. مع ذلك، فإن ماك غيهان بنى إلغاءه للتعيين بصورة أساسية على التهم الأخرى في دعوى السيدة كي، ولقد أصدر قراره دون إعطاء السيد بوكشي الفرصة للرد على التهم الأخرى. «فالمدافع»، كما قال القاضي «أعلم المحكمة أنه لن يقدم رداً». وهو ما أنكره بوكشي بشهادة خطية أقسم عليها اليمين، ولم يستطع أن يتحداه أحد. لقد أقسم بوكشي، على أن القاضي أفهمه بأنه سيسمح له بتقديم رد الهيئة بعد رفض طلبه بشطب الدعوى.



غير أن هذه الإشكالات الإجرائية لم تكن شيئاً بالمقارنة مع التشويهات والتشهيرات وكلمات القذف والطعن التي كان الحكم ذاته يتضمنها والتي تستحق أدق الدراسات. إنه يبين ما يمكن بكل وضوح أن يتم في وضح النهار، حتى في دولة ديموقراطية، إذا ما كان نصير متحمس قد توصل إلى مركز له سلطة قضائية ويشعر بنفسه مدعوماً من قبل سياسيين لهم نفوذهم. هنا، من الضروري أن نقتبس بشيء من التوسع فقرات من هذه الوثيقة المدهشة وإلا فإن القارئ لن يصدق أن شيئاً من هذا النوع قد حدث فعلاً. الأكثر من ذلك، أنه لا رغبة لدي في أن أحاكي ممارسة القاضي للتشويه من خلال اختيار اقتباسات خارج سياقها. لقد كشف القاضي ماك غيهان، كما سنرى، عن نفسه بأنه ممارس محترف لهذا الفن الخسيس وغالباً ما أفلح في جعل رسل يبدو وكأنه يناصر عكس ما كان فعلاً يدافع عنه. لقد ألغي التعيين بناء على ثلاثة أسس: أولها أن رسل أجنبي:

فطالبة الالتماس تجادل، في المقام الأول، بأن القسم 550 من قانون التعليم ينص على أنه «ما من شخص يمكن استخدامه أو تخويله في أن يعلّم في المدارس العامة للولاية إذا كان.... 3 - غير مواطن، وشروط هذا البند لن تنطبق، على أية حال، على معلم أجنبي تم استخدامه قبل الآن شريطة أن يكون مثل هذا المعلم قد تقدم بالطلب المستحق لأن يصبح مواطناً وأنه ضمن المدة المحددة قانونياً سيصبح مواطناً». ومن المتفق عليه أن رسل لم يكن مواطناً ولم يكن قد تقدم بطلب كي يصبح مواطناً. لقد جادل مجلس التعاون في أنه كان لديه وقت معقول بعد التعيين لكي يقدم الطلب. كما جادل أكثر بأن القسم لا ينطبق على المدرسين في كليات مدينة نيويورك، محتجاً بأنه لو كان ينطبق، فإن معظم المدرسين في كليات المدينة يكونون قد حصلوا على تعيينهم بصورة غير قانونية لأنهم ليسوا خريجي مدرسة



عادية رسمية وليس لديهم إجازات بالتدريس من المسؤول عن التعليم... ولا يبدو من المنطقي أن ذلك البند كان موجهاً لتغطية حالة مشابهة لحالة رسل الذي كان في هذه البلاد منذ حين من الزمن والذي لم يتقدم بأي طلب للمواطنة الذي كان من الواضح أنه، كما سيبدو فيما بعد، كان سيرفض الفقرة تنطبق بصورة عامة على «المدرسين والتلاميذ» ولا تنحصر بالمدارس الابتدائية والثانوية، لذلك، فإن المحكمة تعتقد أن رسل غير مؤهل لأن يعلم بسبب الشروط الواردة في هذا القسم، لكن القرار المتخذ هنا لم يقم فقط على هذا الأساس.

لا يحتاج المرء لأن يكون خبيراً كي يكتشف الثغرات القانونية في المحاكمة المنطقية للقاضي. فالكلام المذكور يشير بوضوح تام إلى المدارس العامة وليس إلى الكليات. وهو يحتوي قدراً كبيراً آخر من الشروط التي لا تنطبق أبداً على أساتذة الجامعة. لكن حتى في المدارس العامة، القانون يسمح للأجنبي بالتعليم إذا ما أعلن عن نيته في أن يصبح مواطناً. ورسل كان قد أمضى سنة تقريباً ليفعل ذلك، على أن ماك غيهان ليس له الحق في أن يزعم أن رسل لم يكن يريد أن يقدم طلباً للمواطنة، وليس له أي حق في أن يتكلم باسم سلطات مكتب الهجرة والتجنيس.

وبسبب هذا الاستغلال للسلطات فقط، فإن المحكمة العليا لم تستطع لأسباب مفهومة أن تؤيد حكم ماك غيهان. زد على ذلك أن إشاراته المهلهلة المستمرة إلى أن رسل كان رجلاً ذا «شخصية رديئة» ومداناً بالفساد الخلقي يمكن تقديره من حقيقة أخرى هي أن سلطات الهجرة لم تقم بأية محاولة، سواء قبل الحكم أو بعده، لترحيل رسل.

ثانياً، أعلن أن تعيين رسل باطل وملغى على أساس أنه لم يتوفر له فحص تنافسي:



المضمون الثاني لطالبة الالتماس هو أنه ما من امتحان من أي نوع قد جرى لبرتراند رسل وقت تعيينه، وهو ما يؤيده فحص الجلسة الرسمي للجنة الإدارية لكلية المدينة ولجنة التعليم العالي وقت تعيينه».

هذا القانون يتضمن شرطاً يقر بأن الفحص التنافسي قد لا يكون عملياً وأنه في أية حالة بعينها يترك لهيئة التعليم العالي أن تقرر ما إذا كان الأمر هكذا، وماك غيهان لم يكن يجهل هذا الشرط بتاتاً، لكن كان عليه أن يجد أن رسل غير مناسب مهما يكن الثمن. من هنا تم الالتفاف على هذا البند بالحجة البارعة التالية:

«على الرغم من أنه ليس من الضروري بالنسبة إلى هذه المحكمة أن تحكم على قرار هيئة التعليم العالي إجرائياً بافتراضها أن امتحاناً تنافسياً لمنصب أستاذ فلسفة في كلية المدينة غير قابل للتطبيق عملياً، فإن افتراضاً كهذا من قبل الهيئة يعتقد أنه غير مبرَّر، واعتباطي ونزواتي ويشكل انتهاكاً مباشراً لدستور ولاية نيويورك، ولو كان هناك شخص واحد فقط في العالم يعرف أي شيء عن الفلسفة والرياضيات وأن ذلك الشخص هو برتراند رسل، فإن دافعي الضرائب قد يتساءلون عن استخدامه دون امتحان، لكن من الصعب أن نصدق، نظراً للمبالغ الهائلة من المال التي تنفق على التعليم في أمريكا، أنه لا يوجد، حتى في أمريكا، شخص واحد يستحق أن يكون ملائماً للتعليم وللحياة العامة على حد سواء. فالجامعات والكليات الأخرى، سواء منها الرسمية أو الخاصة، تستطيع على ما يبدو أن تجد مواطنين أمريكيين لتستخدمهم، وأن نقول إن كلية مدينة نيويورك لم تستطع أن تستخدم أستاذاً للفلسفة بعد إجراء امتحان له من نوع ما هو زعم من قبل هيئة التعليم العالي بأن لديها السلطة لأن تفعل ذلك وهو ما ينكره



عليها سكان ولاية نيويورك في الدستور، إذ ما من مجلس تشريعي ولا هيئة يمكنها أن تخرق هذا الشرط».

وإنه لمن الصعب أن نأخذ على محمل الجد قول ماك غيهان إن الهيئة تصرفت بصورة لا مبرر لها، اعتباطية ونزواتية في عدم إخضاع رسل لامتحان تنافسي. كذلك من الصعب أكثر حتى، أن نفترض أن القاضي كان يؤيد هذا من قلبه. فإذا كان الفحص التنافسي فعلاً مطلباً قانونياً بالنسبة لمدرسي الكليات. إذن كل أستاذ في كل كلية رسمية ينبغي أن يطرد. وكل عضو من هيئة التعليم العالي ينبغي اتهامه بالقيام بتعيينات غير قانونية. كما أن المسؤول عن التعليم في ولاية نيويورك يجب أن يعاقب بسماحه لأساتذة كثيرين إلى هذا الحد بالتعليم بصورة غير قانونية. لكن الامتحان التنافسي، في أية واقعة، ليس مطلباً قانونياً وليس هناك شيء في القانون يمنع الهيئة من تقدير الظروف فيما إذا كان الامتحان قابلاً للتطبيق عملياً أو غير قابل في حالة الأجانب أكثر مما هو في حالة المواطنين. فحسب منطق ماك غيهان، يصبح التعاقد مع أساتذة أجانب متميزين صعباً جداً إذ يفترض في معظم الحالات أن هناك أمريكيين يمكنهم أن يملؤوا الشواغر بجدارة. والكل يعلمون أن كل المؤسسات الرئيسية للتعليم العالي في الولايات المتحدة تستخدم الأجانب بشكل نظامي. فقبل قانون هجرة ماك كران، كان هذا معترفاً به رسمياً من خلال إعفاء المعلمين الأجانب من الحصص المسموح بها عادة للهجرة ومن الملاحظ مؤخراً أن الفيلسوف الكاثوليكي المتميز جاك ماريتان قد تم تعيينه في أحد أقسام كليات المدينة، وعلى كل شخص عاقل أن يرحب بهذا التعيين، لكن على حد علمي، أن ماريتان أجنبي ولم يتقدم بطلب جنسية، كذلك لم يجر أحد له امتحاناً تنافسياً، ولم يتقدم أحد من دافعي الضرائب بدعوى



لإلغاء تعيينه، كما أتساءل كيف لماك غيهان أن يعامل بصورة جدية هذه الأسس إذا ما جعلت أساس دعوى في قضية ماريتان.

أما الأساس الثالث لرأيه، فقد قاربه القاضي بقدر كبير من الاستمتاع. إذ من الملاحظ أن نبرته كانت ما تزال متحفظة حريصة في ما يتعلق بالبندين الأولين، لكن ليس كذلك في الثالث، حين كان من الواجب الدفاع عن الأخلاق في وجه مفسد الشباب وداعميه المريبين في هيئة التعليم العالي. هنا، أصبح ماك غيهان صليبياً شرساً، وكما علق رسل فيما بعد «القاضي أرخى لنفسه العنان». لقد أصبح الرأي في هذه المرحلة مشوشاً إلى حد ما، والحجة العقلانية، على ضآلتها في الأقسام السابقة، قد تلاشت هنا كلياً. على أنه ليس من اليسير دائماً أن نبت بالأساس الذي بنى القاضي حكمه عليه لمنع رسل من التدريس، نظراً لأنه هو نفسه أقر وبصورة تثير الاستغراب أن قدراً كبيراً من ملاحظاته لم تكن ذات صلة بالقرار. مع ذلك، وما لا لبس فيه أن «شخصية رسل اللا أخلاقية» والطبيعة الداعرة لتعليمه كانت:

«الأسباب الكافية لدعم الالتماس ولمنح الموافقة على الطلب لكن، هناك أساس ثالث ترتكز عليه صاحبة الالتماس، يبدو، بالنسبة إلى المحكمة ملزماً على نحو أشد. فصاحبة الالتماس تحتج بأن تعيين برتراند رسل خرق للسياسة العامة للولاية وللأمة بسبب التعاليم الفاسقة واللا أخلاقية سيئة السمعة المنسوبة لبرتراند رسل، ولأن صاحبة الالتماس تقول إنه رجل ليس بالشخصية الأخلاقية الجيدة. لقد ناقش البعض أن حياة رسل الخاصة وكتاباته لا شأن لها البتة بتعيينه كأستاذ للفلسفة. كما ناقش البعض الآخر بأنه سيدرس الرياضيات. رغم ذلك، فإن تعيينه سيكون في قسم الفلسفة في كلية المدينة».



في هذا الاعتبار مضى القاضي إلى القول إنه «يشطب كلياً أية قضية تتعلق بتهجم رسل على الدين». وهذا كرم شديد من القاضي، كما ينبغي على المرء أن يعترف. لكن ربما من الجدير بنا الإشارة من حين إلى آخر إلى أنه، وعلى الرغم من سلطة أشخاص محترمين مثل عضو المجلس تشارلز كيغان والسيناتور فيلبز، فإن مدينة نيويورك جزء من الولايات المتحدة، الدولة العلمانية، وليست جزءاً من إسبانيا فرانكو أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة. على أية حال، كان القاضي مهيئاً لأن يبدي كل لين ممكن في مسألة انتقاد رسل للنظريات الدينية. لكن من جهة أخرى، كان من الضروري أن يتكلم بلغة أقسى: «... ثمة مبادئ أساسية معينة قامت عليها هذه الحكومة. فإذا ما تم تعيين معلم، لا يتمتع بحد ذاته بالشخصية الأخلاقية الصالحة، من قبل أية سلطة - يكون التعيين انتهاكاً لهذه المتطلبات الجوهرية. أحد هذه المتطلبات أن يكون المعلم ذا شخصية أخلاقية صالحة، والحقيقة هذا هو المطلب المفروض مسبقاً للتعيين في الخدمة العامة في المدينة أو الولاية، أو التقسيمات الفرعية السياسية أو الولايات المتحدة. هنا، ليس من حاجة للحجة للدفاع عن هذا المطلب، ولا حاجة للنص عليه في قانون التعليم، إنه موجود في طبيعة مهنة التعليم. ويفترض بالمعلمين ليس فقط أن يقدموا العلم للتلاميذ في الصف بل أن يكونوا قدوة تحتذى من قبل الطلاب الذين يعلمونهم. إن دافعي الضرائب في مدينة نيويورك ينفقون الملايين لدعم كليات المدينة. هذا المال لا ينفقونه ولا هو مخصص لاستخدام معلمين ليسوا ذوي شخصية أخلاقية صالحة. مع ذلك، هناك سلطة كافية في قانون التعليم لدعم هذا الرأي».



ولا بد من أن نلاحظ أنه على الرغم من تأكيداته العديدة خلال حكمه بأن رسل «شخصية لا أخلاقية»، فإن ماك غيهان لم يتلطف ويدرج في قائمة، تصرفات رسل الحقيقية أو المزعومة التي يفترض بها أن تدعم استنتاجاً كهذا. فمن المستحيل أن نكون متأكدين، مثلاً، ما إذا كان قد قبل تهمة غولدشتين بأن رسل وزوجته كانا يظهران عاريين أمام الناس أو أن رسل كان «يستمتع بالشعر الفاسق»، كذلك من المستحيل أيضاً أن نعرف ما إذا كان القاضي قد بنى استنتاجه على حبس رسل بسبب نزعته السلمية خلال الحرب العالمية الأولى، وهي ما كان غولدشتين وإيرلنديون كثيرون أيضاً، ليسوا معروفين حتى ذلك الحين كأبطال للمصالح الإمبريالية البريطانية، قد أصبحوا مهتاجين جداً بسببها. أنا لا أدري كيف يمكن لمحاكمة كهذه تتكون من بيانات تحط من القدر دون أن تعرض أية أدلة، أن تظهر للناس على أنها مباركة وحسنة التبصر «بالمعايير الإلهية». بالنسبة لأناس مثلي، أسوأ حظاً، يبدو لي ذلك لا أخلاقياً إلى درجة عالية، وإذا جاء ذلك التصرف من قاض، خلال أدائه لواجباته الرسمية، يبدو لي أنه إساءة خطيرة لمنصبه.

فشخصية رسل سيئة جداً لكن معتقداته أشد سوءاً حتى: «ذلك أن رأي صاحبة الالتماس بأن السيد رسل يعلم في كتبه المعتقدات اللا أخلاقية والداعرة، يدعمه بشكل كافٍ الكتب المسلّمة على أنها كتابة برتراند رسل والمقدمة كأدلة. هنا، ليس من الضروري أن نفصل حول الوساخات التي تحويها تلك الكتب، بيد أنه يكفي أن نسجل التالي، من كتابه «التعليم والعالم الحديث» الصفحتين 119، 120: «أنا على ثقة أن الحياة الجامعية ستكون أفضل، فكرياً وأخلاقياً على حد سواء، إذا كان معظم طلاب الجامعة يعيشون زيجات مؤقتة



بلا أطفال. هذا سيقدم حلاً للدافع الجنسي لا هو مقلق ولا هو سري، لا هو مستأجر بالمال ولا هو بالصدقة، بل هو من طبيعة لا تستغرق طويلاً من الوقت الذي ينبغي أن يعطى للعمل». ومن كتابه «الزواج والأخلاق» صفحة 165، 166: «من جهتي، ورغم أنني مقتنع تماماً أن الزواج الرفاقي سيكون خطوة في الاتجاه الصحيح وسيحمل الكثير من الخير، إلا أنني لا أظن أنه سيمضي بعيداً كفاية. كما أظن أن كل العلاقات الجنسية التي تشتمل على أطفال يجب النظر إليها على أنها شأن خاص محض وأنه إذا ما اختار رجل وامرأة أن يعيشا معاً دون إنجاب أطفال، فذلك شأنهما ولا علاقة لأحد به. كما لا أعتقد أن من المرغوب فيه أن أياً من الرجل أو المرأة يجب أن يدخل في علاقة زواج جدية بهدف التوصل إلى إنجاب أطفال دون أن يكون قد عاش تجربة جنسية سابقة». و«الأهية الخاصة المعطاة، في الوقت الراهن للزنى، أمر غير عقلاني البتة» (من مقالته: ما أؤمن به). ربما، لم يفصّل القاضي الوساخات التي تحويها كتب رسل لسبب بسيط هو أنه لم يكن فيها شيء من ذلك. فكما كتب جون ديوي في مقالته في جريدة «الأمة» إن الأشخاص الذين يمضون إلى كتابات رسل، إن وجد ناس كهؤلاء، بحثاً عن الوساخة والبذاءة سيُحبطون. فهذه الأشياء مفقودة إلى حد أن الأسلوب اللا مسؤول أخلاقياً والمفرط في تعصبه، ذاك الذي وجهت به الاتهامات للسيد رسل إنما يشكل سبباً جيداً للاعتقاد بأن من قدموا تلك الاتهامات إنما هم أصحاب نظرة للأخلاق استبدادية إلى حد أنهم، لو كانت بيدهم السلطة، لقمعوا كل نقاش ينتقد المعتقدات والممارسات التي يريدون فرضها على الآخرين. أما بالنسبة للغة القاضي - «الوساخة»، «كرسي عدم الاحتشام» وتعابير أخرى من العيار ذاته - فقد خلص عدة كتاب إلى



أنه لو كرر تلك الملاحظات خارج المحكمة، لكان سيتعرض للاتهام بتهمة القذف والتشهير.

لقد أدرك ماك غيهان، على ما يبدو، أن ما قدَّم حتى ذلك الحين حول رسل وتعاليمه لم يكن كافياً تماماً. صحيح أنه تم عرض معتقدات رسل على أنها فاسقة، لكن هذه الحقيقة بحد ذاتها لم تكن تعطي المحكمة الحق بالتدخل. ثمة حاجة لشيء آخر، شيء أكثر هولاً أو لنقل، أكثر دراماتيكية. لقد كان الوضع يدعو لعرض تخيلات إبداعية. وقد نهض القاضي للمهمة بصورة متألقة. إذ طرق، مثل المحترم الدكتور شولتز واختصاصيين آخرين في الفصاحة المقدسة، فكرة الربط بين رسل والتحريض على انتهاك القانون الجزائي. «إن القانون الجزائي في ولاية نيويورك هو العامل الأشد أهمية في حياة شعبنا. إننا، كمواطنين مقيمين في مدينتنا. ندخل ضمن نطاق حمايته، ولدى تعامله مع السلوك البشري، فإن بنود القانون الجزائي إزاء سلوك كهذا، مدان بحد ذاته كما هو هنا، يجب ألا تعامل بخفة أو يتم تجاهلها تماماً، إذ حتى لو افترضنا أن هيئة التعليم العالي تملك الحد الأعلى من السلطة التي تخول المجلس التشريعي تعيين مدرسيها، إلا أن عليها أن لا تنتهك القانون الجزائي أو تشجع على انتهاكه. وبما أنها تتصرف على نحو ترعى فيه أو تشجع انتهاكات القانون الجزائي، وبما أن تلك الأعمال تؤثر سلباً على الصحة والسلامة العامة والأخلاق، فإن قراراتها تعتبر باطلة ولا أثر قانونياً لها. إن لمحكمة العدل، بما تملك من سلطات متأصلة بها، الحق التشريعي الكامل في أن تحمي دافعي ضرائب مدينة نيويورك من أعمال كهذه قامت بها هيئة التعليم العالي».



بعد هذا الدفاع الرفيع - فكرياً عن القانون الجزائي، مضى القاضي بزخم واضح لذكر عدد من فقراته:

«يحدد القانون الجزائي لولاية نيويورك جريمة الخطف قائلاً: كل من يستخدم أو يؤدي عمله لأن تؤخذ أو تستخدم أنثى دون سن الثامنة عشرة، بغرض المضاجعة الجنسية من قبل شخص ليس بزوجها وكذلك من يحث أو يدفع أي أنثى غير متزوجة من أي عمر وذات شخصية عفيفة سابقاً، إلى أي مكان بغرض المضاجعة الجنسية يعد مرتكباً لجريمة الخطف ويعاقب بالحبس بما لا يزيد عن عشر سنوات. الأكثر من ذلك أن القانون الجزائي ينص على أنه حتى لو كان أحد الوالدين أو الوصي الذي له حق الوصاية القانونية على أنثى تحت السن الثامنة عشرة، ويوافق على أن يأخذها أي شخص لغرض المضاجعة الجنسية، فإنه ينتهك القانون ويعاقب بالحبس لمدة لا تزيد عن عشر سنوات. أما بالنسبة لجريمة الاغتصاب فإن القانون الجزائي ينص على أن الشخص الذي يمارس الفعل الجنسي مع أنثى ليست زوجته وتحت سن الثامنة عشرة، في ظروف لا ترتقي إلى فعل الاغتصاب من الدرجة الأولى، فإنه يعد مرتكباً لجرم الاغتصاب من الدرجة الثانية ويعاقب بالحبس لمدة لا تزيد عن عشر سنوات. والفقرة 100 من القانون الجزائي تعتبر الزنى إساءة جرمية. فيما الفقرة 2460 من القانون الجزائي تنص، بين أشياء أخرى، على أن أي شخص يحث أو يحاول أن يحث أي أنثى على الإقامة معه لأغراض غير أخلاقية يعد مرتكباً لجناية، وفي حال الإدانة يعاقب بالحبس لمدة لا تقل عن سنتين ولا تزيد عن عشرين سنة وبغرامة لا تزيد عن 5000 دولار».

من هذه الفقرات وحدها، الفقرة المتعلقة بالزنى لها علاقة، أما البقية فلا علاقة لها البتة. فرسل لم يدعُ في أي من كتاباته إلى «الاغتصاب» أو «الخطف» وهو لم يدفع أحداً قط إلى أن يحث أي أنثى على مساكنته لأغراض لا أخلاقية. لكن حتى ماك غيهان، مع كل براعته في اقتباس فقرات من سياق كتاب، لم يستطع، بالتالي، أن يقدم أي فقرات يمكن أن تعد تحريضاً لارتكاب هذه الجرائم. لم إذن اقتباس هذه الفقرات؟ لماذا يقتبسها إن لم تكن نية القاضي أن يرسخ في ذهن الرأي العام، خاصة أولئك الذين لم يطلعوا على كتب رسل، الرابطة بين هذه الجرائم واسم رسل؟ هذا وإنني لأشك إن كان هذا النوع من العمل الديماغوجي قد مورس من قبل أي قاض في أية محكمة أمريكية من قبل. كما أنني سأقدم بقية الحكم دون انقطاع كيلا أزعج تسلسل أفكار القاضي. فتأملاته العميقة حول الحرية الأكاديمية «في فعل الخير» وعقيدته اللافتة للنظر «بالتأثير غير المباشر» للمعلم الذي يمكن، وهو يحاضر عن فلسفة الرياضيات أو الفيزياء، أن يسبب «جماعاً جنسياً بين طالب وطالبة، حين تكون الأنثى تحت سن الثامنة عشرة» تستحق أن تلفت انتباه الطلاب الأتقياء. ثم إن آخر هذه النظريات التي يمكن أن تدعى بعقيدة «التأثير الخارق للعادة»، يجب، بالتأكيد، أن تهم علماء النفس وأولئك المعنيين بالقدرة على فهم ما هو خارج عن نطاق الإدراك الحسي.

«إننا حين نأخذ بالاعتبار ذلك القدر الكبير من المال الذي يدفعه دافعو - الضرائب والذي يخصص كل سنة لتنفيذ هذه البنود من القانون الجزائي، نعلم كم ينبغي أن يكون مؤذياً للصالح العام أي عمل يسعى لأن يشجع على انتهاك مواد القانون الجزائي، دعنا من حيث المبدأ، نسلم بأن لهيئة التعليم العالي السلطة الوحيدة حصراً في أن تختار الهيئة التدريسية لكلية المدينة وأن قراراتها لا تقبل الرد أو



المراجعة من قبل هذه المحكمة أو أية هيئة أخرى، مع ذلك فإن مثل هذه السلطة الوحيدة الحصرية يجب ألا تستخدم لمساعدة أو تحريض أو تشجيع أي مسار للسلوك يميل لانتهاك القانون الجزائي. وعلى افتراض أن السيد رسل استطاع أن يعلم لمدة سنتين في كلية المدينة دون نشر العقائد التي يجد، على ما يبدو، أن من الضروري نشرها على الصفحات المطبوعة من حين إلى حين، فإن تعيينه ينتهك قانون التعليم الواضح تماماً، أي أن لشخصية المعلم شاناً بتشكيل رأي الطالب أكبر من كثير من القياسات المنطقية. فالشخص الذي نحتقره والذي يكون ناقص المقدرة لا يمكن أن يقنعنا بأن نحاكيه، فيما الشخص الذي نحبه ويكون ذا مقدرة بارزة لا يضطر لأن يحاول أن يجعلنا نحاكيه، ولقد احتج بعضهم بأن برتراند رسل خارق للعادة،أي أن ذلك يجعله أشد خطورة. إن فلسفة رسل وسلوكه في الماضي هما في حال تعارض مباشر مع القانون الجزائي لولاية نيويورك وانتهاك له. وحين نأخذ بالاعتبار كم أن العقل البشري ضعيف تجاه أفكار الأساتذة المدرسين وفلسفتهم، يتضح تماماً أن هيئة التعليم العالي إما أنها لم تأخذ بالحسبان النتائج المحتملة لقراراتها أو أنها كانت معنية أكثر بمناصرة القضية التي بدت لها أنها تمثل تحدياً لما يدعى بـ «الحرية الأكاديمية»، دون مطابقة لأي اعتبار مناسب للجوانب الأخرى من المشكلة المطروحة أمامهم. ورغم أن هذه المحكمة لم تستطع التدخل بأي قرار اتخذته الهيئة حتى الآن في كل ما يتعلق بمسألة الحرية للأكاديمية المحض، فإنه لا يمكن التساهل مع هذه الحرية الأكاديمية حين تستخدم كستار لغرس أفكار في أذهان المراهقين للقيام بأعمال يمنعها القانون الجزائي. هذا التعيين يؤثر على الصحة العامة وسلامة المجتمع وأخلاقه ومن واجب المحكمة أن تتصرف. فالحرية الأكاديمية لا تعني الفسق الأكاديمي



إنها الحرية في فعل الخير وليس في تعليم الشر، إذ لا يمكن للحرية الأكاديمية أن تجيز للمعلم أن يعلم أن القتل أو الخيانة من أفعال الخير ولا يمكنها أن تسمح لمعلم أن يعلم بصورة مباشرة أو غير مباشرة أن الممارسة الجنسية بين الطلاب والطالبات، حيث الأنثى دون سن العشرين، عمل مناسب. وهذه المحكمة يمكنها أن تأخذ بالحسبان حقيقة أن الطلاب في كلية مدينة نيويورك هم تحت س الثامنة عشرة، رغم أن بعضهم قد يكون فوق تلك السن.

«لا يمكن للحرية الأكاديمية أن تعلم أن الخطف عمل قانوني ولا الزنى جذاب وصالح للمجتمع. فهناك معايير للحقيقة اعترف بها الآباء المؤسسون. إننا نجد اعترافاتهم بها في الكلمات الافتتاحية لإعلان الاستقلال، حيث يشيرون إلى قوانين الطبيعة وإله الطبيعة. إن المعتقدات الموضوعة والتي كانت تعتبر مقدسة من قبل كل الأمريكيين يومذاك، حافظ عليها دستور الولايات المتحدة بولاياتها العديدة ودافع عنها المواطنون بأرواحهم، مدركين أن الحقوق غير القابلة للتحويل والتي منحها الإله، خالقهم، لهم ينبغي الحفاظ عليها، وأن الشخص الذي تكون حياته وتعاليمه مناقضة لهذه المعتقدات والذي يعلّم ويمارس اللا أخلاق، والذي يشجع ويجاهر بانتهاكات القانون الجزائي لولاية نيويورك، هو شخص غير ملائم لأن يعلم في أية مدرسة من مدارس هذه الولاية، إن الفرع القضائي لحكومتنا، بإشراف مؤسساتنا الديموقراطية، لم يحوله أعداء مؤسساتنا إلى ضعيف عاجز إلى حد أنه لا يستطيع التصرف لحماية حقوق الشعب، فحيث يتعلق الأمر بالصحة العامة وسلامة المجتمع وأخلاقه مباشرة، لا يمكن لهيئة، إدارية كانت أو غير إدارية، أن تعمل بطريقة دكتاتورية مستبدة، متسترة على أعمالها بستار الحصانة التامة والمطلقة من أية مراجعة قضائية. لقد قامت عامدة متعمدة، هيئة



التعليم العالي، صارفة النظر تماماً عن المبادئ الجوهرية التي يجب أن يقوم على أساسها اختيار المدرسين. أما الرأي القائل بأن رسل سيعلم الرياضيات وليس فلسفته الخاصة، فلا ينتقص، بأي شكل من الحقيقة القائلة بأن مجرد حضوره كمعلم سيجعل الطلاب يتطلعون باحترام إليه ويسعون لمعرفة المزيد عنه وبقدر ما يسحرهم أكثر ويؤثر فيهم بحضوره الشخصي، بقدر ما يكون أكثر قدرة على زيادة تأثيره عليهم في مجالات حياتهم كافة، دافعاً الطلاب في حالات كثيرة لأن يسعوا لمحاكاته في كل مجال».

وانطلاقاً من سلطة هذه المحكمة في مراجعة القرار الخاص بتعيين الدكتور رسل من قبل هيئة التعليم العالي، فقد قسمت هذه المحكمة العروض في هذه القضية إلى قسمين، هما بالتحديد العروض التي تتعامل مع المعايير الجدلية التي لا تتعلق بالقانون بحد ذاتها، على الرغم من أنها بغيضة لدى الكثير من الناس، وتلك التي تتعلق بالقانون بحد ذاتها حسب رأي المحكمة. فوجهات نظر الدكتور رسل حول الاستمناء كما عبر عن ذلك في كتابه «التعليم والحياة الصالحة» ص211، تمضي للقول «إن أخذناه بحد ذاته، فإن الاستمناء، بكل جلاء ليس له أثر سيء على الصحة، كذلك لا أثر سيء له اكتشف حتى الآن على النفسية، بل إن الآثار السيئة التي اكتشفت في كلا المجالين هي، على ما يبدو، تعزى كلياً لمحاولات إيقافه... لذلك يجب ترك الصبي وشأنه في هذا المجال، وإن يكن ذلك صعباً». كما أن وجهات نظره حول العري، مثلما يعبر عنها في كتابه ذاته، الصفحة 212، تمضي إلى القول: «يجب منذ البداية أن يسمح للطفل بأن يرى والديه، أخوته وأخواته بدون ثياب في أي وقت يحدث فيه ذلك بصورة طبيعية، ولا يجوز إثارة الكثير من الصخب حول أية واقعة من هذا النوع، فهو ببساطة لا يدري أن الناس لديهم أحاسيس معينة بالنسبة



للعري». أما وجهات نظره بالنسبة للدين والسياسة، فحياته الشخصية وسلوكه، بكل ما فيها من إدانات وقدح وطعن، إنما هي مسائل تعتقد هذه المحكمة أنها مواضيع خاصة يجب أن تأخذها بعين الاعتبار هيئة التعليم العالي عند تقييمها للماهية الأخلاقية للبروفسور رسل كأستاذ، وحول هذه المواضيع، فإن قرار الهيئة نهائي. فإذا كانت معايير الهيئة في هذه المجالات أدنى مما تتطلبه معايير الحشمة والأخلاق العامة، فالعلاج يكون لدى السلطة التي تعينها والتي يمكن أن تعتبر مسؤولية عن تعيين أفراد ذوي معايير أخلاقية أدنى مما هو مطلوب من أجل الصالح العام. لكن بما يتعلق بسلوك كهذا، فإن هذه المحكمة لا تملك الصلاحية في التصرف، بسبب السلطة التي يمنحها إياها القانون على هيئة التعليم العالي. لكن حيث تتجاوز المسألة ميدان القضايا الجدلية وتدخل ميدان قانون العقوبات، فإن هذه المحكمة لديها الصلاحية ويترتب عليها واجب التصرف. وعلى الرغم من أن هناك تشجيعاً للزنى في اللغة المستخدمة في كتاب «التعليم والحياة الصالحة»، ص221، «أنا لن أعلم أن الإخلاص للشريك طول الحياة مطلوب بأي شكل من الأشكال أو انه يجب النظر إلى الزواج الدائم على أنه ينفي وقوع أحداث عرضية مؤقتة». إلا أن بالإمكان القول إنه هنا يشجع على ارتكاب نوع من سوء السلوك فقط وليس الجريمة، مع ذلك فإن تلك الحجة المخففة لا بد من أن تسقط حين تتم مواجهتها بأقوال د. رسل فيما يتعلق بجريمة اللواطة الملعونة التي تخول بالحبس لمدة لا تزيد عن عشرين سنة في ولاية نيويورك، وما يتعلق بهذه الممارسة المنحطة، فإن د. رسل يقول في كتابه ذي العنوان «التعليم والعالم الحديث» ص119 ما يلي: «من الممكن ألا تكون العلاقات اللواطية مع صبية آخرين مؤذية جداً، إذا تم التساهل معها، لكن حتى في هذه الحالة ثمة خطر، خشية أن تؤثر على نمو الحياة الجنسية العادية فيما بعد».



وإذا أخذنا بعين الاعتبار مبادئ رسل، مع الإشارة إلى القانون الجزائي في ولاية نيويورك. يبدو أنه ليس فقط أخلاق الطلاب سوف تنحط، بل إن معتقداتهم ستميل لأن تؤدي بهم، وفي بعض الحالات بآبائهم وأولياء أمرهم، إلى حالة التنازع مع القانون الجزائي، وطبقاً لذلك، فإن هذه المحكمة تتدخل.

من الواضح أن القاضي كان يشير إلى أن رسل كان يشجع «جريمة اللواطة اللعينة»، وهذه أسوأ تهمة وجهت إليه، حيث «كل حجة مخففة يجب أن تسقط»، وعلى حد علمي، فإن هناك فقرتين فقط في كتب رسل الكثيرة، جاء فيها على ذكر اللواطة. إحداهما تلك التي اقتبسها القاضي، أما الثانية فترد في «الزواج والأخلاق» كما يلي: «اللواطة بين الرجال. وليس بين النساء، غير قانونية في إنكلترا، ومن الصعب جداً إيراد أي حجة أو ذريعة لتغيير القانون في هذا المجال، وهو نفسه ما يعتبر غير قانوني على أساس أنه بذيء. مع ذلك، فإن كل من أتعب نفسه ودرس الموضوع يعلم أن هذا القانون هو نتاج أسطورة جاهلة وبربرية. لا يمكن أن يقدم لصالحها أية حجة عقلانية من أي نوع». من هذه الفقرة يتضح أن رسل كان يعارض وجود قوانين ضد اللواطة. وأنا ألاحظ من الإرساليات القادمة من لندن في الفترة الأخيرة أن الروم الكاثوليك ارتدوا أخيراً، على ما يبدو، إلى موقف رسل ليدعموا الآن إلغاء هذه القوانين. وإنه لمن الواضح تماماً أن رسل لا يحث أحداً على انتهاك القانون الذي يعارضه. وفي الفقرة المقتبسة من قبل القاضي، ليس هناك حتى انتقاد للقوانين. إذ أنه، بعيداً جداً عن تشجيع اللواطة، يذكر الاحتمالية ويشير إلى بعض الآثار الضارة للعلاقات اللواطية. ذلك هو منطق رواية 1984: الأبيض أسود والسلم حرب والحرية عبودية. فكم صحيح إذن أن كل المتعصبين متشابهون أصلاً، سواء أكانوا على هذا الجانب من الستار



الحديدي أو ذاك. كذلك، غير صحيح أيضاً أن رسل، سواء في الفقرات المقتبسة من قبل القاضي أو سواها شجع الزنى. بل ما كان يؤكده رسل أولاً هو أن العلاقات الجنسية بين أناس غير متزوجين ليست خاطئة أخلاقياً، إذا كان فيها ما يكفي من المودة بين الطرفين وأن هذه مسألة خاصة تماماً، على الدولة أن لا تعيرها اهتماماً. ثانياً هو يؤكد أن العلاقات خارج الزواج التي تقع أحياناً لا يجوز أن تكون بالضرورة أساساً لحل رابطة الزواج. وهذا كما أصر عليه في البيانات العامة التي تجاهلها ماك غيهان عن عمد، ليس الشيء نفسه أي «تشجيع» الزنى بالمطلق، بل إن مناصرة رسل للزواج الرفاقي المشروع، يمكن أن تعتبر، إذا ما اعتبر أي شيء آخر، حجة ضد الزنى. مع ذلك، فإن فقرات القانون الجزائي لولاية نيويورك التي تجعل من الزنى إساءة جرمية لا يعمل بها ولم يعمل بها منذ زمن طويل، والكل يعرفون هذا، ولعل الدليل الأفضل على أنه قانون ميت يأتي من سجل ماك غيهان الخاص عندما كان نهائياً عاماً لمنطقة برونكس. فخلال هذه الفترة، حدثت حالات طلاق عديدة على أساس الزنى الذي كان سبباً كافياً قانونياً. مع ذلك، فإن ماك غيهان، ككل نائب عام للمنطقة لم يقاض البتة طرفاً واحداً من الأطراف التي ثبت رسمياً ارتكابها لذلك الجرم.

أما نظرة رسل إلى العري، رغم أنه ليس سيئاً بحد ذاته، فقد حكم عليها القاضي بأنها «منفرة إلى حد بغيض»، لقد اقتبس من كتاب رسل المبكر «التعليم والحياة الصالحة» الذي كتب فيه رسل أن «على الطفل، منذ البداية، أن يسمح له بأن يرى والديه، أخوته وأخواته، بدون ثياب في كل حين يحدث ذلك بشكل طبيعي. ويجب عدم إثارة الصخب والضجيج في أي حال، لأن الطفل بكل بساطة لا يعلم أن الناس لديهم أحاسيس معينة حول العري». هذا الكلام قدم



كدليل على أن كرسي الفلسفة في كلية المدينة سيصبح «كرسياً لقلة الأدب وعدم الاحتشام، إذا ما ووفق على التعيين. إذ من الواضح أن ماك غيهان كان يأمل أن يجعل رسل يظهر على أنه رجل «شهواني، منغمس في الملذات الجنسية، فاسق وغارق في الجنسانية» (إذا ما استعملنا لغة السيد غولدشتين المبهرجة) ويناصر نوعاً من أنواع التعري ضمن الأسرة. لقد امتنع القاضي، وبكل حرص، عن اقتباس الأجزاء الأخرى من مناقشة رسل التي شرح فيها الأسباب الداعية لنظرته تلك. ففي هذه الفقرات، التي حجبها ماك غيهان، أوضح رسل أنه قدم توصيته وأدان الممارسة المضادة في إخفاء الجسد البشري مهما كلف الأمر، «لأن الإخفاء يثير الإحساس بأن هناك سراً غامضاً، وحين يتملكهم ذلك الإحساس، يصبح الأطفال شهوانيين وغير محتشمين». كذلك، امتنع القاضي عامداً متعمداً عن اقتباس المناقشة التي تدور حول الموضوع ذاته في «الزواج والأخلاق»، وهو أحد الكتب التي قدمها غولدشتين والتي زعم ماك غيهان أنه قرأها. تهمة غولدشتين بأن رسل كان «يدير مستوطنة عراة» مستمدة من بعض الأقوال في هذه الفقرة. وتسير كما يلي:

إن التحريم المفروض على العري يشكل عائقاً إزاء الموقف المحتشم تجاه موضوع الجنس. وحيث يتعلق الأمر بالأطفال فقد بات يدرك هذا الكثير من الناس. إنه لأمر حسن أن يرى الأطفال بعضهم بعضاً وأن يروا والديهم عراة حيثما يحدث ذلك بشكل طبيعي، هناك، ستكون مرحلة قصيرة، ربما حوالي سن الثالثة، حين يصبح الطفل مهتماً بالفوارق بين أبيه وأمه ويقارنها بالفوارق بينه وبين أخته، لكن هذه المرحلة سرعان ما تنتهي، بعدها لن يولي اهتماماً للعري أكثر مما يوليه للثياب، وطالما يكون الوالدان غير راغبين بأن يراهما أطفالهما عاريين، فإن الأطفال سيتملكهما بالضرورة إحساس بأن



هناك سراً غامضاً وبتملكهم ذلك الإحساس سيصبحون شهوانيين وغير محتشمين. ثمة طريقة وحيدة لتجنب قلة الحشمة وهي أن نتجنب الغموض. كذلك هناك أسس مهمة كثيرة للصحة تقف لصالح العري في ظروف معينة كالوجود في الطبيعة وفي جو مشمس. فأشعة الشمس على جلد عارٍ لها تأثير مفيد - للصحة بشكل فائق، زد على ذلك، أن أي امرئ يراقب الأطفال وهم يركضون في الهواء الطلق عراة بلا ثياب لا بد وأن تصدمه حقيقة أنهم يعتقدون أنهم بذلك أفضل بكثير وأنهم يتحركون بحرية أكثر وروعة أكثر مما هو الأمر وهم في ثيابهم. الأمر ذاته ينطبق على الناس البالغين. إن المكان المناسب للعري هو خارج المنازل، تحت ضوء الشمس وفي الماء. ولو أن تقاليدنا تسمح بذلك، لتوقف العري في الحال عن أن يشكل أي إثارة جنسية، ولسوف نرى كلنا أننا أفضل وأحسن صحة نتيجة مس الهواء وشعاع الشمس للجلد، وستلتقي معاييرنا الجمالية على نحو أكثر قرباً مع معايير الصحة، نظراً لأن الناس سيعملون على الاهتمام بأنفسهم، جسداً وقواماً وليس وجهاً فقط. في هذا المجال، يجب أن يوصى بممارسة الإغريق.

هنا لا بد أن أعترف أنني لا أستطيع أن أفهم أي موقف تجاه هذا الموضوع أكثر شمولية من ذلك الذي تم التعبير عنه في هذه الملاحظات. أما رد فعل ماك غيهان فيذكرني برد فعل صورة كرتونية باتت مشهورة في السنوات الأولى من هذا القرن (القرن العشرين) حين قام أنطوني كومستوك، وهو أحد الأسلاف الروحيين للقاضي، بحملة على اللوحات والتماثيل التي تصور الجسم الإنساني بلا ثياب. تلك الصورة بدا فيها كومستوك وهو يجر امرأة إلى قاعة المحكمة ثم يقول للقاضي: «هذه المرأة، يا سيدي المحترم أنجبت طفلاً عارياً».



فيما يخص موضوع الاستمناء، كان القاضي مجرماً عادياً لارتكابه سوء - تفسير مزدوجاً لوجهة نظر رسل. فهو، أولاً، اقتبس كلام رسل من سياقه بطريقة تسيء تفسير الهدف الحقيقي من مناقشته للمسألة. في رأس ذلك، أساء ماك غيهان تفسير الفقرة التي استنسخها في حكمه، لقد حاول القاضي أن يقدم رسل كناصح أو راعٍ لممارسة الاستمناء. لكن في الفقرة التي اقتبسها القاضي، لم يفعل رسل شيئاً كهذا، لقد دعا فقط إلى أن من الأفضل ترك الطفل وشأنه على أن نقمع الاستمناء بالتهديدات الرهيبة. الأكثر من ذلك،أن الفقرة وقعت ضمن سياق، كان فيه رسل بعيداً جداً عن تشجيع الاستمناء، موصياً بطرق غير المنع المباشر، للحؤول دون الاستمناء. أما بالنسبة لنظرة رسل العملية، فقد أصبحت الآن، ولفترة طويلة، أشياء مألوفة طبياً. في هذا المجال، لاحظت «الجمهورية الجديدة» بجدارة أن القاضي أظهر نفسه فقط على أنه جاهل «الجيل كامل من الفكر العلمي في الميدان السيكولوجي والطبي». ولعله بدلاً من موضوع تقديم أساتذة الجامعة لامتحانات تنافسية، على المرء أن يتعرف على الحد الأدنى من علم النفس الطبي الذي يجب أن يطلب من قضاة المستقبل. على أن ماك غيهان لم يشوه وجهات نظر رسل حول مواضيع محددة وحسب، بل أسوأ ما في رأيه أنه ربما شوه الهدف الإجمالي لرسل في نقده للأخلاق التقليدية. إذ لا أحد سيستنتج من رأي القاضي أن رسل قارب موضوع الأخلاق الجنسية بروح خالية من الجدية وأن نيته لم تكن التخلي عن الكوابح الأخلاقية، بل أن يصوغ مجموعة قوانين أكثر لطفاً وأكثر إنسانية. لقد كتب رسل في الفقرة التي ربما لم يقرأها القاضي يقول: «لا يمكن للجنس أن يستغني عن الأخلاق أكثر ما يستغني عنها أي شيء آخر، كالعمل أو الرياضة أو البحث العلمي أو أي فرع آخر من النشاط الإنساني، لكنه يمكن أن يستغني عن



الأخلاق القائمة فقط على الكوابح القديمة التي وضعها أناس غير متعلمين في مجتمع مختلف كلياً عن مجتمعنا. ففي الجنس. كما في الاقتصاد والسياسة، ما يزال يهيمن على أخلاقنا المخاوف التي جعلتها الاكتشافات الحديثة لا مبرر لها.. صحيح أن الانتقال من النظام القديم إلى الحديث له مصاعبه، ككل عمليات الانتقال، إلا أن الأخلاق التي أدعو لها لا تتكون ببساطة من أن نقول للراشدين أو المراهقين: «اتبعوا دوافعكم وافعلوا ما يحلو لكم،» بل ينبغي أن يكون هناك اتساق في الحياة وينبغي أن يكون هناك جهد متواصل موجه إلى غايات قد لا تكون ذات فائدة مباشرة ولا جذابة في كل لحظة. كما تنبغي أن يكون هناك اعتبار للآخرين ومعايير معينة للاستقامة». في مكان آخر من كتابه «الزواج والأخلاق» يقول رسل: «أخلاق الجنس ينبغي أن تستمد من مبادئ عامة معينة، تحظى ربما بأكبر قدر من الاتفاق بين الناس. رغم الاختلاف الواسع فيما يتعلق بالنتيجة الناجمة عنها، فالشيء الأول الذي يجب ضمانه هو أن يتوفر أكبر قدر ممكن من ذلك الحب الجاد العميق بين الرجل والمرأة الذي يشمل كامل شخصيتيهما كليهما ويؤدي إلى الاندماج الذي يغني كلاً منهما ويعززه.. الشيء الثاني المهم هو أنه يجب أن يكون هناك رعاية كافية للأطفال، جسدياً ونفسياً». إذن، رسل لا هو بالداعية «للحياة المتوحشة» ولا هو عدو لمؤسسة الزواج. فالزواج، في نظره، «هو العلاقة الأفضل والأهم التي يمكن أن تقوم بين كائنين بشريين». بل هو أكثر إصراراً على أن الزواج «شيء ما أكثر جدية من متعة شخصين يصحب واحدهما الآخر، وأنه المؤسسة التي تشكل، لكونها تؤدي إلى إنجاب الأطفال، جزءاً من النسيج الحميمي للمجتمع وتمتد أهميتها إلى ما بعد المشاعر الشخصية للزوج والزوجة».



قد يكون موضع شك فيما إذا كانت وجهات النظر هذه خطرة جداً حقاً. لكن على أية حال، من غير المحتمل، على ما يبدو، أن ماك غيهان وأبطال «الأخلاق» من صحبه كان لديهم أية مخاوف فيما يتعلق ببراءة طلاب كلية المدينة وطهرهم، سواء أكانوا فوق سن الثامنة عشرة أو دونها، ولن يكون من الصعب أن نتأكد فيما إذا كان حضور رسل في كلية المدينة يحتمل أن يؤدي إلى «حياة سائبة» وإلى «خطف بنات» وممارسات رهيبة أخرى أم لا. لقد مارس رسل التعليم معظم حياته - في إنكلترا، في الصين وفي الولايات المتحدة. وإنه لأمر بسيط جداً بالتأكيد أن نطلب التقارير المتعلقة بتأثيره، من رؤساء الجامعات التي درّس فيها ومن زملائه هناك، وكذلك من الطلاب الذين كانوا يحضرون دروسه. تقارير كهذه متاحة بالواقع، لكن القاضي لم يبدِ أي اهتمام بها، وهو لم يبدِ ذلك الاهتمام لأنها كلها، دون استثناء، كانت تتكلم عن رسل بلغة الثناء والمديح. فرئيس جامعة شيكاغو، البروفسور هتشنيز كان في العام السابق قد أكد لهيئة التعليم العالي «إسهامه المهم» ودعم بشدة مسألة تعيينه. كما أن الرئيس سبراول من جامعة كاليفورنيا اتخذ موقفاً مماثلاً وتكلم عن رسل على أنه «الزميل الأعظم قيمة». كذلك أرسل ريتشارد بين، وهو محرر جريدة الطالب في جامعة كاليفورنيا، برقية إلى اجتماع احتجاجي في كلية المدينة يقول فيه: «الكم الدعم الكامل من طلاب جامعة كاليفورنيا الذين يعرفون هذا الرجل العظيم، حظاً طيباً». أما عميدة كلية سميث ورئيس الرابطة الوطنية للأقسام المتحدة للفلسفة، بيتا كابا، فقد تطوعا بإصدار بيان. هذه العميدة كانت قد حضرت فصلين تدريسيين لرسل في المعهد البريطاني للدراسات الفلسفية و«رسل»، بالنسبة إليها، لم يتطرق في مناقشاته للفلسفة لأي من المسائل الخلافية التي أثارها خصومه... «فالسيد رسل أولاً وقبل كل



شيء فيلسوف... وهو في تدريسه كله يتذكر ذلك دائماً. وربما كنت سأظل دون أن أعرف البتة آراء رسل حول الزواج أو الطلاق، الإيمان أو الإلحاد لو لم تُولَ الكثير من التركيز والاهتمام في الصحف». شهادات أخرى من النوع نفسه جاءت من جهات أخرى كثيرة. ولقد قلت آنفاً إن عيني القاضي ماك غيهان لم تكونا تنظران إلى القانون. وأظن أن من المستحسن أن أضيف أيضاً أنهما لم تكونا تنظران إلى الحقائق البتة.

6

على أن ردود الفعل تجاه الحكم كانت كما يمكن للمرء أن يتوقع. فداعمو رسل ارتعبوا ومعارضوه ابتهجوا. داعمو رسل خافوا أن يؤدي الضغط السياسي الشديد لمنع الهيئة من متابعة القضية في محاكم الاستئناف العليا. هذه المخاوف، كما سنرى، أثبتت أنها مبررة تماماً. فالمجلس الوطني لرابطة الأساتذة الجامعيين الأمريكية، في اجتماع في شيكاغو، تبنى بالإجماع قراراً يحث رئيس البلدية لاغارديا والهيئة على الاستئناف ضد حكم القاضي ماك غيهان. كذلك فعلت هيئات أخرى جديدة، من ضمنها الرابطة الأمريكية للعاملين في مجال العلوم ورابطة التعليم العامة. إضافة إلى رابطة الحرية الأكاديمية الخاصة - وهي رابطة كان قد شكلها رسل مع بعض الأساتذة الآخرين ذوي الشخصيات المعتبرة والمتميزة من العالم الأكاديمي. كما أن ستين عضواً من الهيئة التدريسية في الجامعة الشمالية الغربية، أرسلوا مباشرة إسهامات إلى اللجنة، يمدحون فيها برتراند رسل بعقله الرفيع ومقاربته الشجاعة للمسائل الأخلاقية. كذلك أرسلت لجنة «الحرية الثقافية» برقية إلى المحافظ، لاغارديا إشارات فيها إلى أن القاضي ماك غيرن جعل رسل يظهر على أنه «متهتك ووغد». ثم أضافت اللجنة «وذلك في البكاء على الاختلاف مع المعروف



والحقائق التي يمكن التحقق منها بسهولة، والتي يشهد عليها رؤساء الجامعات الأمريكية التي درس فيها السيد رسل».

أما اللجنة الأمريكية للديموقراطية والحرية الفكرية فقد نظمت اجتماعاً احتجاجياً كان من ضمن الخطباء فيه الأستاذ ولتر روتنستراوش من كولومبيا، الأستاذ فرانز بوس عالم الدراسات الإنسانية والعميد ديربورن من جامعة نيويورك وآخرون، في كلية المدينة نفسها، حيث كان الطلاب، على ما يبدو، فاسدين تماماً، حتى قبل أن تتاح الفرصة لرسل لأن يحط من أخلاقهم وينتقص من سلامة صحتهم، فقد عقد اجتماع جماهيري في القاعة الكبرى. كما جاءت رسالة دعم من واحد من أشهر خريجي الكلية. وهو الروائي المشهور أبتون سنكلير الذي أعلن أن القاضي والأسقف «قد نشرا حقيقة هامة وهي أن إنكلترا أعارتنا واحداً من أعظم الرجال علماً وكرماً في عصرنا». وقد خلص إلى أن أنصار العقائد المتشددة جنسياً «يجب ألا يسمح لهم بأن يسلبوا منا خدمات برتراند رسل». في الاجتماع، كان الخطباء الرئيسيون هم الأستاذ بريدج من قسم اللغات الكلاسيكية، وانير من قسم الفلسفة، موريس من قسم التاريخ وآخرون أيضاً. وقد لاحظ الأستاذ بريسون في خطبته قائلاً: «إذا كانت الكليات الممولة رسمياً لا تتمتع بالحريات التي تتمتع بها الكليات الأخرى. فإنها لن تأمل أبداً في أن تلعب أي دور مهم في التقدم الفكري لحياتنا». هذا الاعتبار الأخير ربما لم يكن له أي وزن لدى القاضي ماك غيهان والأسقف مانينغ وباحثي تاماني الذين دعموا جهودهم الباسلة.

ولا بد أن الفساد كان قائماً في كلية المدينة قبل سنوات كثيرة من ظهور القضية كلها. إذ أن هيئة مديري كلية المدينة صوتت بالإجماع



لحث هيئة التعليم العالي على استئناف القضية. هـذه الحركـة استهلها د. صموئيل شولمان، وهو حاخام فخري لمعبـد إمـانو - إيـل، وهـي منظمة مشهورة بأنشطتها الهدامة!! كما أن أحد المدراء الثمانيـة عـشر الداعمين للقرار كان عضو محكمة العدل العليـا برنـارد شـيتاغ الـذي ربما لم يكـن يعلـم بـشكل مناسـب الكـثير عـن عقيـدة التـأثير «غـير المباشـر». وكـون القـضاة ليـسوا جميعـاً، ضـليعين جـداً في القـانون الجزائي أو لديهم فهم عميق للحرية الأكاديمية مثل ماك غيهان حقيقـة كانت واضحة من حوادث معينة في كاليفورنيا، ففي 30 نيسان طالـب السيد آي، وول، وهو وزير سابق، بعزل برتراندرسل مـن منـصبه في جامعة كاليفورنيا، مقدماً التماساً خطياً بمنعه من التدريس إلى محكمـة استئناف المنطقة في لوس أنجلوس، متهماً معـه برترانـد رسـل بـأن ع قانـده «هدامـة». لكـن في كاليفورنيـا، وخلافـاً لنيويـورك، رفـضت المحكمة الطلب مباشرة.

7

لقد مضينا دون أن نقول إن حكم ماك غيهان كان في نظـر أعـداء رسل مأثرة من مآثر البطولة العظيمة: لقـد أصـبح القاضـي بعـد ذلـك موضع تغنٍ ومدائح في جرائد المفتـشين. «إنـه أمريكـي، كلـه رجولـة وإخلاص»، كتبت الأسبوعية الجزويتية «أمريكا». وأكثر من هـذا «هـو قاضٍ شريف نقي... يعد بين الأفـضل كمرجـع قـانوني» كـذلك «هـو يعيش دينه، عقلاً وروحاً»، و«قامته تنـوف علـى الـستة أقـدام، مـترع بالذكاء واللطف. لكن هذه ليست فضائله فقـط. فاتهـام رسـل لـه بأنـه «شخص جاهل للغاية» كان غير صحيح البتة.. «إنه باحـث كلاسـيكي» حاد الذهن، لامـع في أبحاثـه.. إنـه يقـرأ هـومروس بلغتـه الإغريقيـة الأصلية ويستمتع بهوراس وشيشرو باللاتينية الأصلية: أصوات أخـرى



كثيرة انضمت إلى الدورية الجزويتية في جوقة المدح والإطراء. أحدها كان صوت فرانسيس موسلي، رئيس رابطة التعليم الكاثوليكي الذي وصف قرار القاضي بأنه «فصل ملحمي تاريخي القضاء» و«نصر عظيم لقوى العفة والأخلاق كما أنه نصر للحرية الأكاديمية الحقيقية». أما جريدة «اللوح» فإنها، بعد أن طالبت بالتحقيق مع أردوي تيد، نائب الرئيس التنفيذي، والثوريين الآخرين المسؤولين عن تعيين رسل، أعلنت في افتتاحيتها أن «قرار القاضي ماك غيهان... يتسم بالبساطة والإخلاص، وهو ما يستحق الإعجاب في الحال».

لقد بات واضحاً الآن أن رسل لم يكن المسيء الوحيد الذي ينبغي أن يعاقب. فأغلبية هيئة التعليم العالي كانوا يستحقون العقاب أيضاً، وينبغي اتخاذ إجراء مناسب ضدهم، وهكذا في اجتماع المجلس التعليمي لولاية نيويورك، الذي أعتقد أنه كان عموماً يعتبر جزءاً من «الحاشية المجنونة» لسياسة الجناح اليميني في الولايات المتحدة، ثم شجب كل من الأستاذ جون ديوي والسيدة فرانكلين روز فلت لوعظهما بالتسامح (شيء فاقد الحيوية باعث على الغثيان)، بدلاً من «الحشمة العامة» و«المعاملة العادلة» كما تجسدت، على ما يفترض، في حكم ماك غيهان. في الاجتماع ذاته، ندد لامبرت فيرتشايلد، وهو رئيس اللجنة الوطنية لإعادة إحياء الدين، بغالبية أعضاء هيئة التعليم العالي، الذي فضلوا تعيين رسل، باعتبارهم «يهوداً مرتدين ومسيحيين مرتدين». كما حرض على استبدالهم بأشخاص «ما يزالون يؤمنون بوطنهم ودينهم». أما تشارلز كيفان، النبيل المهذب الذي مر معنا من قبل، حين أشار إلى برتراند رسل على أنه «كلب» و«إست»، فقد طرح المسألة أمام مجلس المدينة، وبعد أن قارن رسل بـ «الطابور الخامس» الذي ساهم في الانتصارات



النازية وبعد أن دعاه «بالشيوعي العلني» نبّه إلى أن أعضاء الهيئة الذين أصروا على محاولاتهم «وضع رسل في الهيئة التدريسية للكلية» يجب أن يطردوا. وقد قدم مشروع قرار يدعو فيه رئيس البلدية إلى إعادة تشكيل الهيئة ويعين أعضاء «يخدمون بشرف واستحقاق أكبر». هذا القرار تم تبنيه بـ14 صوتاً ضد /5/. مع ذلك، يجب أن يضاف أن المحافظ لم يكن باستطاعته أن يطرد أعضاء الهيئة. وحركة عضو المجلس كيفان لم تتعد كونها إشارة نبيلة. بالإضافة إلى منع تعيين رسل ومعاقبة أعضاء الهيئة الذين وقفوا إلى جانبه، بقيت هناك مهمة تنوير الناس حول الطبيعة الحقيقية للحرية - وهو الموضوع الذي كان لدى الكثير من الأمريكيين سوء فهم جدير له، ربما من خلال تأثير هراطقة مضللين مثل جفرسون وبين. أما مفهوم ماك غيهان - موسلي فيجب نشره على نطاق أوسع. في حملة التنوير هذه، لعب المونسنيور فرانسيس وولش، خطيب «برك الدم»، دوراً بارزاً، إذ ما إن صعد على منبر الخطابة ثانية في فندق آستور. وهذه المرة بمناسبة الإفطار السنوي العام لرابطة الاسم المقدس في نيويورك، حتى أشار أولاً وباختصار إلى قرار المحكمة الملحمي، وآخر مرة وقف فيها على ذلك المنبر، قال: «لقد ناقشت مشكلة معروفة لدى أساتذة الرياضيات باسم المثلث الزوجي، لكن منذ أن كُتب رد على ذلك من قبل القاضي المحترم ماك غيهان فإنني سأتجاوزها إلى موضوع ذي صلة». بعدئذ مضى المنسنيور وولش لمناقشة «كلمة سيئة جداً جداً» ألا وهي الحرية، قائلاً: «بما أن الكائنات البشرية يمكن أن تستمر في الوجود فقط بخضوعها للقانون الإلهي، - أي قانون الطبيعة وقانون الوصايا العشر - إذن في أمريكا، بلادنا هذه، لن يُسمح لأحد أن يقف على منبر الحرية كي يطعن الحرية في الظهر، وهذا ينطبق على كل



الشيوعيين ورفاق - دربهم، النازيين والفاشيين الذين وضعوا قانون الدولة فوق قانون الإله، وكذلك على أساتذة الجامعات، ناشري الكتب أو أي شخص آخر ضمن الحدود الإقليمية للولايات المتحدة». وكون المونسنيور وولش له الحق في أن يعتبر خبيراً في الحط من قدر كلمة «الحرية» حقيقة لا يمكن نكرانها البتة.

8

هذه القصة لا يمكن أن تكتمل دون أن نقول بضع كلمات حول دور الـ «نيويورك تايمز» في هذا الشأن، فحينما لا يتعلق الأمر بمجموعات الضغط الدينية، كانت «النيويورك» تسارع عادة للاحتجاج ضد إساءات السلطة. في قضية رسل. كانت التغطية الأخبارية، كما هي العادة، حسنة وشاملة. مع ذلك، وخلال شهر آذار بكامله حين كان رسل وأعضاء هيئة التعليم العالي يتعرضون يومياً للإساءة بأكثر العبارات سخطاً، فقد بقيت «التايمز» صامتة تماماً. وطوال ثلاثة أسابيع بعد صدور حكم ماك غيهان، لم تظهر كلمة واحدة في تعليق افتتاحي. أخيراً، وفي 20 نيسان، نشرت «التايمز» رسالة من قبل المستشار تشيز، من جامعة نيويورك أشار فيها إلى بعض دلالات قرار ماك غيهان. لقد كتب السيد تشيز يقول: «المسألة الحقيقية الآن لم يسبق، على حد علمي، أن طرحت من قبل في تاريخ التعليم العالي في أمريكا. إنها مسألة ما إذا كان من حق محكمة أن تلغي تعيين إدارة كلية، سواء أكانت المؤسسة تموَّل جزئياً أو كلياً من الأموال العامة، وأن يكون ذلك الإلغاء نتيجة رأي فردي... فإذا تم تأييد حكم المحكمة، إذن تكون ضربة قد وجهت إلى الآفاق والاستقلال الفكري لكل عضو هيئة تدريسية في كلية عامة وجامعة في الولايات المتحدة، والعواقب المحتملة لذلك لا يكون لها عد ولا حصر».



لقد أحست «التايمز» الآن أنها مضطرة لاتخاذ موقف من قبل رئيس التحرير تجاه الموضوع. وقد استهلت افتتاحيته ببعض التعليقات العامة التي تأسف للنتائج سيئة الحظ الناجمة عن الجدل الذي أثير. فالنزاع حول تعيين رسل، كما كتبت التايمز «ألحق أذى كبيراً بهذا المجتمع. لقد خلق شعوراً مراً لا يمكن تحمله حين تكون الديموقراطية، التي نحن كلنا جزء منها، مهددة من جوانب كثيرة جداً. «فأخطاء الحكم» تابعت الافتتاحية متظاهرة بالحياد، «قد ارتكبها كل المسؤولين ذوي العلاقة. فتعيين برتراند رسل كان أصلاً عملاً أحمق وغير حكيم، ذلك أنه بمعزل كلياً عن مسألة القيمة العلمية لبرتراند رسل واستحقاقاته كمدرس، من المؤكد منذ البداية أن عواطف جزء أساسي من هذا المجتمع ستثيرها الآراء التي كان رسل قد عبر عنها في قضايا أخلاقية متعددة». وما إذا كان التعيين «أحمق» أو «غير أحمق» يجب بكل وضوح أن يكون مهماً أكثر من كفاءة المدرس وقيمته العلمية. وتلك بالتأكيد، عقيدة جديرة بالملاحظة على جريدة متحررة أن تناصرها.

أما بالنسبة لقرار القاضي ماك غيهان، فقد اكتفت «التايمز» بالقول إنه كان «واضحاً إلى حد خطر». وقد انصب سخط الجريدة المتحررة الرئيسي لا على القاضي الذي أساء استخدام منصبه، ولا على رئيس البلدية الذي سأمر على وصف سلوكه الجبان بعد لحظة، بل على الضحية الذي تعرض لهجوم شرير، برتراند رسل، إذ كان على السيد رسل، تقول الجريدة «أن يمتلك من الحكمة ما يجعله ينسحب من التعيين حالما تبين أن نتائجه ستكون ضارة». وقد رد رسل على هذا الكلام برسالة نشرت بتاريخ 26 نيسان:



«آمل أن تسمح لي بالتعليق على إشارتك إلى الجدل الذي نشأ أصلاً عن تعييني في كلية مدينة نيويورك وبصورة خاصة على حكمك بأنه «كان علي أن أمتلك من الحكمة ما يجعلني أنسحب... حالما تبين أن نتائجه ستكون ضارة» «بمعنى من المعاني، كإن هذا سيتكشف عن أنه المسار الأحكم. وكان بالتأكيد سيبدو أكثر تعقلاً بقدر ما يتعلق الأمر بمصلحتي الشخصية وأكثر مسرة لي بكثير. إذ لو أخذت بالاعتبار مصلحتي ورغبتي الشخصية فقط لكان علي أن أستقيل في الحال. لكن مهما يكن عمل كهذا حكيماً من وجهة نظر شخصية، فإنه سيبدو، برأيي، جباناً وأنانياً أيضاً. إن كثيراً من الناس الذين يدركون أن مصالحهم الخاصة ومبادئ التسامح وحرية التعبير مطروحة للرهان، كانوا تواقين منذ البداية لأن أتابع الجدال. ولو استقلت إذن لكنت قد سلبتهم «قضيتهم الجميلة» ووافقت ضمناً على اقتراح المعارضة للسماح لجماعات أساسية بأن يطردوا من الخدمة العامة أفراداً يجدون أن آراءهم أو عرقهم أو جنسيتهم بغيضة كريهة. هذا بالنسبة لي، سيبدو عملاً لا أخلاقياً».

إن جدي هو الذي عمل على إلغاء الاختبار الإنكليزي وقوانين المجلس البلدي التي كانت تحول بين مكاتب الخدمة العامة وبين أي شخص ليس تابعاً لكنيسة إنكلترا التي كان هو نفسه أحد أتباعها، وإن واحدة من أقدم وأهم ذكرياتي هي الذكرى المتعلقة بوفد من المنهجيين والوسليين الذين جاؤوا كي يحيوه من أمام منزله في الذكرى الخمسين لذلك الإلغاء، رغم أن أكبر جماعة بمفردها كانت متأثرة إنما هي الكاثوليك.

أنا لا أظن أن الجدال حول أسس عامة شيء مؤذ. فليس الجدال والخلافات المفتوحة هي التي تهدد الديموقراطية بالخطر. بالعكس،



هذه هي أكبر ضمانة للديموقراطية بل إن جزءاً أساسياً من الديموقراطية يقضي بأن على المجموعات الأساسية، وحتى الأغلبيات، أن توسع التسامح بحيث يشمل الجماعات المعارضة، مهما تكن صغيرة ومهما تكن عواطفها موضع إثارة وسخط. ففي الديموقراطية من الضروري أن يتعلم الناس التسامح، حتى وإن أثيرت مشاعرهم».

في ختام افتتاحيتها المؤرخة في 20 نيسان، وجهت «النيويورك تايمز» إشارة خاصة لدعم المستشار تشيز على أمل أن يراجع حكم ماك غيهان لدى المحاكم العليا. لكن فيما بعد وحين تم ببراعة منع هذه المراجعة بفضل الجهود المشتركة للقاضي ولرئيس البلدية ماك غيهان، فإن الجريدة لم تنطق بكلمة واحدة. وإنه لكثير بالنسبة لسجل «جريدة العالم الكبرى» في هذه القضية.

9

عندما صدر حكم القاضي ماك غيهان، خشي بعض أعداء رسل من أن المحاكم ستبطله. وهكذا، خلص ألدرمان لامبرت، بعد الاستمتاع بالنصر العظيم الذي حققته قوى العفة والحشمة، إلى أن المعركة لم تنته بعد. وبعد أن أبدى عظيم احترامه لاستقلال القضاء، أضاف أن «المواطنين الشرفاء يجب أن يشكلوا جبهة بحيث لا تتجرأ أية محكمة على إبطال هذا القرار».

على أن مخاوف ألدرمان لم تكن ضرورية البتة. فالمحافظ لاغارديا وعدة أعضاء من مجلس المدينة مضوا إلى العمل بحيث يتأكدون من أنه حتى لو وافقت المحاكم على الاستئناف ضد قرار ماك غيهان، فلن يكون باستطاعة رسل العودة إلى مركزه الأصلي.. لقد شطب المحافظ من الميزانية، وبكل بساطة، المخصصات المالية للمحاضرات التي كان تعيين رسل قد تم بناء عليها. وقد فعل هذا



بطريقة مفاجئة وغادرة للغاية. إذ أصدر ميزانيته التنفيذية دون ذكر كلمة حول هذه المسألة. لكن بعد أيام لاحظ مراسلون صحفيون مسح سطر في الميزانية، وحين سئل عنه، أجاب المحافظ جواباً ريائياً بأن عمله هو «للتماشي مع سياسة إزالة المراكز الشاغرة. عند ذلك، أرسل روجر بولدوين، وهو مدير اتحاد الحريات المدنية الأمريكية، إلى المحافظ برقية عبّر فيها عما كان يجول في أذهان الكثير من المراقبين، إذ كتب يقول: «هذا العمل الذي قمت به بإلغاء قرار هيئة التعليم العالي التابعة لك، يبدو لي موضع اعتراض أكثر بكثير من قرار القاضي ماك غيهان القائم على أهوائه الخاصة». ذلك أن حركة المحافظ لا سابقة لها، وحسب رأي الخبراء، لم تكن لها أية قوة قانونية، نظراً لأن هيئات إدارة المدارس وحدها هي التي تتحكم بأي إنفاق ضمن ميزانياتها.

مع ذلك، لم يكن هذا كافياً لشطب المخصصات الخاصة بمحاضرات رسل من الميزانية. إذ كان ينبغي تسديد كل واردة من الواردات، ولكي يتأكد من أن تعيين رسل لا يمكن أن يتم في أي مركز آخر، فإن بورو رئيس ليونز، قدم مشروع قرار إلى اجتماع هيئة التقديرات بحيث يصبح جزءاً من البنود والشروط في الميزانية القادمة، إذ كان القرار ينص على أنه «ما من أرصدة مخصصة هنا يمكن استعمالها من أجل استخدام برتراند رسل».

هذه الإجراءات جعلت من المستحيل على أي استئناف في المحاكم أن يؤدي عملياً إلى إعادة تعيين رسل. مع ذلك، وكمسألة مبدأ، فإن أغلبية هيئة التعليم العالي قررت أن تمضي بالقضية إلى المحاكم العليا. في هذه المرحلة، أعلم السيد تشاندلر، مسؤول النقابة، هيئة التعليم العالي أنه لا يمكن أن يقوم بالاستئناف. إنه



يشارك الهيئة رأيها بأن قرار القاضي «غير سليم قانونياً» بل نصحها بأن بإمكانها أن تتجاهل القرار عند إقرارها تعيينات في المستقبل، لكن رغم هذا، فإنه أوصاها بعدم متابعة القضية أبعد من ذلك الحد. ذلك أنه بسبب نقاط الخلاف الأخلاقية والدينية التي تتعلق بهذه القضية، فإن المحاكم العليا، كما قال، يمكن أن تثبت الحكم. في الوقت نفسه، أعلن المحافظ أنه «يدعم» كل الدعم رفض السيد تشاندلر الاستئناف. ولعل كلمة «أوحي له» هي الكلمة الأصح التي يجب أن نستخدمها هنا.

عند ذاك توجهت غالبية الهيئة إلى الاستشارة القانونية الخاصة، وقد تبرعت مؤسسة روت وبالانتين بتقديم خدماتها مجاناً. لقد كان السيد بكنر النائب العام السابق لمنطقة نيويورك الجنوبية، يساعده السيد جون هارلان، وبالاستناد إلى عدد من السوابق، فقد طلب السيد هارلان من القاضي ماك غيهان أن يجعل من مؤسسته القانونية بديلاً لمستشار النقابة كممثل قانوني للهيئة. كما أكد أن الهيئة لم تعترض برد رسمي قبل حكم ماك غيهان، وأنها كانت مؤهلة لإبطال القرار، لو فعلت ذلك. لكن لن يفاجأ القارئ حين يعلم أن الصليبي المتزمت لم يجد أية قيمة في طلب السيد هارلان، إذ قرر أنه لا يمكن استبدال مستشار النقابة بدون موافقته كما أشار بازدراء إلى أغلبية الهيئة واصفاً إياها بأنها «زمرة ساخطة» لا يمكنها أن تعيد إلى المقاضاة ما تم إصدار حكم به مسبقاً. بناء على هذا الحكم تم رفض كل طلبات الاستئناف من قبل المحاكم العليا، وبما أن مستشار النقابة رفض التصرف فقد وجدت النقابة نفسها بلا حول أو طول حيال الاستئناف ضد حكم ماك غيهان الذي ألغى تعيين رسل.



بعد أن نشر حكم ماك غيهان مع كل ما رافقه من نميمة وقيل وقال حول شخصيته، نصح بعضهم رسل بأن يمثله مستشار مستقل. فوكل المحامي السيد أوزولد فرانكل الذي رشحه له اتحاد الحريات المدنية الأمريكية. في الحال قدم فرانكل، باسم رسل، طلباً من أجل جعل رسل جزءاً من الإجراءات القضائية، كما قدم طلباً أيضاً للسماح بالاحتفاظ بردٍ في الإضبارة على اتهامات غولدشتين الفضائحية، لكن ماك غيهان رفض الطلب على أساس أن رسل ليس له «مصلحة قانونية» في القضية. هذا القرار نقله السيد فرانكل إلى قسم الاستئناف في المحكمة العليا الذي أيّد بالإجماع ماك غيهان دون أن يقدم أي سبب لفعله ذاك. بعدئذ طلب إذناً من قسم الاستئناف لنقل الطلب إلى محكمة الاستئناف، وقد رفض هذا أيضاً. التحركات القانونية المتبقية والقليلة المتاحة للسيد فرانكل كانت عقيمة أيضاً. وإنه لمدهش، بالحقيقة، أن السيدة كي، التي لم تستطع ابنتها أن تصبح من طالبات رسل، كان لها مصلحة قانونية في القضية في حين لم يكن لرسل، الذي تعرضت سمعته ومعيشته للخطر، أية مصلحة. لقد أبدى الأستاذ كوهن ملاحظة مناسبة تماماً في هذا الإطار حين قال: «إذا كان هذا هو القانون، إذن بالتأكيد وبلغة ديكنز»، «القانون حمار».

بهذه الطريقة منع كل من هيئة التعليم العالي وبرتراند رسل نفسه من تقديم طلب استئناف فعال، وبذلك أصبح حكم ماك غيهان نهائياً. ولقد علق جون ديوي قائلاً: «كأمريكيين، يمكننا فقط أن نحمر خجلاً لوصمة العار هذه على جبين سمعتنا في هذه التمثيلية المحبوكة جيداً».



من كاليفورنيا، ذهب رسل إلى هارفارد التي، ربما، لم يأخذ رئيسها وزملاؤه على محمل الجد إعلان ماك غيهان بأن رسل «لم يكن مناسباً للتعليم في أية مدرسة في البلاد». ورداً على توماس دورغان، أصدروا بياناً قالوا فيه: «إنهم أخذوا علماً بما يجره هذا التعيين من انتقاد»، لكنهم خلصوا، بعد مراجعة كل الظروف، إلى أنه كان عليهم من أجل «المصلحة العليا للجامعة أن يثبتوا قرارهم وقد فعلوا ذلك». محاضرات رسل في هارفارد مضت دون حوادث، رغم أنني أفترض أن إحصائيات الاغتصاب وخطف البنات كانت بشكل من الأشكال أعلى من المعتاد. بعدئذ درّس رسل لعدة سنوات في مؤسسة بارنز في مريون، بنسلفانيا، وفي 1944، عاد إلى إنكلترا حيث منحه الملك جورج السادس، بعد عدة سنوات وسام الاستحقاق. ولا بد من القول هنا إن ذلك أظهر لا مبالاة يؤسف لها من جهة الحاكم البريطاني بأهمية القانون الجزائي.

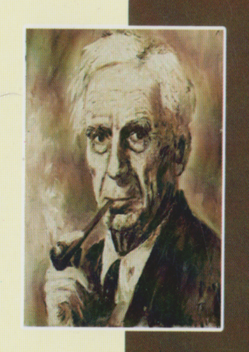
سنة 1950، ألقى رسل «المحاضرات القيثارية» في جامعة كولومبيا. وقد جرى له استقبال حافل من غير المحتمل أن ينساه أولئك الذين حضروه. إذ جرت مقارنته باستقبال فولتير سنة 1784، لدى عودته إلى باريس، المكان الذي سُجن فيه ثم نفي منه. بعد ذلك، سنة 1950 أيضاً، منحت اللجنة السويدية، التي يفترض أن معاييرها كانت «أدنى مما تتطلب العفة والحشمة العامة». برتراند رسل جائزة نوبل للآداب. لكن دون أي تعليق من السيدة كي أو السيد غولدشتين أو القاضي ماك غيهان، أو أنه لم ينشر أي تعليق، على الأقل.



الفهرس




مكتبة
الفكر الجديد



BERTRAND RUSSELL

Why I am not a Christian

طوال حياته، كان برتراند رسل كاتباً غزير الإنتاج وقد جاءت بعض أعماله على شكل كراسات صغيرة ومقالات نشرت في دوريات مختلفة. ذلك ينطبق بصورة خاصة على مناقشاته للدين، فكثير منها لا يعرفه إلا القلة خارج دوائر عقلانية معينة، لقد جمعت في هذا الكتاب عدداً من تلك المقالات عن الدين كذلك بعض الكتابات الأخرى مثل "مقالات عن الحرية والكليات" و"أخلاقنا الجنسية" التي ما تزال ذات أهمية موضوعية كبيرة.

فرسل لم يكن يوماً من الأيام فيلسوفاً تقنياً محضاً، بل كان دائماً معنياً بشدة بالمسائل الأساسية التي قدمت الأديان أجوبتها على كل منها. المسائل المتعلقة بمكانة الإنسان في الكون وطبيعة الحياة الصالحة. وهو في معالجته لهذه المسائل كان بالحسم والذكاء والفصاحة ذاتها، كما عبر عن نفسه بنثره المتألق ذاته الذي اشتهرت به أعماله الأخرى. هذه الصفات تجعل المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب ربما الأشد إثارة وروعة في كل ما قدمه موقع المفكرين الأحرار منذ أيام هيوم وفولتير.


9789933429577